الدين والثورة
في مصر
١٩٥٢ - ١٩٨١

٥- الحركات الدينية المعاصرة

دكتور حسن حنفي

الناشر
مكتبة مدبولي

الدين والثورة

في مصر

١٩٥٢ - ١٩٨١

المسلمون فى آسيا

فى مطلع القرن الخامس عشر الهجرى

أولا : مقدمة :

مازال العالم الاسلامى واقعا بين المطرقة والسندان ، بين الاستعمار الغربى والهيمنة الشرقية ، وكأنه طائر مقصوص الجناحين ؛ جناحه الغربى فى افريقيا وجناحه الشرقى فى آسيا ، فأصبح جسم الطائر ذاته فى مصر ، قلب الامة العربية ، ومركز الثقل فى العالم الاسلامى ، لايقوى على الحراك ، يتعثر الخطى ، ولايقدر على النهوض جريحا ينزف دما ، ويظن الاعداء أن روحه تفيض وأن أجله قد حان • مع أن جندها خير أجناد الارض ، وشعبها مرابط الى يوم القيامة (٢) •

وان كنا قد انشغلنا كثيرا بجناحنا الغربى فى مواجهتنا الحديثة ضد الاستعمار فاننا قد نسينا جناحنا الشرقى مع أن به أكثر من ستمائة مليون مسلم أى أكثر من ثلاثة أرباع المسلمين فى العالم • وقد كان الاستعمار

اليسار الاسلامى ، العدد الاول ، القاهرة ١٩٨١ .

(١) القيت خلاصة هذا البحث كمحاضرة فى النشاط الثقافى لمنظمة تضامن الشعوب الاسيوية والافريقية يوم الاربعاء ١٩٨٠/١/٩ فى دار كتاب آسيا وافريقيا « جمعية الادباء » واثر زيارتى لافغانستان وللجمهوريات الاسلامية بالاتحاد السوفيتى فى نوفمبر ١٩٧٩ .

(٢) عمر بن يوسف الكندى : فضائل مصر ، تحقيق ابراهيم العدوى ؛ على محمد عمر ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧١ .

المغربى أيضا فى جاوة والفلبين وأندونسيا لايقل خطورة وعنفا عن الاستعمار الغربى فى المغرب العربى وفى مصر وسوريا والعراق وفلسطين • أما فى آسيا فان الاسلام الصامت هناك ، الرابض فى قلوب المسلمين جعلنا غير قادرين على سماعه ، وان كنا نشعر به • لم يكن هناك احتلال مباشر للاراضى ولكن كانت هناك هيمنة وضم للامارات الاسلامية فى أواسط آسيا بعد نشوب ثورة أكتوبر ١٩١٧ تحت لواء الثورة الاشتراكية الكبرى •

وقد آن الاوان أن نعيد الى وعينا القومى التوازن فى اهتماماتنا بين جناحينا الغربى والشرقى،وأن نذكر المسلمين فى قلب العالم الاسلامى بالمسلمين فى آسيا حتى لا نظل فريسة للاستعمار يجذبنا أمامه ، ونتجه بوعينا نحوه ، وأن نغفل توجيه وعينا نحو عالمنا الاسلامى فى الشرق •

وقد انتشر الاسلام أول ما انتشر فى آسيا • وانطلقت جيوش المسلمين الى فارس فى معارك نهاوند والقادسية • وانتصر المسلمون على الفرس مع انتصارهم على الروم فى اليرموك وعلى أسوار حصن بابليون • وتم فتح فارس فى نفس الوقت الذى تم فيه فتح مصر والشام فى عهد عمر • وخرجت الجيوش الاسلامية فى عهد عثمان ، ووصلت الى أواسط آسيا ، الى بلاد ما وراء النهر ، خراسان ، وأذربيجان • وهناك استقر الصحابة الاوائل ، واستشهد التابعون • ومازالوا بقبورهم شاهدى عيان على مآثرهم ، يزورهم المسلمون ويتحسرون على ما مضى ، ويبكون على مافات •

وفى آسيا ، تكونت امبراطوريات اسلامية ، وفيها انتشر الاسلام حتى الصين • وهناك تراث تيمورلنك وآثاره حيث كان الاسلام بؤرة

ثورية ينتشر منها الاسلام فى كل اتجاه ، الزحف شرقا الى الصين ، أو غربا الى العراق وتركيا أو جنوبا الى الهند وفارس أو شمالا الى سهول آسيا الوسطى • وفى تاريخنا الحديث قام السلطان « محمود الغزنوى » فى شمال الهند ، وقام السلطان « أكبر » أيضا بتوحيد الامة الاسلامية فى الهند • فاستمرت فتوحات المسلمين فى آسيا دون توقف • ولم تتوقف الا اهتماماتنا بها •

وقد ارتبطت آسيا بالخلافة الاسلامية ، رمزا لوحدة الامة • وكانت فجيعة المسلمين هناك خاصة فى الهند بقضاء كمال أتاتورك عليها• لم يعد لهم مركز جذب فى قلب العالم الاسلامى فاجتذبتهم مراكز أخرى خارجه ، وبدل أن يكونوا أطرافا للدولة العثمانية أصبحوا أطرافا للجمهوريات السوفيتية الاشتراكية المتحدة • أعطتهم تركيا صورة الاسلام بلا مضمون ، وأعطتهم الثانية مضمون الاسلام بلا صورة • وتساءل الناس هنا وهناك : مسلمون بلا اسم فى تركيا ، واسلام بلا مسلمين فى الصين والاتحاد السوفيتى •

وقد رسخت عقيدة أهل السنة فى أواسط آسيا بوجود الصحابة مثل « قثيم بن عباس » ، وأئمة مثل « البخارى » و « الترمذى » • فآمن المسلمون بالاسلام الواضح الجلى ، وتمسكوا بالسنة • وظل الاسلام فى قلوبهم حيا ، يتمسكون بالشعائر ، ويحافظون على هويتهم القومية الاسلامية حتى ولو عصفت بهم حوادث الزمان ، وضاعت أماراتهم ، وفر أمراؤهم ، وتبدلت عليهم النظم السياسية ، ونسيهم المسلمون •

وقد كان أهل فارس أهل علم • وعلى يديهم نشأ التراث الاسلامى• وان كان التعريب لديهم قد تأخر الى حين ، ولم ينتشر قدر انتشاره فى

المغرب الاسلامى الا أن اللغة الفارسية بجوار العربية أصبحت لغـــة العلم . ألف فيها المسلمون عربا وعجما . ونشأ فى تراثنا أنصـــار الحكمة الفارسية مثل ابن مسكويه فى مقابل أنصار الحكمة اليونانية وعلى رأسهم الفلاسفة وأخوان الصفا . ومن ثم يرجع جزء من تكويننـــا الذهنى الى آسيا . وألف علماء الفرق الاسلامية فى التراث الاسيوى ، وتحدثوا عن حضارات الهند والصين وفارس مثل الشهرســـتانى « الملل والنحل » كما درس علماء المسلمين ومؤرخوهم حضارات آسيا مثـــل البيرونى فى كتابه المشهور « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقـــل أو مرذولة » .

وقد حاولنا نحن اقتفاء أثر القدمـــاء . فوضعنا فى جامعاتنـــــا « الفكر الشرقى القديم » ضمن مقرراتنا ، فى محاضرة مقصورة على طلاب يبلغون أقل من أصابع اليد الواحدة ، معتمدين على مراجع تجعل من آسيا مقدمة لاوربا ، وتتصور الحضارات الشرقية القديمة على أنها مقدمات دينية لاهوتية أخلاقيـــة علمية اسطورية تسلطية للحضـــارة الغربية قبل بدايتها عند اليونان حيث العلم والمعرفة والنظر والنزاهة والحرية والديمقراطية والتى انتهت الى حضارة الغرب العلمية العلمانية التى ورثت حرية الفرد وديمقراطية المجتمع * .

وعلى العكس منا،اكتشف فلاسفة التاريخ المعاصرين «ريح الشرق» East Wind بعد ثورات الصـــين وفيتنام ونهاية الشوفينية الغربية ، وضرورة اعادة التوازن فى التاريخ العالمى بين حضارة الغرب وحضارة

---

* أصبحت هاتان الساعتان ضمن مقررات الفرقة الاولى لقســـم الفلسفة بجامعة القاهرة وضمن مقررات قســـم الفلسفة أيضـــا فى جامعة صنعـــاء .

الشرق ، وبأنه لا يوجد نموذج واحد للتطور ، وهو النموذج الغربى . ودقت أمريكا باب الصين ، وقامت حرب اكتوبر ، واندلعت الثورة فى ايران ، وقامت الحركات الاسلامية الثورية فى كل ارجاء العالم الاسلامى، وتحدث الغرب عن يقظة الاسلام ، واكتشف العالم الاسلامى قدراته الخلاقة ، وامكانية تغيير نظمه ، والتحكم فى مصائره ، والسيطرة على مقدراته ، والتحكم فى قدره .

والتراث الثورى الاسيوى ليس ببعيد عنا . فقد ساهم السلطان جالييف والافغانى فى الدعوة الى انشاء جامعة شعوب الشرق ، ومن أجل انشاء جمهوريات اسلامية اشتراكية فى آسيا ثم توحيدها كلها فى حركة عامة ، حركة تحرر شعوب الشرق فى مواجهة الاستعمار الغربى . كما ساهمت الشورات العربية الحديثة بزعامة الزعيم جمال عبد الناصر فى تأسيس مؤتمر باندونج فى ١٩٥٥ ثم حركة دول عدم الانحياز ، ثم منظمة تضامن شعوب آسيا وأفريقيا ، ثم مؤتمر القارات الثلاث ، كل ذلك ليعيد الى وعينا القومى البعد الآسيوى لتاريخنا حتى يمكن أن نتحرر من بقايا الاستعمار فى وعينا القومى وأن نتجه شرقا كما اتجهنا غربا .

ولا يعنى الانفتاح شرقا مجرد التأييد الاقتصادى والعسكرى والدولى فى قضايا القومية المصيرية كما حدث أبان الثورات العربيـــة الاخيرة ، أو الاثر الايديولوجى كما حدث فى أحزابنا الماركسية وبالاحرى الدخول فى أحلاف المعسكر الشرقى ومعاهدات صداقة كما حدث فى بعض أنظمتنا العربية ولكن يعنى اكتشاف امتدادنا الطبيعى فى قـــارة تزخـــر بامكانياتها البشرية والمادية ، واثراء تراثنا القومى الاسلامى فى دائـــرة حضارته الطبيعية ، الدائرة الاسيوية الافريقية

ولن نقوم باعطاء مادة احصائية عن أحوال المسلمين تعدادا واحصاء للامكانيات البشرية أو للثروات الطبيعية أو لاحوالهم الاجتماعية كمـــا

يحدث أحيانا فى أجهزة الاعلام الغربية التى تهتم بالتحليل الكمى لمستقبل المنطقة كمنافس لها أو على أقل تقدير كمسترد لثرواتها وأسواقها وشخصيتها وهويتها واستقلالها • فنحن لا نتعامل مع وقائع بل مع « ماهيات » تعتمد على التجارب المباشرة ومعايشة الثورة الاسلامية فى ايران ، والاسلام المنبوذ فى افغانستان ، والاسلام المكبوت فى الجمهوريات الاسلامية فى أواسط آسيا • ليس القصد هو اعطاء معلومات كمية كما يفعل المستشرقون الذين يودون حساب القوى والقدرات ولكن يومنا فهم تاريخنا من منظور الامة الاسلامية من أجل سماع ايحاءات التاريخ واعطاء توجيهات للمسلمين للمساهمة فى حركته •

وهو مجرد تخطيط عام ، ولفت نظر للجناح الشرقى للامة الاسلامية تعقبة تفصيلات عن أوضاع المسلمين فى كل دولة من دول آسيا • ومن ثم نوفى ببعض الدين لامتنا كما يفعل الفقهاء ، حارسو الشرع والمدافعون عن مصالح الامة ، والذابون عن حوضة الاسلام •

لقد حاول الاستعمار ضرب قلب العالم الاسلامى برا فى الحروب الصليبية • فلما فشل حاصرها بحرا عن طريق الالتفاف حول سواحله فى افريقيا وآسيا • وقد نجح هذه المرة • والآن قد يتغير مجرى التاريخ عندما يعاصر جيلنا تحرر بلدان أفريقيا وآسيا ، ويعود الاستعمار الى موطنه الاصلى حين يتقلص الغرب ، ويعود الى حجمه الطبيعى • وفى الوقت الذى تدب فيه الحياة من جديد فى أفريقيا وآسيا ، تبدأ مرحلة أخرى من مراحل التاريخ كما بدأتها قديما عندما كانت أوربا مازالت قبائل متنافرة ، تحكمها شريعة الغاب •

واذا كان قلب العالم الاسلامى الآن قد استيقظ بدون اطرافه فان

الاطراف الآن قد بدأت فى الحركة ، ودبت فيها الحياة بعد أن توقف نبض القلب أو بطأت سرعته • وربما تؤدى حياة الاطراف الى احياء القلب من جديد فينهض الجسم كله ، جسم الامة الاسلامية وتتصدر مكانتها فى التاريخ •

وهذه الدراسة ليست موجهة ضد أحد أو فى صف أحد • ليست ضد الاتحاد السوفيتى فى صف الغرب ، أو ضد الغرب فى صف الاتحاد السوفيتى بل تحتوى على وصف لاحوال المسلمين فى آسيا ، خاصة فى ايران وأفغانستان والجمهوريات الاسلامية فى الاتحاد السوفيتى من وجهة نظر مشاعر المسلمين ، والامة الام • ليست انحيازا للشرق مادامت الامة الاسلامية بتاريخها الطويل مع الاستعمار معادية للغرب ، قدمت له العلم والحضارة أثناء الحروب الصليبية وبعدها فقابلها بعد ذلك بالغزو والاحتلال والسيطرة • علمتهم الامة الاسلامية الرماية فلما اشتدت سواعدهم رموها •

يهمنا من فقهاء الامة الاسلامية أن يكملوا ما بهذه الدراسة من نقص أو يصححوا ما بها من أخطاء فهى قضية الامة كلها ، والكل مسئول عنها ، المؤرخ والسياسى والاجتماعى والاقتصادى والقانونى والمفكر والاصولى والمتكلم والفيلسوف والاديب ، كل علماء الامة • والحكم فى النهاية للجمهور •

ثانيا : الهوية الاسلامية (ايران) •

كانت الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران المؤشر الحقيقى على يقظة المسلمين ، وظهور الاسلام ، هذا المارد العملاق من « القمقم » •

فقد اندلعت على غير انتظار وتوقع بعد أن كانت ايران بالنسبة للغـرب واحة أمان ، وبعد أن كان جيشها ثالث أقوى جيش فى العالم ، بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبعد أن كانت ايران واسرائيل تمثلان ركيزتا الدفاع عن الغرب فى آسيا ، وبعد أن تمت أكبر محاولات « التغريب » فى المنطقة واعتبار ايران قطعة من أوربا كما حاول اسماعيل ذلك مع مصر فى القرن الماضى . أصبحت الثورة أكبر مهدد لمصالح الغرب فى المنطقة ، وأصبحت قوتها فى شعبها المسلح الذى ينزل الى الشوارع بالملايين دفاعا عن الثورة ضد أعتى جيوش العالم ، وأصبحت أكبـر معاد للاستعمار والصهيونية ، تتجاوز فى عدائها حتى الانظمة العربية التى ورثت ثوراتنا العربية الاخيرة . كما أصبحت الثورة أكبر تحـــد للغرب ، وأكبر مؤكد للهوية الاسلامية كهـوية قومية ، وأكبر مثبت الاستقلال الوطنى ضد سياسة الاحلاف الغربية والانحياز للغرب. وليس موضوع الرهائن ، فى واقع الامر ، الا أحد مظاهر هذا التحدى ، ثورة اسلامية فى مواجهة أعتى قوى الطغيان ، ايران التى حاول الغرب أن يجعلها جزءا منه فى مواجهة الولايات المتحدة الامريكية التى طالما أذلت الشعوب والتى تقف الآن عاجزة أمام دولة صغيرة من دول العالم الثالث، فالطغيان يقف مسلوب الارادة أمام الحرية . ثورة تؤكد نفسها بعد أن حاول الاستعمار الغاء هويتها . ويتحول الاذلال التاريخى للشعوب المستعمرة الى اذلال تاريخى آخر للدول الاستعمارية . ولن تقبل الثورة الايرانية بأقل من اعتراف رسمى، من الولايات المتحدة بجرائمها ضـــد ايران أثناء حكم الشاه بل وضد كل الشعوب التى أرادت الولايات المتحدة اذلالها . وسيظل التحدى للغرب أحد العناصر الدائمة فى الثورة الايرانية مهما تغيرت صور الحكم . لقد كشفت الثورة الايرانية ، فى موضوع الرهائن ، عجز الغرب ، وعرته عن انسانيته المزيفة عندما ضحت

الولايات المتحدة بحليف الامس ، الشاه فى مقابل القوى الثورية الجديدة من أجل احتوائها • وعندما أرادت تقديمه قربانا فى مقابل خلاص الرهائن لولا أن فر الشاه بجلده الى حيث الدعة والاستكانة • فالانسانية الغربية تظهر فقط للغربيين أما الشرقيون فلا انسانية معهم حتى ولو كانوا ملوكا وأباطرة • ان المغزى الحقيقى للثورة الايرانية فى موضوع الرهائن هو تحدى الغرب ، وسر عداء الغرب لها هو تحدى الثورة له ، وتحجيمه وحصاره وكشف عنصريته الدفينة حيث كان يظن أن العالم كله ميدان مفتوح ، يرتع فيه بلا حساب •

كما أظهرت الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران استقلالها عن الاتحاد السوفيتى الذى كان يعتبر الشاه أيضا صديقه فى المنطقة وحليفا لها منافسا الولايات المتحدة فى كسب وده وصداقته • والعميل فى نهـاية الامر لايهمه عميل من ، هذا أو ذاك • وعداء الاتحاد السوفيتى المكتوم لها طبيعى • اذ أنها يمكن أن تكون محور جذب للمسلمين فى الجمهوريات الاسلامية المجاورة فى الاتحاد السوفيتى ، تحيى فيهم أمل تحـويل الحضارة الاسلامية الى دولة اسلامية مستقلة ، والعواطف الدينيـة المكتومة التى تظهر فى الشعائر والطقوس الى نظم سياسية علنية يجـد المسلمون فيها عزتهم وكرامتهم واستقلالهم ، والانقطاع الحضارى الى اتصال تاريخى ، وبالتالى تتحقق الوحدة فى شخصيتهم الوطنية ، ويكون ما فى القلب على اللسان ، ويصبح ما بالداخل فى الخارج ، ويتحول التمنى الى واقع • وقد وقفت الثورة الاسلامية فى ايران فى وجه الغزو السوفيتى لشعب أفغانستان ، وتمد الثوار المسلمين بالسلاح ، بالرغم مما قـد يثيره الاتحاد السوفيتى من قلاقل على الحدود الايرانية • ولكن الخطـر المباشر من الاستعمار الغربى كان له مكان الصدارة على الخطر الملفوف• وفى المثل ، عدو عاقل خير من صديق جاهل •

وقد استطاعت الثورة الايرانية اسقاط أعتى نظام دكتاتورى عرفه العالم ، وأكثر النظم تسلطا واعتمادا على الشرطة السرية ورجال الجيش وأجهزة المخابرات ، بعد أن أغدق عليهم الشاه من ثروة ايران كى يضمن ولاءهم له • وما شهدته ايران فى ٥ يونيو ١٩٦٣ ، يوم الشهداء ، باستشهاد عشرات الآلاف تحت جنازير الدبابات ، وآلاف المعذبين ، ومئات الشهداء ، ودماء الطلاب والاساتذة على جدران الاروقة فى جامعة قم جعل فى قلب كل مسلم فى ايران وخارجه ثأرا خاصا بينه وبين الشاه، لوطنه ولامته ولدينه • ومن هنا أصبح الاسلام مرادفا للحرية ، فالاسلام والطغيان لا يلتقيان ، وتتحقق قولة عمر الذى يقول كثير من الحكام المسلمين أنهم يسيرون على خطاه موجها اياها لابن الاكرمين « لماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » •

وقد تمثلت عناصر النجاح فى الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران فى ثلاث :

١ — قيادة حاسمة ممثلة فى الائمة بقيادة الامام الخمينى • لاتقبل المساومة أو انصاف الحلول ، وتقف فى مواجهة العروض الحقيقية والزائفة ، وتقاوم كافة الاغراءات • تثق الجماهير الاسلامية بها ، وتلهب خيال الشعوب الاسلامية فى كل مكان • تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ولاتخشى فى الله لومة لائم • وهى على اتصال وثيق بالجماهير الاسلامية فى الشوارع والازقة ، تقود جحافلها ، وتدافع عن مصالحها ، وتتكلم باسمها ، وتستشهد فى سبيلها • تعبر عن مصالح جماهير المسلمين ، ولا تتكسب منها أو تعيش على حسابها أو تخون القضية • تقف فى وجه التسلط والطغيان ، وتنذر الطغاة ، وتفضح أفعالهم •

٢ — الاسلام كهوية قومية ، وشخصية وطنية ، وايديولوجية ثورية للشعوب الاسلامية . فالاسلام يعنى تأكيد الانا ضد الآخر ، واثبات الاصالة ضد الاغتراب ، وبلورة الذات ضد ذوبانها فى شخصيات الآخرين . لقد استطاع الاسلام أن يحدث أكبر رد فعل على « التغريب»، وأظهر نفسه وفكره فى مقابل أيديولوجيات الغرب من رأسمالية وماركسية وليبرالية وقومية . وفى نفس الوقت يعبر عن تاريخ الامة وحضارتها وفكرها وقيمها . حتى ولو ظهر الاسلام كلفظ أو شعار أو كهدف بلا مضمون اجتماعى وسياسى واقتصادى واضح فانه يكون كطوق النجاة بالنسبة للامة الاسلامية فى لحظة انتفاضتها ضد التميع والاغتراب . ثم يأتى بعد ذلك دور المفكر المسلم فى صياغة الاسلام طبقا لحاجات الثورة وتحقيقا لمصالح الامة ، مع الجرأة فى التشريع والثقة بالنفس (٣) .

٣ — الشعب باعتباره رصيد الثورة وقوتها ومادتها ، صاحب المصلحة الحقيقية فى الثورة ، والقادر على النزول الى الشوارع والطرقات ليس فقط لمدة يومين ، بعد أن تعجز الشرطة ينزل الجيش ، بل لعدة أشهر متتالية حتى استسلم جيش الشاه ، وسقطت شرطته السرية ، وتداعى ملكه من على عرش الطاووس . والشعب بجميع طبقاته وفئاته وعلى اختلاف مستويات تعليمه ، وبجميع اتجاهاته السياسية فى جبهة وطنية واحدة تضمنها الثورة الاسلامية المرادفة للثورة الوطنية . والشعب مسلح

---

(٣) ومن هنا تأتى اهمية الكتابات الثورية لمفكرى الثورة الايرانية وعلى رأسهم : على شريعتى فى الفلسفة ، والحسن بنى صدر فى الاقتصاد . ومهدى بازركان فى السياسة .

بقواه ، وحناجره ، وأبدانه ، وسواعده ، وكتله المتراصة ، وبطلقات رصاصه يواجه العنف القهرى بالعنف الثورى .

وهكذا نجحت الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران كما نجحت الثورة الاسلامية الاولى فى مواجهة الروم والفرس ، وضد طغيان أشراف مكة ومشايخ القبائل العربية : قيادة مؤمنة وطليعة ثورية ممثلة فى الصحابة . والتوحيد كعقيدة ثورية تحرر وجدان الافراد وتقضى على نظم التسلط والطغان والمجتمعات الطبقية من أجل تأسيس مجتمع اسلامى جديد يقوم على الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية ، وجماهير المؤمنين الغازية فى سبيل الله لتحقيق رسالة التوحيد والتى لا تعرف لها أسرة أو محلا أو بقعة الاستشهاد وفى سبيل الله على أرض الله .

والتحمت الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران بحركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث وبالاتجاهات الثورية فى العالم كله ، وأصبحت باسم الاسلام رصيدا لاينضب للثورة العالمية . لقد جددت شباب الثورة فى كل مكان خاصة فى آسيا وفى العالم الاسلامى كله بعد أن خفت صوتها باختفاء زعمائها الاوائل : نهرو ، وناصر ، ونكروما ، وسوكارنو ، وشوين لاى ، ولومومبا ، وهوشى منه ، وخفت أصوات من تبقى منهم مثل سكوتورى وكاوندا أو انحاز البعض منهم مثل كاسترو وجوموكينياتا . كما أكدت على الارادة الوطنية المستقلة ، وانضمت الى دول عدم الانحياز ، وألهبت مشاعر ملايين المسلمين فى آسيا وأفريقيا كما ألهب ناصر من قبل بتأميم قناة السويس فى ١٩٥٦ مشاعر الجماهير فى مصر والعالم العربى ، وأصبح بعدها رمزا لحركات التحرر الوطنى ، وكما ألهبت الوحدة مع سوريا وتكوين أولى محاولة وحدوية فى تاريخ العرب

الحديث « الجمهورية العربية المتحدة » فى ١٩٥٨ مشاعر الامة العربية فتصورت انها قاب قوسين أو أدنى من الوحدة العربية الشاملة • كما ألهبت حرب اكتوبر ١٩٧٣ مشاعر الامة العربية فى صراعها الابدى مع الصهيونية من أجل تحرير الاراضى العربية المحتلة • كانت الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران تحقيقا للصورة الوطنية التى بدأها مصدق فى ايران بتأميم البترول فى ١٩٥٣ ، والخمينى ماهو الا مصدق يبعث من جديد •

وقد التحمت الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران بوجه خاص بالثورة الفلسطينية ، واصبح الطريق الى القدس مارا بطهران • « ايران اليوم وغدا فلسطين » • توحدت الثورة الايرانية بقضية العرب الأولى ، وأرسلت متطوعين فى صفوف المقاومة ، وقضت على جحور الصهيونية بايران ، وصفت معابد البهائية التى كانت صهيونية مقنعة فى ثوب اسلامى ، وكرها الرئيسى فى حيفا ! وقد تجاوزت الثورة الايرانية بمراحل مشاريع الانظمة العربية بالنسبة لقضية فلسطين كلها من الصهيونية وعودة أراضى المسلمين الى المسلمين ، فالصراع بين الاسلام والصهيونية صراع عقائدى مبدئى لا مساومة عليه ولا تفريط فيه •

والثورة الايرانية بالنسبة لنا تجديد لشباب الثورات العربية الحديثة وبعث للناصرية على مستوى شعبى اسلامى • وقد كان ناصر على علاقة وثيقة بالخمينى منذ أوائل الستينات يؤيده ماديا ومعنويا • كما كانت المقاومة الفلسطينية على صلة وثقية بالحركة الثورية الاسلاميه بايران فى السبعينيات • كانت ثورة الضباط الاحرار فى مصر فى يوليو ١٩٥٢ وحكومة مصدق الوطنية فى ١٩٥٣ أحد مظاهر الحركات الوطنية التحريرية فى العالم الثالث • فالثورة الاسلامية كالناصرية كلاهما

معاديان للاستعمار والهيمنة ، مدافعان عن الاستقلال الوطني للشعوب ، مناهضان للصهيونية ، يعملان لنيل حقوق شعب فلسطين . ولو لم ينشأ الصراع على السلطة بين الثورة والاخوان ، ولو لم تفشل الثورة فى اقامة حزب طليعى جماهيرى يكون هو الضامن لاستمرار الثـورة وايجـاد علاقة عضوية جوهرية بين الزعامة الثورية والجماهير أصحاب المصلحة الحقيقية فى الثورة ، لما تعثرت ثم انتكست وتراجعت . والعجيب أن الاستعمار يعلم ذلك ، يعلم أن الثـورة الايرانية هى ظهير الثورات العربية . لذلك حاول الايقاع بين الثورتين كما يحدث بشكل مؤسف بين الثورة الايرانية وثورة يوليو — تموز ١٩٥٨ فى العراق بدعوى خـلاف على الحدود أو الجزر فى مدخل الخليج أو تسميته بالالفاظ العربى أم الفارسى ! وكأنه فى كلتا الحالتين لا يقطنه المسلمون ، ولا ينتشر فوقه الاسلام الذى وحد بين القوميات ، وصهر الشعوب ، وجعل الحسن أخا للحسين . والحقيقة أن الخلاف بين الثورتين هو فى واقع الامر خـلاف على السلطة بين نظامين . اذ يخشى الحكم فى العراق من معارضة الشيعة فيه بعد أن تم استقطابها نحو الثورة الايرانية خاصة وأن مشـهد والكوفة والنجف بمدارسها وحوزاتها وجامعاتها وأئمتها وطلابها رصيد الاسلام فى ايران فيثير القلاقل أمام الثورة الايرانية ، واحدة بواحدة وكأن الاتفاق مع الشاه بصدد مشكلة الاكراد كان أيسر وأسـهل من الاتفاق مع الثورة الايرانية ، وكأن الاتفاق على جبهة شمالية شرقيـة تضم سوريا والعراق وايران فى مواجهة اسرائيل لايسـاوى شيئا ! وتخشى الثورات العربية برنامج الثورة الايرانية الذى تجاوز حدودها ، وتمثل أقصى مايتمناه المشروع القومى العربى بالنسبة لفلسطين . ولكن حرصا على السلطة ، وبتأييد من الغرب تصورت الثورات العربية الثورة الايرانية أنها ثورة قومية شوفينية تحتل الجزر العربية فى مدخـل

الخليج ، لهـا أطماعهـا فى الارض العربيـة على سواحل الخليج . والايرانيون فى الدول العربية المتاخمة يدنيون بالولاء لايران وهم رهن الاشارة . فكما يؤيد العرب الثورة العربية فى عربستان تثـير ايران القلاقل فى البلاد العربية حتى يتم تصدير الثورة الاسلامية فى ايران فى كل مكان ابتداء من الجار . والحقيقة أن هذا الصراع المفتعل بين القومية العربية والقومية الايرانية من صنع الاستعمار الغربى ، وما نحن الا ضحاياه عن وعى أو عن غير وعى ، حتى نحيل الانظار بعيدا عن الصراع بين القومية العربية والصهيونية ، ونتجه بوعينا من الخطر العربى الى خطر آخر متوهم من الشرق لا يأتى هذه المرة من الماركسية بـل من الاسلام الشيعى والقومية الايرانية ! ومع ذلك تظل الجماهير الاسلامية فى كل مكان خارج اللعبة السياسية . فالجزر هى مدخل الخليج لا هـى عربية ولا ايرانية بل جزر اسلامية . والخليج ليس عربيا أو فارسيا بـل خليج اسلامى . تقطنه شعوب اسلامية على ضفتيه . وفى نهاية الامـر لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى . يكفينا نحن العرب فخرا أن اللغة العربية أصبحت معممة فى جميع المدارس فى ايران قبـل اللغـات الاوربية . وأنها لغة العلم والدين ، يعرفها الائمة ويتخاطب بهـا العلماء . ويكفينا خجلا أن اللغة الفارسية لاتدرس لدينا الا فى أقسـام متخصصة بالجامعات ، ولم تعد لغة العلم لدينا كما كانت عند علمائنا وفلاسفتنا وأئمتنا وفقهائنا القدماء مثل ابن سينا والغزالى والرازى وغيرهم . وأننا أصبحنا ضحية الاستعمار الغربى ، نعلم اللغات الاوربية من انجليزية وفرنسية وألمانية وايطالية وأسبانية ولا نعلم لغات الامـة الاسلامية : الفارسية والتركية والاوردية ، ونصرخ كل يوم : تطبيق الشريعة الاسلامية ، ونناضل كل سنة عندما نصوغ دستورا جديدا ننص فيه على أن الاسلام هو الدين الرسمى للدولة ! ونـدافع عن الايمان

ونهاجم الكفر ، وندافع عن التراث ، ونهاجم المستورد في الفكر دون البضاعة ، وندافع عن الاسلام على الطريقة الرأسمالية (٤) .

وقد حاولت أجهزة الاعلام في الغرب تشويه وجه الثورة الايرانية والنيل منها . وتطوعنا نحن أيضا للترويج لهـذا التشويه على الرغـم منا ، فنحن أيضا ضحايا الاعلام المغربي والنظم الغربية . وبالرغم من أن بعض هذه الانتقادات قد يكون لها مـا يبررها موضوعيا الا أن الموضوعية في الثورة تتوقف على وجهة نظر أصحاب المصلحة أو من وقع عليهم الضرر قبل الثورة وبعدها ، ولما كان الغرب هو المضار كانت معظم هذه الانتقادات من وجهة نظر غربية خالصة سواء من داخل الغرب أو من النظم الموالية للغرب خارج الغرب . وأهم هذه الانتقادات هي أنها :

١ — ثورة دموية تبغي الانتقام وتقوم أجهزة الاعلام في الغرب باحصاء القتلى كل يوم بالارقام على نحو تصاعدي وكأنها مباراة رياضية يحل البشر فيها محل الاهداف . ولم يذكر أحد شهداء الشاه الذين بلغوا الآلاف ، ولم يذكر أحد معذبي « السافاك » لان ذلك القتل والتعذيب كان للوطنيين المناهضين للغرب يقبله العرب كجزء من الدفاع عن كيانه ، مأساة دموية ، قسوة لايعرفها تسامح الاسلام . وهنا يظهر تسامح الاسلام لانه في صالح الغرب ، ولم يظهر أيام الشاه الذي أمر بقتـل المعذبين أمام أسرهم . بل كانت قسوة الشاه وعنفه محل تأييد من الغرب باسم الاسلام أيضا المناهض للشيوعية . والقصاص جزء من الشريعة

---

(٤) انظر مقالنا : الاسلام على الطريقة الرأسمالية ، روز اليوسف ، رمضان ١٣٩٦هـ .

الاســلامية « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الالباب » (٢ : ١٧٩) وأيضا « كتب عليكم القصاص فى القتلى » (٢ : ١٧٨) .

٢ ـ قضاء غير عادل ، ومحاكمات سريعة تأخذ بالشبهات ، لا تتوفر فيها أدنى حقوق للمتهمين وضمانات المحاكمة العادلة وحق الدفاع عن النفس . وهو تصور غربى خالص لان جرائم القتل قد تظل فى قضاء الغرب عدة سنوات يصدر الحكم بعدها على القتلة بالبراءة نظرا لظروفهم النفسية أو الاجتماعية أو حالتهم العقلية أو رأى المحلفين أو أخطــاء شكلية فى صياغة القضية أو رشوة القضاه . ولكن القصاص فى الاسلام القائم على الشهداء العدول أو الاعتراف الصريح كما كان يحدث فى حالة رؤساء « السافاك » فى القرى والمدن عندما يتعرف عليهم المعذبون أو أقارب الشهداء أو عندما كانوا يعترفون بما ارتكبوه . القصاص فى الاسلام شريعة « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والانف بالانف ، والاذن بالاذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص » (٥ : ٤٥) . وعقوبة جريمة الافساد فى الارض منصوص عليها فى القرآن ومن أسس الفقه الجعفرى « أنما جزاء الذين يحاربون الله ورســوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخــرة عذاب عظيم » (٥ : ٣٣) . ولماذا يكون التعدى على حرمات الله حلالا والثأر لدين الله وتطبيق شريعته حراما ؟ .

٣ ـ تخلف وتقهقر ، وحجاب للنساء ، ورجم للزانى والزانية ، وتحريم للخمور ، وغلق للملاهى ، وتحريم لنوادى القمار . وهو أيضا منظور غربى خالص . « فالشادور » لباس وطنى مثل قبعة الاوربى ، وطربوش التركى ، وطاقية المصرى ، وعمامة رجل الدين ، وقبعة المكسيكى

والفيتنامى التى تمثل ثورات الفلاحين هناك • لا يدل « الشادور » اذن على حجاب المرأة بقدر مايدل على وطنيتها • أما الحدود الاسلامية فليس الهدف منها العقوبة والزجر والكبت والتزمت وضيق الافــق بل الهدف منها فى ايران القضاء على مظاهر « التغريب » فى الحياة القومية • فقد كان الاوربيون هم رواد النوادى الليلية واللاعبــون على موائد القمار ، والذين يروجون لبضاعة الجنس كما كانت هافانا قبل الثورة الكوبية • أن تأكيد الهوية الاسلامية قد يسهل بالمظاهر والشعائر والحدود ولكن الى حين • ثم تتحول الحدود الى حقوق وولايات ، وتتحول المظاهر الى نظم وأوضاع اجتماعية ومذاهب اقتصادية (٥) •

٤ ــ حكم الائمة ، ثيوقراطية ، خلط بين الدين والسياسة ، حكم رجال الدين ، سلطة العمائم ، كل ذلك قد عفا عليه الزمن اذ لا يمكن الجمع بين السلطتين الروحية والزمنية • فالدين دين والسياسة سياسة، ورجال الدين للمعابد والكنائس والمساجد ، ورجال السياسة للوزارة والحكم والمجالس • وهذا أيضا اسقاط من تاريخ الغرب على الامــة الاسلامية بعد أن حكمت الكنيسة الغرب فقهرت وتسلطت ، ومنحت صكوك الغفران ، وأقامت محاكم التفتيش ، وأحرقت المفكرين ، وأقامت المذابح للفرق المعارضة حتى انتصر المفكرون والعلماء عليها • وقامت الثورات الشعبية تضع نهاية لحكم الكهنوت ، وتقيم العلمانية فى مقابل الكهنوت • ولكن فى الامة الاسلامية الحكم للشريعة الاسلامية الوضعية وليس لشخص الله أو لمن يتمثله ويدعى أنه ظله فى الارض • والشريعة الاسلامية تقوم على المحافظة على الدين والعقل والنفس والعرض والمال

---

(٥) الخمينى : الحكومة الاسلامية ص ١٤ ، القاهرة ١٩٧٩ .

أى على أسس وضعية للدفاع عن مقومات الحياة المادية والمعنوية • ويقوم فقهاء الامة بالامانة على تنفيذها ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر • يعزلون الحاكم اذا خالف الشريعة أو اذا ما تهاون فى تطبيقها • ليس فى الاسلام حكم للعمائم بل الحكم للشريعة التى ترعى مصالح المسلمين •

٥ — تضارب فى السلطات ، حكومة ضعيفة ، أمام يوجه دفة الحكم من وراء ستار ، طلبة يسيطرون على الشارع الايرانى ، شعب يخرج بالآلاف فلا أحد يعرف من بيده الامر • أما تعدد الاتجاهات فى الغرب ، والصراع حول السلطة من الاحزاب ودور أجهزة الاعلام فى النقد والمعارضة فذاك فى رأى الغرب مظهر من مظاهر الديمقراطية الغربية التى ينفرد بها الغرب دون أحد سواه • والحقيقة أن الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران مازالت فى حالة الثورة ولم تتحول بعد الى دولة • وفى أعمار الثورات ، الفرنسية أو البلشفية ، يعد عام ونصف منذ نجاح الثورة الايرانية عمر قصير للغاية كى يتم هذا التحول من الوجدان الثورى الى النظام الثورى • مازال الشعب الايرانى فى حالة ثورة : الطلبة ، والجامعة ، والجيش ، والائمة ، والشارع • وكلهم قد ساهموا فى الثورة فالكل صاحبها ، والكل ولى الامر عليها ، والكل يتحدث بأسمها • لذلك لاتوجد سلطة مركزية أو مؤسسات دستورية باستثناء توجيات قائد الثورة للوجدان الثورى • قد يستمر ذلك الى حين تتفجر عواطف الجيل المكبوت أيام حكم الشاه • والوجدان الثورى ليس فوضى قانونية بل شرط للخلق والابداع ولابقاء الثورة فى الحياة اليومية وليس فقط فى الزعامة الثورية فى بحر ساكن من جماهير مستكينة •

٦ — فاذا فعلت الثورة لمشاكل البطالة والفقر ؟ ماذا قررت لتغيير

هيكل النظام الاجتماعى ولاعادة بناء الدولة لصالح الاغلبية ؟ ثورة تشغل نفسها بلا شىء باستثناء رذاذ الثورة دون مضمونها . بذاتية الثورة دون موضوعيتها • ومن ثم لن تأمن خطر الانقلابات والتصفيات ، وتفكك الجبهة الوطنية فيها ، وانحسار التيارات السياسية عنها • والحقيقة أن الثورة مازالت تعطى الاولوية لتأكيد الذات ، واثبات الشخصية ، وأن الاسلام هو ثورة الفقراء والمظلومين (٦) • ومازال هؤلاء يؤكدون ذواتهم سياسيا بالسيطرة على الشارع الايرانى قبل أن يثبتون ذواتهم اقتصاديا بتخطيط الاقتصاد القومى لصالحهم • والاشباع السياسى لدى الطبقات المحرومة يسبق الاشباع الاقتصادى • لذلك كانت الاولوية للسياسة فى البلاد النامية كما حدث فى ثورة الصين • فالحرمان السياسى أشد وأقصى على الشعوب من الحرمان الاقتصادى • لذلك تسبق الحرية الخبز • وفى مثلنا العامى « لاقينى ولا تغدينى » •

٧ — وقد أزدنا نحن فى أجهزة اعلامنا الحملة على الثورة الايرانية متكاتفين مع أجهزة الاعلام فى الغرب عن علم أو جهل ، عن قصد أو غير قصد ، بحسن نية أو بسوء نية وقلنا : كفر الشيعة ، ألوهية وأمامة ؛ أمامة ونبوة ، انتظار وغيبة • لقد جعل الخمينى نفسه المهدى المنتظر ، وادعى أن النبوة ناقصة ، وأن الامامة تكملها ، ونحن نحب النبى والصلاة على النبى ، والرسول خاتم الانبياء والمرسلين • فتأنف الجماهير من الثورة الاسلامية وتكفر دعاتها • وكان سلاح التكفير دائما عند القدماء والمحدثين هو أقوى سلاح ضد الخصوم السياسين لحصار المعارضة وتجريحها أمام جماهير المسلمين • مع أن فكر الامام الخمينى أقرب الى

---

(٦) الخمينى : الحكومة الاسلامية ص ٣٦ — ٤٠ القاهرة ، ١٩٧٩ .

فكر أهل السنة . فالائمة لديه هم فقهاء الامة وأمناء الرسل ، لا يقول بما تقول به غلاة الشيعة ، ويعلن ظهور الامام الآن ، وينهى الغيبة كما طالب ابن تيمية . وعقائد الشيعة ليست بالجديدة ، قتلها علماء الفرق بحثا ، وموجودة فى بطون الكتب كما نقلها علماء أهل السنة . والمحك بالنسبة لنا هو قدرة العقائد على تحريك الجماهير ودفعها الى استرداد حقوقها. وقد تمت صياغة عقائد الشيعة كعقائد للمعارضة فى مواجهة عقائد أهـل السنة كعقائد للدولة الرسمية . ونحن فى عصر تجمع فيه عناصر الامـة وتحقق وحدتها . لايهمنا « الفرق بين الفرق » بل « الجمع بين الفرق » . وكل من يبعث الفرقة فى الامة يلعب لعبة الاستعمار القديمة « فرق تسد». « ان هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » (٢١ : ٩٢) .

وهذا لا يعنى أن هنـاك مخاطر خارجية وداخلية أمـام الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران . ولكن الثورة بعد عام ونصف من نجاحها قادرة على تخطيها ، يكفى صمودها فى مواجهة مؤامرات الغرب والشرق . وأهم هذه المخاطر :

١ — مؤامرات الشرق والغرب والصهيونية على الثورة . فقد أتت الثورة لوضع حد للهيمنة الشرقية وللاستعمار الغربى ولتغلغل الصهيونية فى العالم الاسلامى . ولن يتركها هذا الاخطبوط المثلث حتى ينهـى الثورة . وعملاؤه بالداخل رهن الاشارة ينتظرون البدأ للقضاء على الثورة . لن يسمح الاتحاد السوفيتى أن تكون الثورة الاسلامية فى ايران نقطة جذب للمسلمين فيه ، ومعادية للماركسية بالداخل . ولن يسـمح الاستعمار الغربى بهذا التحدى الدائم الذى تمثله الثورة بالنسبة له ، خاصة وأنـه قائم على اسـطورة التفوق العنصـرى والاقتصـادى والحضارى . ولن تسمح الصهيونية بأن تكون الثورة الايرانية ظهيرا

الثورة العربية تقضى على التغلغل الصهيونى فى آسيا وتبعث الامل فى الامة الاسلامية لتحرير فلسطين ، وتضع كل امكانياتها البشرية والمادية تحت تصرف منظمة تحرير فلسطين •

٢ — الاستسلام لمؤمرات الاستعمار للوقعية بين الثورة الايرانية والثورة العربية سواء فى معارك الحدود مع العراق أو فى الخلاف فى وجهات النظر مع مصر أو فى خوف أنظمة الخليج من أن تكون الثورة الايرانية مركز جذب للشعوب الاسلامية الايرانية والعربية فى دول الخليج • الثورة الاسلامية واحدة ، ونحن مسلمون • وقد أضرت القوميات بنا حتى تنازع المصرى والشامى ، والعراقى والشامى ، والمصرى والليبى ، والجزائرى والمغربى ، واليمنى والحجازى حتى تفتتت الوحدة الاسلامية بالعودة الى الشعوبية القديمة والجاهلية القبلية والطائفية الجديدة حتى تذهب شوكة الامة الممثلة فى وحدتها وقوتها • وكأن الكواكبى فى « أم القرى » كان على علم مسبق بما يحدث الآن • فوصفهم جميعا فى مؤتمر لدراسة أسباب ضياع وحدة المسلمين ووسائل استعادة وحدتهم وقوتهم • يريد الاستعمار تحويل المنطقة كلها الى دويلات طوائف أو الى قوميات وشعوبيات وهو يكتل نفسه فى احلاف وشركات ومناطق نفوذ ومعسكرات وكأن القرآن لم ينبه قائلا « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » (٨ : ٤٦) •

٣ — الصراع على السلطة أو الانفراد بها وضعف المؤسسات ، وتضارب قراراتها • فكل فرد صاحب الثورة لانه شارك فيها وصنعها وبالتالى فهو وريثها • صحيح أن الخلاف بين الائمة رحمة بينهم ولكن صحيح أيضا أن اجماع المسلمين تعبير عن وحدتهم وقوتهم ، والانصياع

الى رأى واحد بعد المشورة يعطى الامة القدرة على أخذ القرار وتنفيذه • ويمكن درء هذا الخطر عن طريق الاسراع فى تحويل الثورة الى دولة : وبناء المؤسسات ، وبقاء الائمة فى دور الحارسين للثورة ، فقهاء الامة ، القائمين بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن تقوم الدولة أى السلطة التنفيذية باقامة الشريعة ، وتطبيق الحدود ، واعادة تنظيم الدولة ،واقامة النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى • ان بناء الدولة فى الاسلام هو تحقيق لخلافة الله فى الارض التى عينها الله لآدم « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة » (٢ : ٣٠) •

٤ — لقد استطاع الفكر الاسلامى الثورى الذى مثلته الحركة الثورية الاسلامية فى ايران أن يبرز للعالم أجمع الاسلام كثورة • وكان فى مقدمة علماء المسلمين الشهيد على شريعتى وكتاباته حول « بناء الذات الثورية » ومحاولات الحسن بنى صدر فى الاقتصاد بالاضافة الى مجهودات الائمة وعلى رأسهم الامام الخمينى (٧) • ولكن مازال الفكر الاسلامى الثورى فى حاجة الى مزيد من الاحكام سواء فيما يتعلق بعقائد الشيعة أو بعقائد السنة • مازال فى حاجة الى جرأة أكثر على أعادة الصياغة وتخليص العقائد من معاركها القديمة سواء لدى الشيعة بالتنزيه والتشبية أو الحلول والاتحاد أو الغيبة والتقية أو لدى أهل السنة فيما يتعلق بالذات والصفات ، والجبر والاختيار ، والقدم والحدوث ، والنبوة والعصمة • مازال الفكر الاسلامى الثورى فى حاجة الى الخروج من نطاق الايمان والانفعال والوجدان الى نطاق الموضوع والمجتمع والدولة،

---

(٧) د. ابراهيم دسوقى شتا : الثورة الايرانية والجذور الاستراتيجية، بيروت ، ١٩٨٠ .

واعادة الربط بين الله والارض كما هو موجود فى القــرآن الكريم فى « اله السموات والارض » ، وبين الايمان والتقدم « لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » (٧٤ : ٣٧) ، واعادة بناء علم العقائد على أنه علـــم الثورة • فقد انتصر التوحيد كما صاغه القدماء على التشبيه والتجسيم والشرك والكفر ، ومازال ينتظر انتصارا ثانيا لدى المحدثين على الظلم والتسلط والطغيان فى حياة المسلمين والفساد والاستغلال والاحتكار والسلب والنهب لثروات المسلمين •

٥ ـــ استمرار الوجدان الثورى أطول من اللازم واستغراقه زمنا أطول قبل أن يتحول الى نظام ثورى يجعل الناس فى انتظار الانجازات الثورية •فاذا لم تحدث انصرفوا عن الثورة بعد طول انتظار • ولذلك كان السؤال : ماذا حدث بعد الثورة ؟ وهل يكفى تأميم للبنوك ؟ أين قوانين الاصلاح الزراعى ؟ أين ملكية الارض للفلاحين ، والمصانع للعمال ؟ أين سياسة الاجور بحيث يكون العمل وحده مصدر القيمة ؟ أين المجتمـــع الاسلامى اللاطبقى ، حيث يعيش فيه الناس جميعا سواء أمام اله واحد ؟ أين اعادة توزيع الثروات ؟ ان التحدى الاعظم أمـــام الثورة الايرانية هو أن يتحول الوجدان الثورى الى واقع ثورى ، فى الارض وفى المجتمع : القضاء على الفقر والتخلف والبطالة والامية ، وتعبيـــد الطرق ، وشق القنوات ، وبناء المصانع والمستشفيات والمدارس أى تحويل الثورة الى دولة كما فعل لينين وعمر بن الخطاب وماوتسى تونج • ان معوقات الثورة لاينبغى لها أن توقف الثورة أو أن تمنعها عن التقدم • فطريق الثورة ليس الى الخلف بل الى الامام •

٦ ـــ مواجهة قضية القوميات بالعنف والقهر وباستعمال القـــوة

المسلحة والصراع بين القومية الكبرى والقوميات الصغرى . وقد حل الاسلام مشكلة القوميات بأن جعل كل شعب أمة داخل الامة الاسلامية . فلكل قومية لغتها وآدابها وعاداتها وتقاليدها داخل الامة الاسلامية الواحدة التى تحكمها شريعة اسلامية واحدة . وقد كان ميثاق المدينة النموذج الاول لهذه الامة . اليهود أمة ، والنصارى أمة ، والمجوس أمة عند فقهاء المسلمين ، لكل منهم كتابهم ، يحكمون به ، ويعيشون فى أمن الامة الاسلامية . « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » . (٤٩ : ١٣) . وطالما ظل المسلمون ضحية الاستعمار الثقافى والنفسى والحضارى والغربى ولم يتخلوا عن أثر النعرات القومية الغربية فستظل الامة الاسلامية فى شعورهم الباطن دون أن تخرج لتكسر حصار الطوق .

٧ — تأخير العفو العام ، والاستمرار فى العقاب . صحيح أن الله أمرنا بألا تأخذنا رأفة فى دين الله « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله » (٢٤ : ٢) . الا أن حكم الشاه والثورة الاسلامية مثل الجاهلية والاسلام . فالاسلام يجب ما قبله « عفا الله عما سلف » (٥ : ٩٥) . ولقد عفا الرسول عن قريش بعد عام الفتح بقوله المشهور « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . ومن ثم آن الاوان للثورة الايرانية باعلان نهاية القصاص والعفو العام ، بالاضافة الى الحذر الشديد حتى لاتتجمع الجاهلية من جديد . وعلى هذا النحو يمكن للثورة أن تتوجه بقواها نحو البناء وأن يتحول أعداء الامس الى أصدقاء اليوم . فنحن فى نهاية الامر جميعا مسلمون فرقنا الاستعمار وأوقع بيننا العدواة والبغضاء . وعلى هذا النحو أيضا يخف من أعداء الثورة غلواؤهم ، ولايجدون

ما ينالون منها ، وتجلو صورة الثورة فى الرأى العام العالمى وتصبح براقة كما كانت بعد انتصارها ، نموذجا للثورات الاسلامية التقدمية ، تجذب المسلمين من بقاع الارض ولا يرهبها الناس ، وتنال احترام الامم كلها ، وتكون عنوانا للاسلام الكامل ، وتحقيقا لمثلنا المشهور « العفو عند المقدرة » . وتتجه قوى الثورة للتشييد والبناء والى تحقيق مطالب الامة فى القضاء على جميع مظاهر التسلط والتخلف والطغيان واعادة توزيع ثروات الامة ، وتحرير أراضى المسلمين وفى مقدمتها فلسطين .

ثالثا : النخبة الثورية (أفغانستان) .

لقد فرح المسلمون جميعا منذ عدة سنوات عندما انقلب داوود على ابن عمه الملك ، فالملكية نظام لا اسلامى . ولكن سرعان ما طغى وتكبر وأصبح أكثر ملكية من الملك السابق . اضطهد الثوار ، وقتل زعماءهم ، وأرسخ الاقطاع ، ودعم الفقر ، واشتد البلاء بالناس .

وفرح الناس المسلمون مرة أخرى عندما سمعوا بأخبار الثورة ضد دواوود والانقلاب عليه بعد عودته من مصر بأيام . وسمعوا عن نور الدين تراقى ثائرا مسلما فى نفس الوقت الذى بدأ العالم أجمع يشعر بنهضة الاسلام وبثورة المسلمين ، وكأن دعوة الافغانى لتثوير العالم الاسلامى آتت أكلها بعد مائة عام . ثم سرعان ما تواردت الانباء عن الثوار المسلمين فى الجبال يقاومون النظام الماركسى الجديد فى كابول . وماذا كان الثوار الاوائل اذن الذين انقلبوا على داوود ؟ ألم يكونوا ثوارا مسلمين ؟ واشتدت المعارك ، وتناقلت الانباء أخبار القتال ، ولم يدر المسلمون من الثوار ومن المسلمون ومن الثوار المسلمون ومن المسلمون الثوار ؟

وفرح المسلمون مرة ثالثة عندما علموا بانقلاب النظام الماركسى بكابول وظنوا أن الثوار المسلمين بالجبال قد استطاعوا القضاء على نظام نور الدين تراقى • ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل بعد ذلك عندما علموا أنها كانت ثورة قصر ، وأن جناحا ماركسيا بقيادة حفيظ الله أمين قد قـــام بانقلاب ضد الجناح الماركسى القائم ، وأنها نخبة ثورية قد قامت ضد نخبة ثورية أخرى ، وأن حزب « خلق » أى حزب الشعب استأثر بالغنيمة كلها وتخلى عن الوحدة الوطنية للثوار التى كان يريدها تراقى فكان جزاؤه الخنق باليدين فى انقلاب القصر •

وأخيرا فهم المسلمون كل شىء أو كادوا بعد الاطاحة بحفيظ الله أمين بعد أن رشق الرصاص جسده متدحرجا على سلم « قصر الشعب » فانتهى الرفيق ، وتنصيب بابراك كارميل بديلا عنه ، واحلال حـزب برشام (الراية) محل حزب (خلق) على أسنة الرماح السوفيتية وعلى صوت جنازير دباباتهم ، قادما من تشيكوسلوفاكيا ، من سفير الى رئيس جمهورية • وبدأت حرب الابادة ضد الثوار المسلمين ، وبـدأ الحكم السوفيتى المباشر لافغانستان أمام العالم الاسلامى أجمع بين مؤيد للتدخل وهى الاقلية التى تنسى وحدة الامة الاسلامية تاريخا وحضارة أمام عالمية المذهب السياسى بلا جذور أو تاريخ ، وبين معارض وهـى الاغلبية التى تقع أيضا فى صف المعسكر الغربى وتنسق معه كى تقبض الثمن أو حتى لا تصل اليها الثورات الاشتراكية • وتتم مناهضة التدخل بالفعل عن طريق المساعدات العسكرية للثوار (مصر ، باكستان ، ايران) أو عن طريق مجرد الكلمات والنوايا الطيبة والدعاء بالنصر مثل منظـم الدول الاسلامية •

وليس الامر قضية شكلية : هل وقع التدخل السوفيتى بناء على

الدعوة الرسمية من الحكومة الشرعية القائمة ، حكومة حفيظ الله أمين أو أن تلك هى الحجة المقدمة دائما لتبرير التدخل ؟ وكيف تدعو حكومة تدخلا ينقلب عليها ويكون رئيسه أول الضحايا ؟ وكيف تنقلب قوات الغزو على حكومة بدل أن تناصرها ؟ وكيف يتم الانقلاب على رئيس دولة حليف لقوات الغزاو ولا يتصور أنه قادر على ادارة دقة البلاد فى غيبة السفير السوفيتى مدة خمسة عشر يوما فترة انتقال بين السفير السابق والسفير اللاحق ؟ وماذا نفعل اذا دعت النظم العميلة للغرب فى عالمنا الاسلامى الدول الغربية للتدخل ضد الثورة الوطنية لشعبها ؟ أكان شمعون اذن على حق دعوته القوات الامريكية للتدخل انقاذا له من الثورة الوطنية فى لبنان ؟ أكان حاكم الاردن اذن على حق فى دعوته للقوات البريطانية للتدخل فى الاردن أثر ثورة تموز فى العراق فى ١٩٥٨ ؟ أكانت القوات الامريكية على حق اذن فى تدخلها فى فيتنام وسان دومنجو وتصبح سياسة الاساطيل عبر البحار ، والقواعد العسكرية حينئذ سياسة مشروعة فى انتظار اشارة الحكومات بالتدخل لافرق فى ذلك بين شرق وغرب ؟ وفى كلتا الحالتين تكون الانظمة قد فقدت شرعيتها الداخلية وتأييدها الشعبى وتكون عميلة للاجنبى ، موالية له ضد مصالح الشعوب .

واذا كانت عناصر النجاح فى الثورة الايرانية ثلاث : قيادة الائمة ، الاسلام كأيديولوجية ثورية شعبية ، وجماهير مجندة ومسلحة فان غياب هذه العناصر الثلاث بعينها هى سبب تعثر الثورة الافغانية .

فقد درست النخبة الثورية فى الغرب ، وتعلمت الماركسية فى أمريكا . وما أسهل أن يتم ذلك فى الغرب نظرا لشيوع الكتابات الماركسية ، ووجود الحلقات والاحزاب والدوائر الماركسية فأصبحت ثورية على الطريقة الماركسية الغربية . وعادات الى البلاد تنظيم صفوف

المعارضة . ولما كان الخلاف العقائدى أهم ما يميز الماركسية الغربية أو الشرقية كما هو الحال فى النزاع الصينى السوفيتى أو النزاع اليوغسلافى السوفيتى أو فى الخــلاف بين ماركسيات القــرن العشرين ، الايطالية والفرنسية والالمانية ، ونظرا للتطلع الى الزعامة فى البلاد النامية فقد ظهر هذا الخلاف فى النخبة الثورية فى أفغانستان بين حزبى « خلق » (الشعب) و « برشام » (الراية) نظر لغياب أية وحدة وطنية بينهما وأى اتفاق على حد أدنى من البرامج الوطنية وانتخاب القيادات انتخابا مباشرا من الشعب . فوقعت الحرب بينهما كما وقعت أيام الجاهلية الاولى بــين القبائل والعشائر ، كل منها يرى أنه أحق بالقيادة الثورية وكأن الثورة ملك لاحد ، وكأنها لصالح احدى فصائل القيادة وليست لصالح مجموع الشعب . فما كان أسهل من انقلابات القصور . مات الملك يحيا الملك . اذ يكفى عشر دبابات . اثنتان منها تحيطان بقصر الشعب فى كابول ، واثنتان منها فى حى الوزارات واثنتان على مدخل العاصمة ، واثنتان على مداخل جلال آباد حتى يمكن بها السيطرة على المدن الكبرى .

ولما كانت هذه النخبة الثورية بجميع فصائلها غير نابعة من الشعب، من تراثه وحضارته وتاريخه ، بحثت عن سند خارجى تجد فيه التأييد ؛ وفى مقابل ذلك تدين له بالولاء . يدفعها لذلك ثقافتها الماركسية الغربية . فوجدت الاتحاد السوفيتى ، الجار الثــورى ، محقق ثــورة اكتوبر الاشتراكية . وبدل أن يكون التعامل معه الند للند ، والحليف للحليف ، والصديق للصديق ، بصرف النظر عن ميزان القوى بــين الدولتين ، أصبحت الكفتان غير متعادلتين فكانت الصلة بينهما صلة الآمر بالمأمور : السيد بالعبد ، الدولة الكبرى بالدولة الصغرى ، المركز بالمحور ، الوصى

على الموصى عليه ! (٨) وأصبحت الثورة الافغانية « انقلاب ثور » كما يقول قادتها ، « الابنة الشرعية » لثورة اكتوبر . فضاع الاستقلال الوطنى للبلاد . مع أن الثورة الفيتنامية ذاتها قد قامت على الشعار المحفور تحت تمثال هوشى منه فى مدينة هوشى منه « ليس هناك أعز على الشعوب من الاستقلال الوطنى » . ولا توجد ثورة بنت ثورة أو أخت ثورة أو أم ثورة . بل الثورات كلها على قدم المساواة ، تنبع من الارادة الوطنية المستقلة للشعوب ، تتقابل على طريق واحد على قدم المساواة ولا تتوالد من ثورة أم . وكان للخبراء السوفيت الذين يقومون ببناء سد خيبر على نهر خيبر مركز الصدارة فى الدعوات ، نجوم فى المدينة ، تفخر بضوئها . ينافسون الامة الاسلامية فى المساعدة وتقديم العون ؛ ونحن نشعر بالغيرة ثم بالحسرة على أننا لا نستطيع أن نمد اليهم أيضا نفس العون . أهلنا يعاونهم الغرباء ونحن عاجزون عن معاونة حتى أنفسنا .

وكانت الايديولوجية السائدة الماركسية اللينينية . وكانت الشعارات كلها مستمدة منها تؤكد انتصار البروليتاريا الدولية فى بلد أمى لم يسمع عن البروليتاريا ، ومنعزل لايعرف عن العالم الخارجى شيئا .وكانت الشعارات تؤكد ضرورة الصراع الطبقى لدى شعب لايوجد

---

(٨) فى دعوة على الغذاء على مائدة حفيظ الله امين فى قصر الشعب لاعضاء الهيئة التاسيسية لوضع الدستور واعضاء وفد منظمة تضامن الشعوب الاسيوية والافريقية سال حفيظ الله امين السفير السوفييتى بوزانوف : متى سترحل ؟ فأجاب بعد غد . فسأل أمين من جديد : متى سيأتى السفير الجديد تابييف ؟ فأجاب بعد عشرة ايام . وهنا أنزعج حفيظ الله امين قائلا : وهل ستتركوننا بلا سفير لمدة عشرة ايام !

لديه وعى طبقى • كانت الماركسية لدى القيادة بسيطة سطحية مدرسية ساذجة مثل القرآن المحفوظ بلا فهم بحيث طغى التخلف على الماركسية وابتلعها ، فاستمر التخلف فى ثوب ماركسى • فالماركسية لديهم ثلاثة أشياء : المادية الجدلية ، والصراع الطبقى ، ودكتاتورية البروليتاريا ، ولايكون الانسان ماركسيا الا اذا آمن بهذه العناصر الثلاث ! وكيف يتم الايمان بالمادية الجدلية فى مجتمع توجهه الاسطورة والرمز ، ويسوده السحر والخرافة، ويوجه الدين تصوراته للعالم ؟ وكيف يتم الايمان بالصراع الطبقى فى مجتمع تغلب عليه فكرة وحدة الامة والعروة الوثقى ؟ وكيف يتم الايمان بدكتاتورية البروليتاريا والبروليتارليا نفسها لا وجود لها والموجود هو فقط دكتاتورية النخبة الثورية أو بالاحرى أحد أجنحتها ؟ ولا يدخل الحزب الا من كان ماركسيا وبالتالى تم استبعاد كل الوطنيين من العمل السياسى والمشاركة فى بناء الدولة والحفاظ على الثورة • حتى أبسط الامور كانت مستمدة من ماركس ولينين • فاذا ما دعت النخبة الثورية الشعب الى العمل استشهدت بأقوال « لينين العظيم » وكأن « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » (٩ : ١٠٥) ليست فى وجدان الناس •

وكانت النخبة الثورية تتصور الدين كالآتى (٩) •

١ — ان الدين تربية شخصية فى الاسرة ، ينشأ عليها الفرد ، شاهدا أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، مصليا ، صائما ، مزكيا ، حاجا لو استطاع الى ذلك سبيلا • ومن ثم فالنخبة الثورية مسلمة بهذا المعنى،

---

(٩) تم ذلك فى مناقشات مع حفيظ الله أمين وباقى أعضاء النخبة الثورية الحاكمة .

ولا حرج بعد ذلك من أن يتبنى الماركسية الغربية كاطار نظـرى أو كبرنامج للعمل الثورى ، فهو مسلم بالشريعة . وماركسى بالتكوين . وفى نهاية الامر الدين لله والوطن للحزب ! وفى ذلك مقتل للاسلام وتحويله الى مسيحية وكهنوت . وطقوس وشعائر . والاسلام دين ودولة ، له نظامه الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والقانونى . والمسلم الماركسى بهذا المعنى ماركسى المضمون مسلم الشكل .

٢ — ان الدين بأفغانستان بخير . هناك قرآن فى الصباح وقرآن فى المساء ، فى اذاعة كابول ، والبرامج الدينية منتشرة ، والمساجد تـم طلاؤها ، ورفعت مرتبات رجال الدين ، وكأن الدين سـلعة تجارية أو متاحف أو طقوس . ولا حرج فى أن تبقى الشعوب فقيرة جاهلة ، وأن يكون نظام الدولة علمانيا ، ماركسيا غربيا . فالدين مؤسسة ترعاهـا الدولة . وفى ذلك أيضا مقتل للاسلام . فالاسلام ليس متحفا للاسـلام بل هو حياة الناس ونظامهم ومجتمعهم ودولتهم .

٣ — وأكثـر من ذلك ، يكـون الدين فى رأى النخبة الثـورية « أفيون الشعب » كما هو فى النظرية المحفوظة ، مخدرا للجماهير ، يتم به خداع الناس . والنخبة الثورية لاتريد خداع الشعب بعد الآن . أما الاسلام كثورة ضد العبودية والاضطهاد وكنظام اجتماعى يقوم على المساواة والعدالة الاجتماعية فذلك غير معروف ، ولم يتبادر الى الاذهان، ولم تسمع به النخبة الثورية قبل ذلك ، ولم تدر أن الماركسية اللينية قد حركت صفوة المجتمع وعزلتهم عن غالبية الشعب الذى ظل تحت أثـر الافيون . وأن الاولى كان تحويل الافيـون الى منبـة حتى تستيقظ الجماهير وتأخذ مصائرها بأيديها دون وصاية عليها من النخبة الثورية .

٤ — ان الدين أيديولوجية غير علمية لا تستطيع أن تصمد فى

مواجهة التحليل العلمى للواقع والتحليل الاجتماعى لحياة الناس • وهو موقف الماركسية الوضعية فى القرن التاسع عشر الاوربى والذى تجاوزته ماركسية القرن العشرين ذاتها التى تعتبر الدين حركة ثورية للشعوب المضطهدة وصرخة المضطهدين للطبقات المحرومة • وقد استطاع الدين أن يكون حركات تحرر وطنى فى جنوب افريقيا وفى فيتنام وفى الصين وفى الجزائر وفى أمريكا اللاتينية (١٠) • وماذا عن عقلانية الاسلام التى بدت فى الفلسفة وفى الاعتزال وواقعيته التى بدت فى علم أصول الفقه ؟ أن الاسلام فى حقيقة الامر دين بمعنى خاص ، وليس بالمعنى الغربى أى مجموعة من الاساطير والخرفات والعقائد التى يصفها العلم وتعوق التقدم • الاسلام دين يقوم على العقل ويعتمد على البرهان ، ويعترف بحتمية قوانين الطبيعة ، ويجعل الحس والمشاهدة والتجربة مصادر للمعرفة بالاضافة الى العقل كمقياس لصدق الوحى • ويؤسس حياة الناس فى نظام اجتماعى محدد على ماهو معروف فى كتب الفقه الاسلامى وفى النظم الاسلامية •

٥ — لذلك هناك فصل بين الدين والدولة • الدين ميدانه المسجد ، والدولة ميدانها النظم السياسية • الدين حياة شخصية للافراد ، والدولة حياة عامة للمجتمعات • وعلى هذا النحو يتم القضاء على الاسلام ويتحول الى مسيحية أو بوذية فى حين أنه لا رهبانية فى الاسلام • يتحول الاسلام الى عبادات فقط دون معاملات ، والى علاقة ميتة بين الانسان وربه وليس علاقة حية بين الانسان ومجتمعه • وهو التصور

---

(١٠) انظر مقالنا : كاميلوتوريز ، القديس الثائر ، قضايا معاصرة : (١) فى فكرنا العربى المعاصر ص ٢٨١ — ٣١٨ دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٦ •

الغربى الذى حدث نتيجة للصراع بين الكنيسة والدولة فى الغرب عندما تسلطت الكنيسة فقضت على حرية الفكر ، وأرسخت نظام الاقطاع فاندفع المفكرون والعلماء والثوار للدفاع عن حرية الفكر والعدالة الاجتماعية وتم حصار الدين فى زاوية العبادات .

٦ — ان تاريخ أفغانستان هو تاريخ البوذية ! وأن المتحف الوطنى هو المتحف البوذى كما أن المتحف الوطنى بالخرطوم فى السودان هو تاريخ المسيحية فى النوبة ووادى النيل ، فتتصدر المدخل صورة السيد المسيح ممدا ذراعيه محتويا البلاد كلها يرعاها ويحميها ، وكأن الشعوب الاسلامية لا تجد تاريخا فى الاسلام الذى انتشر منذ الصحابة ، وكأن الاسلام لا يتمثل فى تاريخ الامة ويصبح رافدها الاساسى كما حدث فى ايران ومصر . وهو تصور غربى للمتاحف كتاريخ للنقوش بصرف النظر عن التراث الحى فى قلوب الناس وتراكم التراث الانسانى حتى يكتمل فى حضارة التوحيد .

٧ — ان الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران لم تفعل شيئا ! بل أنها استبدلت شاه آخر دون أن يحدث تغيير فى البناء الطبقى للمجتمع . مازالت أدوات الانتاج فى أيدى الطبقة الغنية القديمة ، وبالتالى فهى ليست ثورة بل انقلاب ! وكأن الانتقال من التسلط الى الحرية ، ومن التغريب الى الهوية الاسلامية كهوية قومية ، كل ذلك ليس شيئا . فالثورة الماركسية الغربية تغيير لنظم المجتمع ولكن بنقل المجتمع كله الى ثقافة غربية تدعى الشمول والعالمية ، وتنكر خصوصية الثقافات المحلية للشعوب . مع أن الثورة الافغانية كان بامكانها أن تكون امتدادا للثورة الاسلامية بايران ، وأن تكون الثورة الاسلامية بايران ظهيرا للثورة الافغانية كما أنها ظهير للثورة العربية . فنحن جميعا مسلمون ، نجد تأييدنا بين ظهرانينا وليس عند الغرباء الاغيار .

٨ — ان أفغانستان دولة مستقلة ذات سيادة لها حدود دولية لا شأن لها بباكستان أو ايران اذا ما تم احترام الحدود . ومن ثم يمكن التعاون بين أفغانستان والدولتين المجاورتين من منطلق الاحترام والسيادة المتبادلتين وكأن الامة الاسلامية لا وجود لها ، وكأن هذه الحدود المصطنعة فى أواسط آسيا مثل تلك التى فى المنطقة العربية ليست من صنع الاستعمار ، وكأن السيادة فى الامة الاسلامية ليست للشرع الاسلامى والنظام الاسلامى ! ان الثورة الافغانية ليست ثورة داخل حدود صنعها الاستعمار بل هى ثورة جزء من الامة الاسلامية،عنيها واجب بالنسبة لاجزاء أخرى ، ولو كانت ثورة اسلامية تهدف الى تحرير الامة الاسلامية من الاستعمار والاقطاع والرأسمالية والتسلط والطغيان والى تحقيق الوحدة الاسلامية . وبدلا من أن يستوطن الاستعمار فى باكستان لماذا لا تنتشر الثورة الاسلامية فى باكستان من ايران أو أفغانستان ؟ وأيهما أولى بباكستان الاستعمار أم الاسلام ؟ أمريكا أم ايران وأفغانستان ؟ الصليبيون الجدد أم المسلمون الثوار ؟ .

٩ — لقد قامت النخبة الثورية بعدة اصلاحات فى ميدان الدين . فألغت المهور المرتفعة ، وقررت ألا تتعدى المهور خمسا وعشرين قرشا . وقد كانت المهور المرتفعة مانعا من زواج الشبان . وبالرغم من أهمية هذا الاصلاح الا أنه لا يتم بقرار بل بتغيير عادات الناس وبوعيهم الاسلامى الصحيح . هذا الاصلاح ليس فقط جلبا للمنفعة ودفعا للضرر ولكنه أيضا عود للاسلام الاول الى قلوب المسلمين . بالاضافة الى أن الاصلاح فى ميدان الاحوال الشخصية وهو ميدان المباراة الاول فى مصر بين المتنطعين ، لا يكفى . الاصلاح يتم أيضا فى النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية : لمن الارض ، ولمن المصنع ، ولمن المتجر ، ولمن الجامعة ؟ .

١٠ — أما الثوار المسلمون فهم فى رأى النخبة الثورية رجال دين. رؤساء طرق صوفية ، ملاك الارض ، اقطاعيون ، مشعوذون دجالون لصوص ، هربوا بعد قانون الاصلاح الزراعى خوفا من اكتساب استيلائهم على أراضى الفلاحين بلا عقود ، وبلا حق وبغير سند . خافوا النخبة الثورية ، وهربوا الى باكستان فتلقفهم الاستعمار الغربى والاقطاع الباكستانى وأمداهم بالرجال والاموال من أجل استعادة أراضيهم التى وزعها الاصلاح الزراعى على صغار الفلاحين حتى تعود الارض الى أصحابها الشرعيين . فهى حرب مصلحة شخصية وليست حربا وطنية . ولا تكاد النخبة الثورية تذكره علنا بالرغم من اشتداد المعارك على الجبال وعلى حدود باكستان . وبصرف النظر عن صدق هذا التصوير أو كذبه فانه مما لاريب فيه أن فريقا من رجال الدين ترك البلاد لينظم المقاومة الشعبية للنظام الماركسى من خارجها ، مما سمح للاستعمار وللاقطاع باستخدام لعبة الدين ضد الالحاد ، والاسلام ضد الماركسية .

١١ — أما رجال الدين ، من بقى منهم فى كابول ، هيئة كبار العلماء فانهم يقرأون البخارى ومسلم ، ويبحثون فى الكتب القديمة ، ولهم دار فى الوزارت تم طلاؤها ، ولقياداتهم عربات حكومية فارهة . يتحدثون العربية ، وينظرون الى الازهر . منهم أعضاء فى الهيئة التأسيسية لصياغة الدستور لا يتكلمون فيها ، ويشعرون بالنقص أمام العلمانية والعلم الغربى . يخفون فى قلوبهم مالا يعبرون عنه بألسنتهم ، والرؤوس خاوية . اذا سألتهم كيف برروا حكم الملك المظفر ، ثم حكم داوود ، ثم كيف يبررون النظام الماركسى الآن وأين استقلالهم بالنسبة للدولة ، ودورهم فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وقيادتهم للامة الاسلامية ، وتصديهم للقضايا المصرية التى تعم بها البلوى ؟ قالوا : وماذا عن علماء

الازهر ، وتبريرهم للنظم السياسية ، مرة اشتراكية ومرة رأسمالية وماذا عن علاقتهم بالدولة ؟ نحن منهم وهم منا . وكلنا فى الهوى سواء ! اذا أبديت لهم بعض الانتقادات لما يحدث فى أفغانستان سلموا بها ولكنهم لا يبدأون الكلام ولا يأخذون المبادرة . يسيرون فى الخلف ولا يسيرون فى المقدمة . علماء الشيعة أكثر جراءة فى النقاش فى اللجنة التحضيرية لصياغة الدستور . وأمام صمت أهل السنة أو تأييدهم للحكام يصر علماء الشيعة على أن يذكر فى الدستور حماية الفقراء . ولم يكن من السهل الاتصال برجال الدين . فهم وحدهم فى البلاد الاسلامية أساس المعارضة ورصيدها الاول . ولا يمكن الاتصال بهم الا من خلال الدولة وبعلمها وتحت اشرافها حتى لا يتوحد عالم الدين مع ذاته ويعبر عما فى قلبه ويكسر نطاق الخوف ويخرج عن الحصار . تمتنع رجال الدين فى البداية من الحديث والدولة تسمع وترى .ومهما تم تشجيعهم يظلون منزوين فى ثقافتهم التحتية فى البلاد وفى الامة الاسلامية .

أما جامعة كابول فهى على العكس من جامعة طهران ، مهد الثورة وكعبتها . خواء تام باستثناء شعارات الماركسية اللينينية التى يرفعها الحزب فى كل مكان والتى لايلتف حولها أحد ، وطلاب الحزب الذين يملؤون مدرجا ، يجمعهم الحزب فى المناسبات الرسمية أشبه بما كان يتم فى الثورة المصرية فى هيئة التحرير والاتحاد القومى والاتحاد الاشتراكى . وعندما تغيرت القيادة الثورية لم يجد أحد هذه التنظيمات لحماية الثورة ومكتسباتها . والعجيب أن النخبة الثورية كانت تشعر بقيمة ناصر ، وتقدر حسه الشعبى بمشاكل الجماهير ، الفقر والخبز اليومى . وكانت تتمثله فى مرحلة اعدادها النضالى . ولكنها كانت تفتقر الى شعبيته كما كانت تشارك معه فى افتقار كليهما الى الاعتماد على ثقافة الامة وتراثها

لتثوير الجماهير • فلا الماركسية اللينينية ولا الاشتراكية العربية تمسان شغاف قلوب الجماهير كما يفعل القرآن والسنة •

كان الشعب فى واد والنخبة الثورية فى واد خر • اذ يسكن الشعب فى المدن الكبرى وفى سفوح الجبال وجحورها وفى الوديان والسهول • لا يعرف حدوداً فى الجبال بين أفغانستان وايران وباكستان • معظمه من الرعاة والفلاحين ، تنقصه المياه والكهرباء • تسوده الامية ، ويعمه الفقر • ليس به طبقة عاملة تكون حليفة البروليتاريا الدولية ! ليس لديه مصانع تتكون فيها الطبقة العاملة الا من مصنع تصليح للسيارات وآخر لحلج القطن واستخراج الزيت من البذرة ، وصنع الصابون من الزيت ، واستخراج العلف من الكسب ، وكلها كانت موجودة قبل « انقلاب ثور » الابنة الشرعية لثورة اكتوبر العظمى • هناك « ميليشيا » الحزب ، تهتف بشعارات الحزب كما كانت تفعل منظمات الشباب لدينا . وتمسك بالمدافع الرشاشة ، تعمل للنخبة الثورية ، والشعب طيع تارك الامر لاولى الامر • ويذهب الى المساجد ، ويقوم بالفرائض الثورية ، ويتهجد على نور السراج الزيتى ، يبيع العنب والتفاح على الارصفة • نخبة ثورية وشعب مستكين ! نخبة بيدها السلطة ، وشعب لا سلطة له •

وفى واقع الامر فى الامة الاسلامية لايكون السند الحقيقى للنخبة الثورية هو الحزب الثورى وحده بل جماهير المسلمين • ولا يكون الفكر الجذرى الذى يربط النخبة الثورية بالشعب الماركسية اللينينية بل تراث الامة وتاريخها وقيمها ودينها بعد أن يعاد بناؤها ثوريا كما يفعل ماوتسى تونج فى أول الثورة الكونفوشيوسية كمنطلق ثورى ، وكما فعل هوشى منه مع التراث الوطنى الفيتنامى ، وكما فعل رهبان البوذية مع البوذية فى فيتنام أثناء حركة التحرر الوطنى ، وكما فعل الرهبان

الشبان فى أمريكا اللاتينية الكاثوليكية (١١) . وكما فعل اليجيا محمد مع الاسلام فى أمريكا ضد العنصرية البيضاء ، وكما كان الاسلام فى الجزائر آبان حرب التحرير (١٢) •

فماذا كانت النتيجة لذلك كله ؟ غزو أجنبى من الاتحاد السوفيتى مادام النظام مواليا له ، وقلب لعميل واحلال لعميل آخر ، وتنكر للشعب الافغانى المسلم وقتل له ، وقضاء على الاستقلال الوطنى للبلاد ، وتحول بعض علماء الافغان الى صفوف المعارضة ، وانضمام فرق من الجيش الافغانى الى صف الشعب ضد النظام ، وبداية المقاومة الشعبية الفعلية ضد النخبة الثورية التى تجد سندها فى جيش الاتحاد السوفيتى وليس لدى الشعب الافغانى • كما يجد الاتحاد السوفيتى نفسه وكأنه أمام مجر أو تشيكوسلوفاكيا أخرى • ويكون حظ أفغانستان 'دبه أقل من حظ بولندا بعد اضرابات العمال • وهكذا تبدو روسيا القيصرية من جديد ، تجذب أطرافها وتحتل أراضى جيرانها بدعوى المحافظة على النظام • وأى نظام لا يستطيع المحافظة على نفسه يكون غير جدير بالبقاء • وبدعوى التدخل الاستعمارى فى شئون أفغانستان من حدود باكستان يتم التدخل السوفيتى المباشر وكأن الاتحاد السوفيتى ينصب نفسه حاميا للنظم الماركسية فى العالم كما نصبت أمريكا نفسها حامية للنظم الغربية فى العالم هيمنة هنا ، استعمارهنا واستعمار هناك ، لا فرق بين ذلك وذاك •

ان الاستقلال الوطنى للشعوب يسبق نوعية نظامها السياسى

---

(١١) انظر مقالنا السابق ، كاميلوتوريز ، القديس الثائر .

(١٢) انظر مقالنا : حركة الاسلام السوداء بأمريكا فى كتابنا « الحوار الدينى والثورة » (بالانجليزية) ص ٢١٣ — ٢٢٤ ، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٧٧ .

وانخرطنا فى الاحلاف والهيمنة وسياسة المعسكرات ومناطق النفوذ . ودخلت جميع الشعوب تحت وصايا النظم الشمولية غربية كانت أم شرقية • والمصالحة الوطنية داخل أفغانستان بين فصائل النخبة الثورية أو بين النخبة الثورية الماركسية اللينينية وبين المعارضة الوطنية اسلامية كانت أو ليبرالية تسبق نوعية النظام • وان نظاما ليبراليا قادرا على تحقيق الوحدة الوطنية لخير من نظام ماركسى يقوم على التجزئـــة والتفتيت لوحدة الشعب • كما أن وحدة الشعبين المسلمين فى أفغانستان وباكستان تسبق تأييد الاغيار للنخبة الثورية فى أفغانستان • وكما هــو فى مثلنا الشعبى « أنا وأخويا على ابن عمى ، وأنـــا وابن عمـــى على الغريب » •

لقـــد كـــانت الثورات الكبـــرى ثورات وطنيـــة وكان الحـــزب الماركسى اللينينى عصبها ومحورها وبؤرتها وأكثر الاحزاب فاعلية وقدرة على التحليل واتخاذ القرار • حدث ذلك فىالثورة الصينية العظمى . والثورة الفيتنامية والثورة الكوبية والثورة الجزائرية ويحدث نفس الامر فى الثورة الفلسطينية • بل أنه فى بعض منالاحيان كان الحزب الماركسى اللينينى تطورا طبيعيا للاحزاب الوطنية ، تاليا عليها وليس سابقا لها • ولكن يبدو أن النخبة الثورية تضع العربة أمام الحصان •

والعجيب أن تؤيد بعض الانظمة التقدمية فى العالم العربى الغزو السوفيتى لافغانستان وكأن وحدة المذهب السياسى تجب الاستقلال الوطنى للشعوب المستقلة وتتجاوز وحدة الامة الاسلامية ومصيرهـــا المشترك • وأن تقف منه بعض الاحزاب التقدمية فى مصر موقفا غامضا وكأن الاستقلال الوطنى لاى شعب موضوع مساومة وجزءا من اللعبة على مسرح السياسة فى الساحة الدولية وتوازن القوى العالمية • وقـــد أدى هذا الوضع الى أن تنبرى كل القوى الرجعية فى العالم الاسلامىالى أخذ مواقف أكثر تقدما من الاحزاب التقدمية والانظمة الثورية فى العالم

العربى . بل أن الاستعمار الغربى نفسه بقيادة الولايات المتحدة الامريكية قد نصب نفسه مدافعا عن الاستقلال الوطنى للشعوب وأدان التدخل السوفيتى فى أفغانستان فأصبح الاصدقاء هم الاعداء ، والاعداء هم الاصدقاء . وعدو عاقل خير من صديق جاهل .

رابعا : الثقافة التحتية (الاتحاد السوفيتى) .

تنقسم الاتجاهات حول المسلمين فى الاتحاد السوفيتى الى نوعين : الاول يقوم به أصدقاؤه خاصة فى الشرق ، لدينا فى قلب العالم العربى وداخل الاتحاد السوفيتى لبيان مدى ماأحرزه تحديث مجتمعاتهم من تقدم فى العلوم والفنون الصناعات بفضل الثورة الاشتراكية الكبرى التى أعلنت بلسان لينين مؤسس الدولة الاشتراكية مساواة جميع شعوب الاتحاد السوفيتى وقومياته وأجناسه والاعتراف بحرية العبادة لجميع الاديان (١٣) . والثانى يقوم بها أعداء الاتحاد السوفيتى داخل العالم الاسلامى وخارجه لمهاجمته وبيان مدى الاضطهاد الذى يعانى منه المسلمون هناك والذى يبلغ مداه الى حد الشائعات التى تروجها عنه أجهزة الاعلام الغربية وامتداداتها فى الوطنى العربى والاسلامى من حرق للمصاحف ، وغلق للمساجد ، ومنع الآذان وتحريم الصلاة (١٤) .

---

(١٣) ومن أمثال هذا النوع كتاب يوسف صديق : المسلمون فى الاتحاد السوفيتى وكتب الدعاية السوفيتية عن الجمهوريات الاسلامية التى تصدرها نوفستى .

(١٤) ومثل هذا النوع مقالات الاخوان المسلمين فى مجلة « الدعوة » وايضا كتاب .
Hélène Carrére d'Encausse L'Empire éclaté , Flammarion, Paris, 1978.

وحقيقة الاوضاع هناك لا مع أولئك ولا مع هؤلاء . مهمتنا وصف الاوضاع كما هى عليه من وجهة نظر الامة الاسلامية التى تضم جماهير المسلمين وليس من وجهة نظر الامة أصدقاء الاتحاد السوفيتى أو أعدائه. لايهمنا الدفاع عن الاتحاد السوفيتى أو الهجوم عليه بل يهمنا وضع الحقائق نصب أعين الامة الاسلامية .

ولا يهمنا أيضا نبش الماضى كما تفعل الدراسات المعادية ، واعادة تذكير الناس بما فعله القيصر للقضاء على الامارات الاسلامية المستقلة وضمها الى روسيا القيصرية ومدى ما كان يعاينه المسلمون من اضطهاد وقهر وكأن الاستعمار الغربى لم يفعل نفس الشىء فى الجزائر ولا يزال يفعل فى الفلبين ، فكل القوى الكبرى تجاه المسلمين سواء . ولا يهمنا أيضا وجهة نظر الاتحاد السوفيتى ذاته من رفع لينين لشتى أنواع الاضطهاد الدينى والقهر والتسلط عن المسلمين تدعيما للثورة الاشتراكية الكبرى ألتى تريد تثبيت قواها وترسيخ قواعدها . كما لايهمنا أيضا الاحصائيات الحديثة التى تبين مدى تقدم المسلمين فى التعليم والزراعة والصناعة والدخل الفردى ، ومدى مايتمتعون به من حرية لاقامة الشعائر الدينية . فتلك احصائيات رسمية الهدف منها الدعاية والاعلام. انما يهمنا حال الاسلام فى قلوب المسلمون ومدى توقفه أو امتداده ، انعزاله أو انتشاره ، تحوله الى ذاتية ضامرة أو الى موضوعية قائمة . ولا يهمنا ثالثا الشهادات الواقعية التى يرجع بها الزوار الاجانب من مشايخ الازهر والعلماء والمفكرين والسياح شاكرين بحسن الضيافة حامدين الله على كل شىء . ولكن الذى يهمنا هو تقديم هذه الحقائق من منظور تاريخى ، وبنظرة مستقبلية فى قلوب المسلمين وكيفية تحويلها الى حركة طبيعية بصرف النظر عن مصالح الدول الكبرى ، هذه أو تلك .

وسنقصر الحديث على حال الاسلام عند المسلمين فى أوزبكستان

كبرى الجمهوريات الاسلامية (١٥) والتى تضم الآن حوالى الخمسين مليونا من المسلمين فى غياب الاحصائيات الرسمية اما عمدا أو اخفاء لحقيقة تزايد النسل عن المسلمين وكيف انهم سيصبحون فى نهاية القرن أكبر من تعداد الروس البيض (الذين يبلغون الآن مائة وعشرين مليونا) أو عن غير عمد نظرا لعدم وجود احصائيات سكانية فى الاتحاد السوفيتى تأخذ الدين فى الاعتبار ، ولكنها فى أغلب الاحوال تقدر المسلمين بحوالى ثلاثة ملايين من المسلمين أى أقل من تعدادهم بحوالى ست عشرة مرة ! وهو يشابه أيضا وضع العرب المسلمين فى اسرائيل منذ ١٩٤٨ حتى الآن وتزايد عددهم حتى أنهم سيفوقون فى الكم عدد سكان اليهود فى نهاية هذا القرن أيضا . وما يصدق على أوضاع المسلمين فى أوزبكستان يصدق أيضا على أوضاعهم فى باقى الجمهوريات الاسلامية دون ماتجن أو مغالاة .

كانت الاوضاع فى البلاد الاسلامية فى آسيا قبل ثورة أكتوبر مثل الاوضاع الغالبة على جميع الشعوب الاسلامية : تسلط الامراء ، طغيان الحكام ، نهب ثروات المسلمين . ويسهل أن يرى الانسان القصر الصيفى والقصر الشتوى لآخر أمراء بخارى الذى هرب من وجه الثورة الاشتراكية . كان أمراء المسلمين يعيشون كالملوك ، وينظرون الى المسلمين كقطيع الاغنام يسوقونه ويحلبونه ويجزرونه كيفما شاءوا . قهروا الفلاحين ونهبوا محصولهم ، واثقلوا كواهلهم بالضرائب لدفع الجزية

---

(١٥) أوزباكستان وعاصمتها طشقند ، وتركمانستان عشقاد ، أذربيجان — باكو ، طاجكستان — دوشنبه ، قرغيزا — فرونزه ، تترستان — كازان ، باشكيريا — أوفا ، قازقستان — المآتا ، شعوب القوقاز الشمالى . ولم نتعرض للاسف لاحوال المسلمين فى الصين .

لقيصر روسيا ولخزانة الامير • قمعوا الثوار المسلمين ، وقتلوهم وشردوهم ، هؤلاء الثوار الذين كان بامكانهم لو انتصروا تغيير وجه الاسلام فى آسيا • كانوا ثوارا باسم الاسلام حتى قبل أن تندلع ثورة اكتوبر ١٩١٧ ، وكانوا جزءا من الحركة الاصلاحية الثورية الكبرى التى بدأها الافغانى • شاع اضطهاد العلماء والمفكرين ، ومن بينهم « ألوغ بك » أكبر عالم فلك أنجبته آسيا الوسطى • حولت الثورة الاشتراكية مرصده الى متحف ، وعلى حائطه لوحة تمثل مقتل الوغ بك وسكين الامير على رقبته، والمناظر المكبرة الى جواره، وعلى الحائط الآخر لوحة جداوله التى فيها حساب دورات الافلاك والتى لا تبعد عن الحسابات الحالية الا بضع ثوان ! وتفخر الثورة الاشتراكية بأنها حولت هذه الشعوب من الجهل الى العلم ، ومن الارهاب الى الحرية ، وكأن العلوم التى أقامها المسلمون لم تنشأ فى ظل الاسلام وبدافع منه • كانت المرافق العامة لاوجود لها • فالمدن القديمة ببخارى، وطشقند وسمرقند حوارى وأزقة ، وسكان يغلب عليهم الفقر والجوع ، وأمية بلغت أكثر من ٩٠ ٪ من مجموع السكان • مثل هذا النظام والذى كان له مايشابهه فى أنحاء العالم الاسلامى كان لا يمكن أن يدوم ، وكان لابد لقوى جديدة أن تزحف وتقضى عليه « أفلا يرون أنا نأتى الارض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون » (٢١ : ٤٤) •

لقد حدث التوسع أيام القيصر منذ القرن الماضى • فاحتل الامارات الاسلامية فى آسيا الوسطى • وكان يكتفى بأن يدفع له الامراء الجزية السنوية • وكان هناك اتفاق فى النظام بين طغيان القيصر وطغيان الامراء على حساب الشعبين الروسى والاسلامى فى آسيا • فلما اندلعت الثورة الاشتراكية فى روسيا أراد لينين أن يحول الثورة الى دولة • أراد أنذا

الابقاء على روسيا القيصرية كأراضى دون الانتقاص منها . وساعده على ذلك ابتداء الثورة فى الامارات الاسلامية تحت أثر الثورة الاشتراكية فى روسيا . وسواء طلب الثوار المسلمون مساعدة لينين أم لم يطلبوا فقد كانت حجة التدخل الاجنبى باستمرار أنه أتى بناء على دعوة رسمية من الحكومة الشرعية للبلاد ! انضمت القوات الثورية الاشتراكية الروسية الحديثة الى الثوار المسلمين وأنهوا حكم الطغيان .

وقد وجه لينين نداء الى « من دمر قياصرة روسيا وظالموها مساجدهم ومعابدهم وداسوا معتقداتهم وعاداتهم » . وجاء فى النداء « بعلن من الآن فصاعدا بأن عقائدكم وعاداتكم ومؤسساتكم القومية والثقافية حرة مقدسة . نظموا حياتكم القومية فى ظل الحرية والنجو الخالى من العقبات . لكم الحق فى ذلك . كونوا على بينة من أن ... شأن جميع حقوق شعوب روسيا تحميها الثورة وهيآتها بكافة قواها ... » (١٦) كما أعاد لينين مصحف عثمان . ففى سنة ١٨٦٨ بعد استيلاء القوات القيصرية على سمرقند بوقت قصير عثر حاكم تركستان العسكرى على هذا المخطوط القديم فى مسجد « خواجه أحرار » وأرسله الى المكتبة الامبراطورية ببطرسبورج . كما تكونت أربع ادارات دينية تنظم شئون المسلمين فى الاتحاد السوفيتى : الاولى للاتحاد السوفيتى الاوربى وسيبريا ، والثانية لآسيا الوسطى وكازخستان ، والثالثة القوقاز الشمالى وداغستان والرابعة لما وراء القوقاز . كما قام الاتحاد

---

(١٦) حياة المسلمين فى الاتحاد السوفيتى ص ١ صدر عن الادارة الدينية لمسلمى قسم الاتحاد السوفيتى الاوربى وسيبريا — أوفا ، بشكيريا .

السوفيتى بترميم المساجد والآثار الاسلامية باعتبارها ثروة قومية • وفى الجمهوريات الاسلامية تقرر أن تكون اللغة العربية احدى اللغات التى يتعلمها الطلاب مع اللغات الوطنية مثل الاوزبكية بالاضافة الى اللغة الروسية ، لغة الاتحاد • وتم تشييد مدارس دينية خاصة لتخريج علماء الدين وخطباء المساجد والائمة مثل مدرسة الامـــام البخـــارى بطشقند ، ومدرسة ميرعرب ببخارى • كما تم نشر مجلة « المسلمون فى الاتحاد السوفيتى » بالعربية والفرنسية والانجليزية بالاضافة عن عدة كتب مثل « حياة المسلمين فى الاتحاد السوفيتى »، « آثار الاســـلام التاريخية فى الاتحاد السوفيتى » • هذا بالاضافة الى الزيارات المتبادلة بين المسلمين خارج الاتحاد السوفيتى والمسلمين بداخله وحسن الضيافة، خاصة فى مواسم الحج وفى المؤتمرات العلمية ، والبعثات العلمية الى جامعات الشرق الاسلامى خاصة فى مصر وسوريا وتونس والمغرب •

وبالاضافة الى هذا النشاط الدينى الواسع هناك أيضا الرقى المادى للجمهوريات الاسلامية ، فى الزراعة والصناعة والتجارة • فأوزبكستان الاسلامية أولى الجمهوريات السوفيتية فى انتاج القطن • أنشـــأت المساكن وعبدت الطرقات ، وتم محو الامية التى كانت أكثر من ٩٥ ٪ قبل الثورة والتى تم القضاء عليها بتاتا بعد الثورة •

أما بالنسبة الى ســـياسة الدولة ، فانها تتصـــور المســـلمين فى الجمهورية الاسلامية على أنها كانت امارات متخلفة أيام القيصر نقلتها الثورة الاشتراكية الى جمهوريات متقدمة ، فالثورة الاشتراكية وريثة روسيا القيصرية ولممتلكاتها • كانت تحت القيصر ، يذيقها شتى ألوان الاضطهاد الدينى والعنصرى ، فأصبحت جمهوريات مستقلة متساوية

فى الحقوق مع باقى الجمهوريات السوفيتة فى حرية العبادة لها مجلس شورى مستقل ، ورئيس منتخب ، ولها ممثل فى مجلس السوفيتات الاعلى . للمسلمين حرية اقامة الشعائر الدينية وفى ممارسة الطقوس واقامة الصلاة ، وجمع أموال الزكاة ، وتنظيم وفود الحج ، والاحتفالات بالاعياد الدينية ، واعداد الائمة فى المدارس الدينية الاهلية ولكن دون تدخل فى سياسة الدولة ، فالدين دين ، والسياسة سياسة . وهـذا هو الموت البطىء للاسلام بحصاره وضموره وانعزاله عن الحياة العامة . فالاسلام فى نظر الدولة باعتباره دينا أحد أسباب التأخر . فالدين أفيون الشعب حسب النظرية المبتسرة المشهورة ، وبالتالى تحل محله الماركسية اللينينية ، وتوضع لافتات الحزب الشيوعى على حوائط المساجد ، وخلاياه داخل الازقة القديمة وفى غرف المنازل الاثرية . فالجديد يرث القديم . والتعليم الدينى محرم فى مدارس الدولة لان الدولة لا دينية . لذلك اقتصر على المدارس الاهلية بتمويل أهلى والدولة تقطع الارض فحسب . أما التراث الاسلامى فانه تراث فى تاريخ العلم والفن والادب. فمؤلفات ابن سينا والبيرونى والخوارزمى تراث علمى وطنى من تاريخ الاتحاد السوفيتى ، تنشر وتترجم الى الروسية وتدرس وتؤثر فى تاريخ العلم أكثر مما هى عند المسلمين خارج الاتحاد السوفيتى . ومدرسـة الوغ بك ومدافن شاه زنده فى سمرقند ، ولب حوض ومأذنة كلان ببخارى وطشقند كلها تراث فنى من تاريخ الاتحاد السوفيتى وشعوبه وثقافاته المتنوعة . بل أن الابنية الحديثة فى الجمهوريات الاسلامية تستلهم الفن القديم مثل متحف لينين ومترو طشقند . أما المسلمون أنفسهم فهـم مرتبطون بالاتحاد السوفيتى كأحد شعوبه أو قومياته أكثر من ارتباطهم بجيرانهم فى تركيا وأفغانستان وايـران وباكستان ومثـل الكاثوليك

والبروتستانت والارثوذكس فى الاتحاد السوفيتى مع أن الاسـلام أمة والمسلمون أمة سواء فى المركز أو الاطراف ومهما تم ضم الاطراف الى مركز آخر فانها تكون أشبه بزرع أعضاء فى جسد غريب ، ولا تصح على نحو طبيعى الا فى جسدها الطبيعى .

والمسلمون هناك بالنسبة للاسلام الحى فى شعورهم ثلاثة أنواع :

١ — الجيل القديم من العجائز الذين تتراوح أعمارهـم مابين السبعين وما فوق المائة ، وبهم أكثر المعمرين . كثير منهم مقعدون : يحملون على الكراسى أو يتوكأون على العصى الى المساجد ، خاصـة أيام الجمعة والعيدين . يبكون مافات ، تنهمر من أعينهم الدموع اذا ما رأوا أحدا منا ، من قلب الامة العربية والاسلامية ، من القاهرة مدينة الازهر الشريف ، يذكرهم بالاسلام أيام وحدة الامة الاسلامية منذ كان المسلم يجوب أنحاء العالم الاسلامى من المغرب غربا حتى الصين شرقا لايسأله شرطى عن جواز السفر أو تأشيرة الدخول ، ولا يقوم أحـد بتفتيش حقائبه أو يطالبه بتحويل عملة أو يذكرهم بحال الصحابة الاوائل الذين ذهبوا غازين فى سبيل الله خاصة وأنهم أهل سنة ، انتشر الاسلام لديهم بفضل الصحابة الاوائل . مشكلة هؤلاء المسلمين هو الحفاظ على ما ضاع ويرون بصيص أمل فى الزوار المسلمين عندما يذكروهم بعزة الاسلام . هم الجيل المخضرم الذى عاصر الامارات الاسلامية المستقلة ثم عاصر غزو القيصر وأخيرا عاصر انتصار الثورة الاشتراكية . كـان عزيزا أولا ثم أصبح مقهورا تحت أمراء المسلمين الطغاة ثم ذليلا بائسا مغتربا ، مهيض الجناح بالرغم مما لديه عن تأمينات ومعاشـات : ومسكن وملبس ومشرب . عزاؤه المسجد كـل يـوم ورؤيته للزوار المسلمين بين الحين والآخر يبكى حاله ويرثى نفسه . وفى الحالات الثلاث

كان ايمانه قويا ولكن مبتور الصلة بواقعه ، فتتحول قوة ايمانه الى الداخل وتنحسر عن الخارج سواء أيام الامارات الاقطاعية حيث كان مسلما فى نظم تدعى الاسلام كما هو حالنا الآن أو فى نظم يفرض عليها القيصر حمايته أى مسلما مستعمرا كما كنا منذ عشرات السنوات أو فى أقليات اسلامية محاصرة انزوى الاسلام فى قلوبها ، تشعر بغربة عن عالمها ، وتعيش بأرواحها خارج أجسادها وترنو ببصرها باستمرار الى ما وراء الحدود أو تعيش بوجدانها سالف الزمان •

٢ — جيل شاب ، تمثل الثورة الاشتراكية ، وأصبح علمانيا،ينتسب البعض منه الى الحزب الشيوعى • لايحتفظ من الاسلام الا باسمه العربى محمدا وعليا أو الفارسى جلنار • تمثلوا الحضـارة الغربية الجديدة ، ونظروا الى الاسلام على أنه تاريخ متحفى ، آثـارا قديمة تركها المسلمون الاغيار الذين لايتحد معهم ولايجد هويته فيهم • يرى الاسلام على أنه أحد أسباب التخلف والجهل والطغيان • الامور واضحة بالنسبة اليه • والتضاد بين الماضى والحاضر ، والدين والعلم ، والتأخر والتقدم ، والجهل والمعرفة ، والنوم واليقظة تضاد لا سبيل الى حله بالمساومة أو المصالحة أو التوسط • وهم سعيدون بنجاحهم المهى وبنتاجهم وبحاضرهم • ومنهم من له باع كثير فى الصناعة أو الزراعة أو الاختراع • ومع ذلك يتزوجون فى الادارة الدينية حرصا على تقاليد الاسرة بعد زواجهم المدنى فى مراكز الدولة • لاصلة لحياتهم المدنيـة بالدين ، ولا صلة للدين بحياتهم المدنية ، فلا الاسلام تحول الى أسس للتقدم ولا التقدم كان تطورا طبيعيا للاسلام • وهذا هو الجيل الوسط ، ابناء المسنين أو أبناء أبنائهم • فما بال الجيل الثالث والرابع الذى قـد لايسمع عن الاسلام شيئا ؟

٣ — أئمة المساجد ، ومعلمو المدارس ، وطلبة العلم الدينى الذين يجمعون بين القديم والجديد ولكنهم أقرب الى القديم • يعيشون فى العالم الجديد بحكم مواطنتهم ولا ينتقلون اليه • ولكنهم أقرب الى القدماء يقرؤون الكتب الصفراء ، ويحفظون المتون القديمة ، ويشرحون شرحها ، ويهمشون على الشروح • يعيشون فى المدارس الدينية عيشة اسلامية كاملة ، حياة داخلية ، صلاة ودراسة ، نوم وطعام ، وتجهد وعبادة • وهم مستقبل المسلمين هناك • ولكنهم محدودون يعدون بالعشرات • « ولئن يهدى الله اليك رجلا واحدا خير من الدنيا وما فيها »• لم يحدث فيهم توحيد عضوى داخلى بين الاسلام والتقدم ، وبين الدين والثورة ، وبين التراث والتجديد نظرا لانهم يعيشون فى غربة عن عالمهم • الحضارة مفروضة عليهم ، ولم تنبع منهم • لا يمكنهم تمثل الجديد لانهم ليسوا أصحابة ، ولا تطوير القديم لان العالم ليس ملكا لهم ، وهم محاصرون فيه •

والاسلام فى قلوب الناس قوى للغاية وكلما زاد الحصار الخارجى قويت الروح الداخلية ، وكلما زادت الغربة الخارجية قويت الالفة مع النفس • فالمسلم فى الاتحاد السوفيتى يشعر بأنه مسلم أوزبكى أو مسلم تركمانى أو مسلم تترى أو مسلم طاجكستانى ولا يشعر على الاطلاق بأنه مسلم روسى ينتسب الى الاتحاد السوفيتى • دينه الاسلام ، ولغته وموسيقاه وتراثه الاوزبكية أو التركمانية أو التترية • ولكن لما كانت روسيا هى القوة المركزية ، وكبرى دول الاتحاد والتى عليها تجميع الاطراف ، ظهرت اللغة الروسية والثقافية الروسية فى أجهزة الاعلام وفى مؤسسات الدولة على أنها اللغة والثقافة الموحدة للشعوب والقوميات والاجناس التى يتكون منها الاتحاد السوفيتى •

ظهرت الثقافة الروسية والموسيقى الروسية كحضارة الدولة الكبرى المسيطرة على باقى الدول الصغرى للاتحاد ، الثقافة الرئيسية فى مقابل الثقافات الفرعية أو الثقافة الرسمية فى مقابل الثقافات المحليـة أو الثقافة الشمولية فى مقابل الثقافات الخاصة النوعية للشعوب •

ولسوء الحظ كانت الثقافة الرسمية هى ثقافة الرجل الابيض : ثقافة الغرب • فروسيا جزء من أوربا ، وثقافتها ثقافة أوربية • ومن ثم ظهرت سيادة ثقافة الغرب على شعوب الشرق ، كما ظهرت سيادة ثقافة الرجل الابيض على الشعوب الملونة • وكان المسلمون يديرون أجهزة « التليفزيون » ليسمعوا تشايكوفكسى أوليروا فيلما عن كاترين قيصرة روسيا ، ولا يسمعون ولا يرون شيئا • كانوا أقرب الى من الروس ، وكان الروس غرباء بالنسبة لهم • وكنت أنا المثقف المطلع على ثقافات الغرب أكثر أدراكا لما أسمع ولما أشاهد •

ولا يقتصر الامر على الثقافة وحدها بـل يمتد أيضا الى شئون الحياة العامة • فروسيا هى المسيطرة فى دولة الاتحاد على مراكز الدولة الكبرى ، فى الجيش والشرطة والادارة العليا ، فى المطارات وعلى الحدود ، وفى مراكز الامن والحزب ، وكأن الرجل الابيض هو المسيطر، والمسلمون بسمار بشرتهم تحت سيادة الرجل الابيض • وفى الفنادق الكبرى ، الادارة من الروس البيض ، والاعمال اليدوية للشعوب الاخرى مما يذكرنى بالمستعمر الاوربى الابيض ، بالفرنسيين فى الجزائر أو بالجزائريين فى فرنسا • بل كانت عادات الشعوب الملونة وتقاليدهم وعيوبهم أقرب التى من عادت الروس البيض وتقاليدهم وعيوبهم • يبصقون فى الطرقات مثلنا • يتزاورون ويتحابون ويفيض بعضهم على

بعض مثلنا . أما الجمود والصرامة فللروس البيض • ويذكرنا ذلك بالالمانى عندما يعبر برلين الغربية ويقابل صدفة ألمانيا شرقيا على الحدود ، صديق طفولته ورفيق صباه ولا يستطيع الحديث معه أو الهمس اليه لان « النظام » لايسمح • أن سيطرة روسيا على باقى دول الاتحاد ، وهى تمثل حوالى نصف مجموع السكان تجعل المساواة بين شعوب الجمهوريات فى مناصب الدولة العليا وفى الحياة العامة تتوارى أمام لون البشرة ، الداء الدفين للحضارة الغربية • ويكون السؤال : هل استطاعت شمولية المذهب أن تقضى على خصوصيات الشعوب ؟ •

يمثل الاسلام اذن فى الاتحاد السوفيتى « ثقافة تحتية » Suh - Culture عند المسلمين فى الجمهوريات الاسلامية فى أواسط آسيا ، كما هو الحال عند اليهود فى أوروبا أو ثقافة الاقليات داخل ثقافة الاغلبية •

وبالاضافة الى الثقافة الرسمية للثقافة الأوربية . ثقافة الرجل الابيض ، كانت هناك ثقافة دعائية أخرى : الثقافة السياسية الغربية ، وهى أيضا ثقافة الرجل الابيض : أعنى الماركسية اللينينية المنتشرة فى كل مكان فى صيغة شعارات ونداءات ، وتوجيهات ونظريات ، وصور واعلانات • وكانت تبدو وكأنها تريد أن تحل محل الاسلام عند المسلمين فى الجمهوريات الاسلامية • بدت كمنافس لى تريد أن تكون رؤيتى للعالم ، رؤية بديلة لرؤياى التاريخية • بدت الماركسية اللينينية كأيديولوجية منافسة للاسلام بالرغم من أن المسلمين لايعلمون عنها شيئا كما أن الماركسيين من شبان المسلمين لا يعلمون عن الاسلام

شيئا باستثناء صورة الاسلام فى ذهن الدولة . طقوس وشعائر على مستوى الفرد ، وانعزال على مستوى المجتمع . وتخلف على مستوى التاريخ ، صور لينين فى كل مكان ، وتماثيله ، واسمه على أهم الشوارع فى المدن الكبرى ، ومتاحفه ، وتاريخه : ونضاله يتلوه ماركس وانجلز ، ويتلو الجميع حكام الامس أو حكام اليوم طبقا لمن الحكم اليوم ؟ وكأن حضور هذه الآثار الحسية لابد وأن تولد بالضرورة فى أذهان المسلمين الافكار والعقائد والمذاهب والنظريات الموازية . شعارات الحـزب ونداءاته وشاراته ورموزه على كل الابنية الرسمية بما فيها حوائط الآثار الاسلامية القديمة لتبين للناس أن الحزب هو عصب الدولة : منبعها ومصبها . لجانه واجتماعاته وهيئاته فى كل مكان بالرغم من عدم انخراط المسلمين فيها . وعلى واجهـة جامعـة طشقند بالخط الثلث الروسى « اقرأ » على يافطة ، قول لينين وكأنها ليست أو ما أنزل من القرآن الكريم وكأن طلب العلم ليس أمر الهيا قبل أن يكون توجيها لينينيا . ولماذا تفرض التوجيات من الثقافة الرسمية القومية ولا تنبع من الثقافة المحلية التحتية ؟ لم تنشأ وحدة عضوية بين الاسـلام والماركسية باعتبارها نظرية فى التقدم والعدالة الاجتماعية وتحـرر المظلومين والطبقات الكادحة ، وباعتبارها نظرية فى العمـل والقيمـة والملكية العامة والاجور ، وباعتبارها نظريـة فى مواجهـة الاستعمار والاستغلال والاحتكارات الرأسمالية ؟ والسلطان جاليبف ليس رائدا ثقافيا فى شعور المسلمين ، ولا يقبع فى وعيهم السياسى ، اذا كان يمثل حقا هذه الوحدة العضوية بين الاسلام والماركسية من حيث الفكـر والسلوك والنظام الاجتماعى وليس فقط من حيث ماركسيا لينينيا فى الفكر والنظام ومسلما أسمه أحمد أو محمد فى العقيدة والشـعائر

الدينيـــة (١٧) .

وينتج عن الاسلام كثقافة تحتية سلوك وموقف يجعل المسلمين ذوى طبائع وعادات مختلفة وكأنهم لا يعيشون المواطنة السوفيتة الا اسما . لهم حياتهم الخاصة والعامة مختلفة تماما عن حياة الروس البيض الخاصة والعامة . عندما يتقابل المسلمون فى الطرقات يتبادلون التحية بلغاتهم الوطنية ، ويشعر الانسان أن بينهم رابطة أقوى بكثير من رابطة المواطنة السوفيتية . ولم تنجح جميع المحاولات للقضـــاء على خصوصيات الشعوب مثل التجنيد وانتزاع الافراد من موطنهم الاصلى الى أماكن أخرى لا يعلم عنها أهلهم شيئا . ويتمثل هـــذا السلوك فى الآتى :

١ — ازدواجية الشخصية بين المسلم القابع بينه وبين نفسه : الصادق مع نفسه وجيرانه وبين الموطن الروسى فى الخارج : بينه وبين الدولة ومؤسساتها وثقافتها وحزبها ونظمها وقوانينها . وهو وضـــع مشابه لوضع اليهود فى أوربا باستثناء أن المسلمين هم أصحاب الارض وغرباء عليها فى حين أن الروس الالمـــان والفرنسيين وقوميات أوربـــا الشرقية كانوا هم أصحاب الارض والبهود يعيشون بينهم .

٢ — العكوف على الصلوات فى المساجد ، والاحتفالات الدينيــة فى الاعياد حيث يتجمع آلاف المسلمين فى المساجد المنتشرة فى المـــدن الاسلامية الرئيسية : بخـــارى ، وسمرقند ؛ وطشقند ، وخيـــوه .

---

(١٧) فى الكتاب القادم — تنشر « اليسار الاسلامى » ثلاث نصوص للسلطان جاليف .

وعشقباد ، وأوفا ، وباكو ، ودوشنبه وغيرها • ولا شأن لهم باحتفالات اكتوبر أو بمراكز الحزب الشيوعى أو بأعياد العمال والجيش أو بعروض ساحة الكرملين فى الميدان الاحمر • يزورون قبر البخارى أكثر من زياراتهم لقبر لينين ، ويقرأون « الفاتحة » أكثر مما يقرأون « البيان الشيوعى » •

٣ — تتم مراسيم الزواج والطلاق طبقا للشريعة الاسلامية فى الادارات الدينية • فمازال قانون الاحوال الشخصية هو الحصن المنيع ضد العلمانية والتغريب حتى يصبح الزواج مقبولا من المجتمع الاسلامى لان الزواج المدنى فى أجهزة الدولة لا يجعل الزواج مقبولا « شعوريا » لدى المسلمين الشبان حتى العلمانيين منهم • والزواج فى الادارة الدينية يعادل زيارة العروسين لمقبرة لينين لدى الروس الارثوذكس •

٤ — قراءة القرآن فى الافراح والمواسم واعطاء الدروس الدينية فى الحفلات الخاصة • فأصبحت الحياة الاجتماعية وسيلة للتعليم الدينى، وخروج الثقافة التحتية فى المجتمع المحلى واستبعاد جميع ألوان الثقافة الرسمية ، الثقافة الروسية ، من رقص أو غناء أو شعر « أفتشنكو » الذى لا يعلم عنه المسلمون شيئا والذى تروج له أجهزة الاعلام فى النظم التقدمية العربية •

٥ — الادارات الدينية الاربعة مراكز تجمع للمسلمين ، ومحور نشاطهم ، بها يرتبطون ، ومنها يأخذون توجيهاتهم ، وتصدر نشراتهم ، وتنظم بعثاتهم الى الازهر ، ووفود حجهم • تستقبل الزوار المسلمين ، وتعقد أواصر الصلة بينهم • تجمع تبرعات المسلمين فى الاتحاد

السوفيتي ، وتجمع أموال الزكاة • تشرف على المدارس الدينية ، وتجمع الكتب • ولها في حياة المسلمين مكانة الدولة أكثر مما للدولة سواء المحلية أو المركزية • ولكن ليس لها سلطة على الدولة كما لمؤسسات الحـزب ولمنظمـات الصداقة مثل منظمة تضامن الشعوب الاسيوية والافريقية أو التنظيمات التابعة للحزب مثل تنظيمات الشباب أو المرأة •

٦ — يقوى الاسلام في حياة المسلمين الظاهرة والباطنة حتـى في المسكن والمأكل والمشرب • يتبعون السنة ، ويقـرأون الاوراد . ويختمون الصلاة ، ويقرأون القرآن قبلها وبعدها • يعيشون حياة الصحابة الاوائل وحياة أهل العلم والحديث • وبالرغم من وجـودهم في أواسط آسيا على حدود أفغانستان وايران وباكستان الا أن الاسلام لديهم صاف رائق خال من الاساطير والخزعبلات وتطرف العقائد عنـد فرق الشيعة أو المغالاة لدى الطرق الصوفية • في حين تغيب لديهم كـل الثقافة الرسمية والايديولوجيات السياسية والعقائد الحزبية ومراسيم الدولة وشعاراتها •

٧ — يشعرون بالامة الاسلامية القريبة منهم مثل ايران وباكستان وأفغانستان وتركيا أو البعيدة عنهم مثل مصر وتونس والمغرب والحجاز • يعيشون بأرواحهم مكة والمدينة والحرم النبوى ، ويتطلعون الى مصر ، كعبة الاسلام ، وكنانة الله في أرضه ، وموطن الازهر الشريف • مسلمون بقلوبهم وأرواحهـم • ومواطنون روس بأبدانهم وبطاقاتهم • أهلى وعشيرتى وأقربائى وأخوتنى وفي نفس الوقت يعيشون في دولة أخـرى وتحت نظام آخر ، تجذبهم خارج المركز الاسلامي قوى أخرى تجعلهم يدورون في محيطها •

ومع ذلك ، فالمستقبل لهم لان التاريخ فى مد وجـذر ، والاطراف تتبادلها المراكز حسب قوتها وضعفها ، وحسب قوة صمود الاطـراف وصلابتها • ومما يوحى بالثقة فى هذا المستقبل الآتى :

١ ــ بالرغم من عدم وجود احصائيات رسمية دقيقة عن تعـداد المسلمين فى الاتحاد السوفيتى بدعوى عدم جواز اجراء احصائيات طبقا للدين نظرا لما ينص عليه الدستور من حرية الاعتقـاد وحرية الدعاية للدين أو صفة الدين مع أنه لايجوز الدعاية ضد الماركسية اللينينية المذهب الرسمى للدولة فان الارقام الواردة فى التقديرات الرسمية أقل بكثير من تقديرات المسلمين • فقد تصل فى الاحصائيات الرسمية ثلاث ملايين وعند المسلمين خمسين مليونا وعند المحايدين أربعين مليونا أى مثـل شعب مصر • ولما كان متوسط الاسرة لديهم عشرة أشخاص ولايوجد لديهم أى اجراءات لتحديد النسل ، فالاولاد خير وبركة من نعم الله ؛ ويتزوجون صغار السن منعا للفتنة وسهولة العيش فان تعدادهم سيبلغ فى نهاية القـرن مثل تعـداد الروس البيض الآن الذين لا يتكاثرون ولايزيدون أى حوالى ١٢٠ مليونا ، وبالتالى يتحول الاتحاد السوفيتى كله الى أغلبية مسلمة ، ويصبح دولة مسلمة ، والاسلام الآن هو الدين الثانى بعد الارثوذكسية ، وهو ما سيحدث للدولة العبرية أيضا فى نهاية القرن عندما يفوق تعداد العرب تعداد اليهود • وفى هذه الحالة لايصبح الاسلام ثقافة الاقلية بل ثقافة الاغلبية ، وربما يتحـول أيضا من ثقافة تحتية الى ثقافة فوقية •

٢ ــ قوة الاسلام فى قلوب المسلمين تجعله قابلا للانتشار شيئا فشيئا خارج الابدان ، واكتساب أرضية اجتماعية وسياسية واقتصادية خارج قانون الاحوال الشخصية فى المواريث وتحريم الربـا وأحكام

السوق وربما يمتد ذلك الى أسس النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى للمجتمع كله الذى يغلب عليه المسلمون • وهنا يصح الاسلام ويكتمل ، ويخرج من الحوارى والازقة والزوايا والخانقاه الى المدن الكبيرة والعواصم ويتمثل فى النظم والدساتير •

٣ — زيادة ارتباط المسلمين بالعالم الاسلامى واستثمار هذه الرغبة فى النفوس من خلال وفود الحج ، وأرسال البعثات الدينية الى الازهر الشريف والى جامعات العالم الاسلامى ، واعادة ربط الاطراف بالمركز فى مصر وما حولها والتغلب على الصعوبات القائمة من حيث عدد الحجاج المسموح بهم أو عدد الطلاب فى البعثات بصرف النظر عن حاجة المدارس الدينية فى الجمهوريات الاسلامية ، وطلب الكتب والمراجع . والاموال ، والمساعدات بكافة أنواعها من أخوتهم فى الاسلام فى شتى أنحاء العالم الاسلامى • ودعوة أئمة المسلمين ومفكريهم وعلمائهم حتى يزيد وعيهم بالجناح الشرقى للاسلام •

٤ — استعمال المسلمين لكافة حقوقهم التى يكفلها لهم الدستور ومنها حق الانفصال عن الاتحاد السوفيتى فى أى وقت شاءوا • وقد ثبت هذا الحق عند توحيد الجمهوريات فى الاتحاد السوفيتى فى ١٩٢٢ • كما أن لكل جمهورية الحق فى اقامة علاقات مع الدول الاجنبية وابرام معاهدات معها وتبادل التمثيل الدبلوماسى والقنصلى وكذلك المشاركة فى نشاط الهيئات والمنظمات الدولية (١٨) • وأخذ ذلك فى الاعتبار دائما .

(١٨) بلاد السوفييت ١٩٧٨ ، نوفستى ، موسكو ١٩٧٩ .

ليس الآن ولكن فى المستقبل بعد مايتغير ميزان القوى الدولية ، وتأخذ دورات التاريخ مجراها ، وتنشأ مراكز جذب جديدة فى قلوب العالم الاسلامى •

٥ — نقد المجتمع الروسى وبيان عيوب النظام الشمولى بالرغم من انجازاته العظيمة فى مجال الاقتصاد والانتاج والخدمات • والمشاركة فى الدعوة للحريات ، وزيادة أصوات المعارضة ، والدفاع عن حق الاجتهاد ، ومناصرة حركة المنشقين السوفيت مناصرة لمبدأ حرية الرأى • وبالتالى يتحول الاسلام الى حركة اصلاحية داخل الاتحاد السوفيتى ويكمل أوجه نقصه •

٦ — ظهور الآداب الوطنية مثل الشاعر نوائى فى اوزبكستان وأهمية اللغات القومية ، وتشجيع الابداع المحلى للشعوب الاسلامية مقتفية آثار البيرونى والخوارزمى وغيرهم وتحول التراث المتحفى الى تراث حى فى قلوب الناس ، وارجاع الحقوق التاريخية لاصحابها • فبخارى وسمرقند وترمذ كلها تنتسب الى ابداع الحضارة الاسلامية وليس الى الثقافة الروسية •

٧ — دخول الاسلام فى معارك الاشتراكية والتقدم ودخوله فى المعارك الوطنية لمناهضة الاستعمار والاستغلال والاحتكار ، ودخوله فى معارك المسلمين الكبرى مثل تحرير فلسطين من الاحتلال الصهيونى والتحرر من بقايا الاستعمار فى العالم الاسلامى ، والدعوة الى الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية • فالثورة الاشتراكية الكبرى ثورة اسلامية فى أهدافها ، تخرج من الاسلام ولا تكون ضده أو بديلا عنه ، وبالتالى تتحقق وحدة الشخصية القومية عند المسلمين ، فلا يكونون

مسلمين فى جانب يعيشون فى مجتمع اشتراكى تقدمى مناهض للاستعمار والرأسمالية وفى جانب آخر لا يعلمون عنه شيئا .

ويكون واجبنا نحن بالنسبة لهم كالآتى :

١ — انفتاح المركز على الاطراف عن طريق ازدياد وعينا بهم وارسال الاساتذة والمعلمين لهم فى اللغـــة العربية والعلوم الدينية ، والذهاب اليهم لزيارة الاقارب والجيران ، والاهل والاصدقاء . فبدل أن ترسل الادارات الدينية طلابا لدينا لايزيدون على أصابع اليـــد الواحدة نرسل اليهم بالمنح المالية لارسال المئات حتى يرجع كل منهم داعيا للاسلام وجاذبا الاطراف نحو المركز من جديد ، ومدهم بالكتب والمراجع القديمة والحديثة حتى يظل الرباط الفكرى قائما وان استحال رباط الجسد والمصاهرة .

٢ — الاستفادة بالخبراء المسلمين فى الزراعة والصناعة . وقـد كان لدينا فى مصر ١٧٫٠٠٠ خبيرا روسيا فلماذا لـــم يكونوا كلهم من الجمهوريات الاسلامية ؟ يحضر كل منهم عائلته وأطفاله العشر فنرجع الى الاتحاد السوفيتى ١٧٠٫٠٠٠ مسلما كاملا ، يتحدثون العربيـــة التى تعلموها فى مدارسنا . لماذا يكون الخبراء السوفيت من الروس البيض ؟ ولماذا لا نطالب بمن يفهموننا ونفهمهم ويكونون بيننا أخوة ، قلوبهم علينا ، ينفعوننا ولا يضروننا . وقد طالبت سوريا بنفس المطلب وتم لها تحقيق ما أرادت فى الزراعة . لماذا لا نطالب نفس الشىء فى الجيش والتدريب العسكرى ؟ .

٣ — فتح الحدود بين الجمهوريات الاسلامية فى الاتحاد السوفيتى

وجاراتها من الدول الاسلامية باكستان وايران وأفغانستان وتركيا مادامت جمهوريات مستقلة فى قدرتها اتخاذ قرارها الخاص • وهنا يزداد ارتباط الاطراف بمناطق أقرب الى المركز والمحور وأكثر تفاهما معها داخل الاسلام الاسيوى خاصة وأن اللغة الفارسية أو الاوردية أو التركية من اللغات القومية المشتركة • فاللغة الاوزبكية نفسها لغة أكبر جمهورية اسلامية فى الاتحاد السوفيتى ، احدى اللهجات التركية تجمع بين التركية والفارسية كما تجمع الاوردية بين العربية والفارسية •

٤ — ولماذا نظل نحن على علمنا بالعربية فحسب ، والفارسية والاوردية والتركية من لغات الامة الاسلامية ؟ لقد كنا ضحية الاستعمار اذ علمنا لغاته الفرنسية والانجليزية والالمانية والايطالية والاسبانية حتى يربطنا به لغة وثقافة الى الابد ، وأنسانا جناحنا الشرقى • وقد كان علماؤنا يعلمون الفارسية والاوردية والتركية والسنسكريتية ومن ثم على علمائنا أتقان اللغات الاسيوية حتى لايتكلم علماء الروس البيض لغات الشعوب الاسلامية ونظل نحن العرب ننتظر من يترجم لنا منهم كى نفهم قومنا وأهلينا !

٥ — أن يقول علماؤنا قول الحق ، وألا يقعوا تحت تأثير حسن الضيافة وكرم المثوى أو تحت تأثير الدعاية والاعلان أو تحت تأثير التغريب والاعجاب بالتقدم المادى والروح خاوية • فكثيرا ماعاد الزوار من علمائنا يشيدون بما رأوا ناسين الاسلام فى القلوب ، والحق أحق أن يتبع • وليس أفضل عند الله من شاهد الحق ، وليس أضل لديه من شاهد الزور • أن اسماء بخارى وسمرقند وترمذ لتثير فى نفوس المسلمين أكثر مما تثيره فى نفوس الروس البيض ، تثير فى نفوسنا اسلام ألف وأربعمائة عام وتثير فى نفوسهم مائة عام من القيصرية •

٦ — لقد آن الاوان للامة العربية ، قلب العالم الاسلامى أن تأخذ دورها فى التاريخ كمحور جذب واستقطاب لاطراف الامة الاسلامية ، والامة فى الاطراف تبحث عن هذا الدور فلا تجده • فالعراق جسر للامة الاسلامية فى آسيا خلال ايران وأفغانستان وليس نقيضا لها • كما أن ثورة ايران رصيد للمسلمين فى كل آسيا خاصة فى أفغانستان وباكستان • والمغرب بحفاظه على التراث الاسلامى فى الاندلس محط أنظار المسلمين فى آسيا • وتونس وجامعة الزيتونة أيضا تشخص اليها أبصار المسلمين هناك •وثورة ليبيا ،وثورة الجزائر ، كلها تبعث الامل فى قلوبهم•والحجاز له اجلال واكبار فى نفوس المسلمين • ومصر كعبة الاسلام ، وقلب المحور ، وبؤرة المركز تشخص اليها الانظار ، ويدعون لها بالنهوض بعد الكبوة • وكيف تلتئم الاطراف نحو مركز العالم الاسلامى ، والمركز مغلق على نفسه يحتاج الى من يدق الابواب ؟ •

٧ — فاذا كان مشروع لينين الذى صاغه ابان الثورة الاشتراكية حفاظا على وحدة الدولة القيصرية يتمثل فى احتواء الشعوب الاسلامية المجزئة داخل الاتحاد السوفيتى وحصارها حفاظا لها من العدوان الخارجى الغربى ، وتمثل ثقافاتها داخل الثقافة السياسية الواحدة فان مشروع المسلمين اليوم بعد أن ثبتت الثورة الاشتراكية أقدامها ، وتأسست الدولة ، وأصبحت قوة عظمى ترهب غيرها وتمنعهم من العدوان عليها هو توحيد هذه الشعوب الاسلامية نظرا لما بينها من ارث حضارى مشترك ، وربطها كأطراف بجسد الامة الاسلامية وبمحاورها الاساسية ومركزها فى قلب العالم الاسلامى ، واحياء تراثها ودينها وثقافتها المحلية ، وتحويلها من ثقافة تحتية الى ثقافة قومية توجه حياة الناس الخاصة والعامة • وان أمة اسلامية واحدة مستقلة جناحها الشرقى

فى آسيا وجناحها الغربى فى افريقيا وقلبها فى العالم العربى لخير ضمان لحرية شعوب المنطقة واستقلالها وحفاظ لها من غـزوات الاستعمار واستغلال الرأسمالية واحتكارها وأطماع الصهيونية • ولايضير الالتقاء على الاهداف الاختلاف فى الوسائل • ولا خير فى أصدقاء لاينفع بعضهم بعضا •

خامســا : التجزئة والحصار (الهند وباكستان) •

لقد كان دور الهند فى نشر الاسلام وحمل تراثه دورا بارزا بعد العرب والفرس • فقد انتشر الاسلام من فارس الى الهند برا ، ومن الجزيرة العربية الى شبه القارة الهندية بحرا • كما انتشر عبر غزوات التتار والمغول من الشمال الى الجنوب حتى أصبح الاسلام الدين الثانى فى الهند بعد ديانات الهند التقليدية ، الهندوكية والبرهمانية والبوذية • وقد قام السلطان « أكبر » ، والسلطان « محمود الغزنوى » بنشر الاسلام وتوحيد الامة الهندية داخل الهند وخارجها ، وتوحيد شبه القارة الهندية حـول التوحيد حتى أصبحت الهنـد الرصيد البشرى للمسلمين فى افريقيا وآسيا •

ثم أتى الاستعمار وهو يحاصل الاسلام من البحار • فحاصر شبه القارة الهندية من الجنوب ، وأراد أن يقضى على وحدة شعوب الهنـد التى أقامها الاسلام فاتبع سياسة « فرق تسد » ، وأشعل حروب الطوائف والديانات التى جلبها معه من الغرب بين البروتسانت والكاثوليك • فبدأت مذابح المسلمين على أيدى الهندوس ، وأذكى التعصب الدينى وجعله مرادفا للوطنية عند « السيخ » ، وجعل تسامح الاسلام وشموليته مرادفا للغزو الحضارى وثقافة العرب الاغيار •

وللخلاص من هذه المذابح أوحت بريطانيا بأن الحل هو التقسيم كما فعلت فى فلسطين فى نفس الوقت فى ١٩٤٧ بين العرب واليهود • وكان التقسيم فى كلتا الحالتين يعنى تسليم الهند للهندوس ، وطـرد المسلمين ، وتسليم فلسطين لليهود وطرد العرب • فحدثت الهجرات الجماعية والنزوح البشرى وطوفان الابدان • بدأ تجميع المسلمين أى انعزالهم وحصارهم فى رقعتين كبيرتين من شبه القارة الهندية فى الشمال لا رابط بينهما فيما يسمى بباكستان الشرقية وباكستان الغربية حتى يسهل على الاستعمار فيما بعد قصم الدولة الجديدة وتجزئتها كما حدث فيما بعد فى ١٩٧١ بعد انفصال باكستان الشرقية وتكوين بانجلادش • وهو ما يحاول الاستعمار أن يقوم به الآن فى العالم العربى بعد تجزئته الى دول مصطنعة بعد الحرب العالمية الاولى • وبعد انتشار القوميـة العربية .ومحاولتها توحيد هذه الدول بدأت خطة الاستعمار من جديد برسم خريطة جديدة للمنطقة وتقسيمها الى دويلات طائفية ابتـداء من لبنان ثم سوريا ثم العراق ثم الجزائر • ومن يدرى ماذا يخبىء الاستعمار للمغرب ودول الخليج ؟ أما حيدر أباد الدكن التى كانت دولة اسلامية مستقلة ترتبط بالخلافة الاسلامية وتحتوى على كنوز التراث الاسلامى تقوم بنشره وبتعريفه للناس ، مركز النشر الاسـلامى فى جنوب شبه القارة الهندية فقد تم القضاء كلية عليها داخل الهنـد الجديدة ، وتم ابتلاعها داخل المحيط الهندى • أما كشمير التى تسكنها أغلبية من المسلمين والتى كان يمكن أن يربط باكستان الشرقية وباكستان الغربية وأن تكون حزاما من المسلمين من الشمال مع حزام آخر من الجنوب فى حيدر أباد الدكن فينتشر الاسلام فيما بينهما وتصبح شـبه القارة كلها اسـلامية فى مستقبل التاريخ فقـد فصلها الاستعمار عن باكستان الغربية ووضعها تحت الانتداب أو وصاية الامـم المتحدة .

يغازل بها الهند ، وتقوم الهند بسياسة التهجير حتى تحول الاغلبيـة الاسلامية الى أقلية والاقلية الهندية الى أغلبية ، ثم يتم الاستفتاء فيما بعد حتى تنضم كشمير ، جنة الله على الارض ، التى يقال أن آدم نزل بها ، الى الهند أو على الاقل تظل سببا لاذكاء الصراع بـين الهنـد وباكستان حتى يخشى الهنود الاسلام ويعادونه الى الابد (١٩) •

لم يجد المسلمون مخرجا من هذه المذابح التى أذكاها الاستعمار الا تجميع كتلهم البشرية والبحث عن رقعة متجانسة من الارض واقامة دولة تحميهم • وهكذا نشأت باكستان أملا فى قلوب المسلمين فى الهند ، ورأى فيها المسلمون تكوين أول دولة اسلامية نشأت على الاسلام ربما تكون عزاء لهم عن ضياع الخلافة فى تركيا • وارتبطت بها كل الاتجاهات التحديثية والحركات الاصلاحية فى العالم الاسلامى خاصه بعد نضـال محمد على جناح ، وصياغة أيديولوجية اسلامية لنهضة المسلمين عنـد محمد اقبال • ولم يكن المسلمون حينئذ على وعى بمـا يخطط لهـم الاستعمار فى الظاهر دفاعا عن المسلمين بانشاء دولـة باكستان ، وفى الباطن عزل الاسلام وتجزئته وحصاره وأبعاده عن شبه القارة الهندية• فما ظنه المسلمون خيرا هو فى حقيقة الامر شر مستطير •

وكانت النتيجة أن أصبح المسلمون أقلية فى الهند لا أثر لهم ،

---

(١٩) لم نشأ التفصيل فى هذا الجزء نظرا لتعرض دراسة « الاسلام والاستعمار لذلك . » كما أنه ليس لدينا تجارب مباشرة عن أحوال المسلمين فى الهند وباكستان وأندونيسيا والملايو والفلبين وتركيا . وسنعتمد على اعادة بناء الموقف التاريخى للمسلمين ابتداء من الاسلام كتجربة حية فى شعور المسلمين ابتداء من العلوم التاريخية .

وبالتالى تم حصار المد الاسلامى فى شبه القارة ، والاسلام بلا انتشار ضمور وانحسار ، فقوة الاسلام فى انتشاره الطبيعى . كما هاجرت الاقلية المسلمة من الهند الى مناطق تجميع المسلمين فى باكستان ، فانتهت مراكز التجميع الاسلامية داخل شبه القارة ، وقضى على هذه البــؤر الاسلامية التى كانت مركز اشعاع حضارى داخل الهند . وتم تجزئــة المسلمين بين باكستان الشرقية وباكستان الغربية يبعدان عن بعضهما البعض مئات الاميال مع ثقة الاستعمار بأن التخلف قادر على اذكاء روح الفرقة بــين جناحى الدولة الجديدة واثارة النعرات القبلية واللغوية . وكيف يعيش جناحان بلا قلب نابض أو بلا قلب على الاطلاق ؟ لقــد ظل الاستعمار يغذى روح الانفصال بين المنطقتين ، وكانت الهنــد فيما بعد أداة تحقيق هذا الانفصال بالفعل حتى لاتنشأ بجوارها دولة قوية تكون محور جذب للمسلمين فى شبه القارة على حدودهــا الشمالية . وكانت الهند على ثقة من أن سياسة عدم الانحياز ، وما تمثله بالنسبة الحركات الوطنية فى آسيا وافريقيا ستكون عونا لها وكسبا للتأييد الدولى ضد باكستان المتحالفة مع الغرب والتى تمثل نظاما رأسماليا رجعيــا تعمل كل الشعوب المتحررة حديثا على التخلص منه .

وبعد أن حقق الاستعمار هدفه من « فرق تسد » وفصل باكستان عن الهند اتبع سياسة الاحتواء فى باكستان نظرا لان الحركة الوطنيــة الهندية كانت مناهضة للاستعمار فصعب على الاستعمار احتواءها . احتوى الاستعمار باكستان ، وجعلها جزءا من خططه فى المنطقة لحصار الاتحاد السوفيتى ، ومناهضة حركات التحرر الوطنى فى العالم العــربى والاسلامى . حاول الاستعمار جعل باكستان ركيزته فى آسيا جنــوب الاتحاد السوفيتى وشرق العالم العربى شمال الهند وغرب الصين حتــى تكون بؤرة للغرب فى آسيا . ورسم لها المخطط الآتى :

١ ــ تركيز الاقطاع كنظام دائم للدولة الجديدة حتى يظل المسلمون تحت لواء الاقطاع ، وحتى يعم الفقر الاغلبية ، ويظل المال بأيدى الاقلية خشية من المساواة والعدالة الاجتماعية فى الاسلام والثورة الاشتراكية الاسلامية دون أن يعلم أنه بهذا المخطط يرسخ جذور الثورة ، ويولد حركات المعارضة الاسلامية ، وكأن الاستعمار لا يريد الا الحاضر ، ويرى فيه أمانا من غائلات المستقبل . والحاضر الاسلامى فى حقيقة الامر هو « كمون » للمستقبل الاسلامى قد يظهر « طفرة » كما حدث فى الثورة الايرانية .

٢ ــ الابقاء على النظام الرأسمالى ، وذلك من أجل استنزاف اموال أمراء الاقطاع وتوظيفها لصالح الغرب كما هو حادث فى عائدات البترول فى العالم الآن . وتكوين حزب اسلامى من أمراء الاقطاع وكبار الرأسماليين موال للرأسمالية الغربية فى مقابل حزب المؤتمر الهندى . فالرأسمالية لا وطن لها ، ورأس المال لايبغى الا صالحه الخاص . وبالتالى تخرج باكستان عن نموذج « الطريق اللارأسمالى للتنمية » الذى حاوله العالم الثالث .

٣ ــ الابقاء على فقر الاغلبية ، وعدم الاسهام فى أية مشاريع جادة للتنمية الاقتصادية فى الصناعة أو الزراعة فظل الفيضان يحصد بالآلاف سنويا دون أية مشاريع للسيطرة على المياه وتخزينها كما حدث فى مصر ، بالاضافة الى انتشار الامية حتى تظل باكستان لعدة أجيال نموذجا للنظم المستقرة فى العالم .

٤ ــ ربط الدولة الجديدة بالاحلاف العسكرية ، ووضعها تحت مناطق النفوذ الغربى فى حلف جنوب شرق آسيا ، حلف بغداد أو الحلف

المركزى • والهدف منها ليس الدفاع عن باكستان ، فقد تركها الغـرب فريسة للغزو الهنـدى لجناحها الشرقى فى ١٩٧١ ولكن للدفـاع عن مصالح الغرب فى آسيا ، وتهديد الاتحاد السوفيتى ، واخراجها من القارة الاسيوية ، بعيدا عن جذب مراكزها وبؤرها الثورية فى الاتحاد السوفيتى أو الصين أو فيتنام •

٥ — خلق طبقة من العسكريين وجنرالات الجيش موالين الغرب ؛ يستعملهم لتدبير انقلابات لصالحه اذا ما حانت لحظة الثورة الشعبية كما يفعل فى أمريكا اللاتينية ، واحتواء العسكريين خشية أن تتحول الى قوى وطنية تعبر عن مصالح الشعوب كما حدث فى الثورات العربيـة الاخيرة ، على الاقل فى بداياتها ؛ وخلق التنافس بين الجنرالات حتـى يدين الجميع بالطاعة ويتسابقون على الولاء للغرب •

٦ — الاغراء بالسلاح النووى لاستنزاف ثروات البلاد واستثمارها فى صالح الغرب ، واستعمال هذا السلاح كما يشاء الغرب كجزء من دفاعاته ضد الاتحاد السوفيتى وليس ضد الهند أو فى صالح الشعوب العربية والاسلامية فى مقابل تسليح اسرائيل النووى ، وحتى يظـل تسليح الجيش فى يد الغرب وتحت سمعه وبصره •

٧ — حصار العالم العربى الذى بدأت فيه الثورات الوطنيـة مناهضة للاستعمار الغربى ، تقاوم الاحلاف العسكرية ، وتدعو الى ثورة اشتراكية مناهضة للرأسمالية والاقطاع ، وتدافع عن الاستقلال الوطنى للشعوب ، وتكوين اقتصاد وطنى مستقل ، ومناهضته للصهيونية ، ركيزة الغرب فى المنطقة وجسر الاستعمار فيه ، وتوحيد المنطقة كلها تحت لواء

القومية العربية بقيادة الناصرية التى ترى الدائرة الاسلامية أحـــد دوائرها •

٨ — شق الامة الاسلامية الى شقين أعجمى وعربى ، الناطق بالانجليزية (الاوردية أو التركية) والناطق بالعربية حتى يظهر نموذجان للمسلمين تحتار بينهما كوريث للنموذج القديم : شيعة وسنة • ثم يــدب الخلاف بين شقى الامة كمـا فعل الغرب بنفسه بـين البروتستانت والكاثوليك • ويتساءل الغرب أى اسلام ؟ مادام هناك اسلامان فاذا ذكر الاسلام الثورى ذكر الاسلام الغربى ، واحد بواحد ، وشاهد بشاهد •

٩ — ربط الدولة الجديدة كما ارتبطت الهند من قبل من خـلال اللغة الانجليزية بثقافة الغرب ، واعتبار بريطانيا نموذج التحديث . وأسلوب الحياة البريطانى أسلوب الرجل المهذب حتى يتم القضـاء على الروح الاسلامية فى الثقافة وفى السلوك اليومى • وقد حــاول الاستعمار البريطانى نفس الشىء مع مصر والعراق والاردن ، وحاول الاستعمار الفرنسى ذلك أيضا مع تونس والجزائر والمغرب •

١٠ — اخراج دعوات دينية اصلاحية موالية للغرب مثل القاديانية والبهائية والاحمدية ، وتقوية المذاهب التقليدية واحتوائها والدفاع عنها والدعوة لها مثل الاسماعيلية حتـى ينفـر المسلمـون المستنيرون من الاسلام ، وتربية مسلمين موالين للغرب مثل السيد أحمد خان •

١١ — تغذية القوميتين الهندية والباكستانية حتى لايجمع الهنـد وباكستان أى رباط آخر فكرى أو دينى أو تاريخى أو حضارى أو ثقافى• وتحويل معركة باكستان من الغرب مع الاستعمار الى الشرق مع جارتها

الهند • ولما كانت الهند بمواقفها الوطنيـــة ومعاداتها للاستعمار ، — وتأسيسها حركة عدم الانحياز تحظى بتأييد شعوب العالم الثالث ؛ نفرت هذه الاخيرة من باكستان ، الدولة المسلمة ، وعادت الاســـلام في شخص باكستان •

١٢ — تفتيت دولة باكستان ذاتها في أقرب فرصة حتى يســـهل ابتلاعها كلية من الاستعمار خشية أن تصحوا الدولة يوما بامكانياتها البشرية وباستقطابها المسلمين في آسيا ، وبعد نشأة تيارات اصلاحية أثرت في العالم العربي مثل تيار « الجماعة الاسلامية » التي أسسها الامام أبو الاعلى المودودي وأثره على الجماعات الاسلامية في العـــالم العربي خاصة في مصر عند جماعة « الاخوان المسلمين » (٢٠) •

وحدث الانفصال بالفعل نتيجة للغزو الهندي في أواخر ١٩٧١ بين باكستان الشرقية وباكستان الغربية كما خطط الاستعمار وتكونت دولة جديدة بنجلاديش أصبح يضرب بها المثل في الفترة والتخلف والاميـــة والاقطاع والتسلط تشويها للاسلام ، يصـــور المسلمين يقتلون بعضهم بعضا ، قبائل متوحشة لا تأخذ رأفة بالانسان بينما صيحات الغـــرب الانسانية تدوي في الآفاق رحمة بالفقراء والمعذبين والجرحى باســـم المسيحية ! وكانت النتيجة كالآتي :

١ — ازدياد الفقـــر ومشاكله التي لاتنتهي حتى أصبح يضرب بالمسلمين المثل في الفقر في العالم • فالمسلمون يموتون جوعا في وقت

---

(٢٠) انظر مقالنا « اثر ابي الاعلى المودودي على الحركات الدينية المعاصرة » ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ١٩٨٠ .

تتكدس فيه عائدات البترول من باقى المسلمين فى الحجاز والعـراق وشمال افريقيا • بالاضافة الى الامية والتخلف وعـدم وجود فنيين وطنيين قادرين على التخطيط والتنمية •

٢ — العجز أمام الفيضانات التى تؤدى بحياة الآلاف من المسلمين سنويا وكأن الله لم يسخر الطبيعة للانسان • وبالتالى يموت المسلمون فى العالم الاسلامى اما من الفيضان فى بنجلاديش أو من القحط فى تشاد بسبب عجز المسلمين عن السيطرة على قوانين الطبيعة ، وكأن الآلاف من الجثث الادمية التى تعرضها أجهزة الاعـلام الغربية يجرفها التيار لا انسانية لها •

٣ — سيادة الروح القبلية العشائرية ، وتفتيت الامة الاسلامية أكثر فأكثر طبقا للغة والقبيلة والعادات والعرف والتقاليد بل ولون البشرة مما يهدد بقايا الوحدة ، ويهدد الامة كلها بتحويلها الى وحـدات صغيرة يسهل على الاستعمار ابتلاعها كما يحدث الآن فى لبنان والشام فى انشاء دويلات الطوائف وكما حدث فى الاندلس أيام ملوك الطوائف •

٤ — نظرا لضعف الدولة وعدم وجود مقومات للحياة الاقتصادية فانها تعتمد فى حياتها على الغرب فلا تخرج عن النفوذ الغربى تماما مثل اسرائيل مع فارق ان اسرائيل فى علاقتها مع الغرب هى السيد فى حين أن الغرب فى علاقته مع بنجلاديش هو السيد •

٥ — ثم تأتى المعونات الاقتصادية والاغذية والادوية والاغطيـة من الجمعيات الخيرية المسيحية والكنائس العالمية وبالتالى تبدو المسيحية أكثر رحمة بالبشر من الاسلام خاصة اذا نهب أمراء المسلمين وحكام

المقاطعات الدقيق ، وجددوا البيوت والاثاث من المعونات ، وبنـــوا القصور بالاموال والهبات . والغرب مسرور لاقنـــاع المسلمين بمزايا المسيحية على الاسلام . هكذا يفعل الاسلام بهم وهكذا تفعل المسيحية بهم ، فيتم تحويل المسلمين الفقراء الى المسيحية أو تربية الاطفـــال والايتام فى دور الكنائس ، وعلى هذا النحو أصبحت بنجلاديش مرتعا للتبشير ، والتبشير مقدمة للاستعمار ومرسخ له .

وفى كلتا الدولتين ، باكستان وبنجلادش أصبح وضع الاســـلام كالآتى :

١ ـ طقوس وشعائر ورسوم لاتغير من الواقـــع الاجتمـــاعى والسياسى شيئا ، وبالتالى شارك الاسلام فى باكستان الاســـلام فى السعودية ، ومن هنا نشأ الاتفاق فى المزاج والرؤية والوظيفة للدين بين النظامين .

٢ ـ اقامة الدولة الاسلامية ، وصياغة الدستور الاســـلامى . وتأسيس النظام الاسلامى أصبحت كلها شعارات كما هو الحال فى الحجاز ومصر وكأن الاعلان عن الهدف يكفى لان تكون الدولة كلها اسلامية كما حدث بعد الدعوة الوهابية فى الحجاز ، والدعوة الحالية فى مصر بعد انحسار الثورة وحاجة المجتمع الى شرعية جديدة . وهى دعوات فى حقيقة الامر يخفى ظاهرها غير باطنها وتهـــدف الى التستر على مايدور فى الواقع من نظم لا اسلامية مثل ، الاقطاع ، والرأسمالية ، والدكتاتورية . وطالمـــا استشهد الغرب بالدول الاسلامية فى السعودية وباكستان حتى يشوه الاسلام فى ذهن الناس وينفر منـــه المسلمين المستنيرين .

٣ — تحويل الاسلام الى مناقشات فكرية ونظرية نظرا لتغلغل التراث الغربى فى الهند • خرجت مناقشات نظرية عن الاسلام والغرب، والاسلام والتحديث ، والنظام الاسلامى ، وأصبح الفكر الاسلامى فى باكستان ، من الناحية النظرية أكثر تقدما من حيث مجابهته لمشاكل العصر بين الفكر الاسلامى فى العالم العربى • وفى نفس الوقت كثرت الدعوات المشبوهة التى يختلط فيها الاسلام كستار بالاهداف الغربية كحقيقة وواقع •

ولكن بدأت ظواهر جديدة فى باكستان تدعو الى الامل منها :

١ — مناصرة الثورة الايرانية من الجماهير الاسلامية بالرغم من تخوف نظم الحكم فيها خاصة فى الصراع بين الثورة الاسلامية فى ايران والاستعمار الامريكى ، وبداية الشعور الاسلامى الشعبى المعادى للغرب ولامريكا بوجه خاص •

٢ — مناصرة الثوار المسلمين فى أفغانستان بصرف النظر عن التقاء المصالح فى الدفاع عن الاستقلال الوطنى لافغانستان بين الامة الاسلامية والغرب ، وفتح حدود باكستان لمساعدة الثوار المسلمين بصرف النظر عن استغلال الغرب والنظم الرجعية فى المنطقة هذه المعارضة لصالحه الخاص •

٣ — بداية خروج باكستان من الاحلاف العسكرية الغربية ، وحرصها على الاستقلال الوطنى ، واقترابها من الهند ، ورجوعها الى دول عدم الانحياز ، مما يجعلها احدى دول آسيا وأفريقيا وليست نموذجا ممسوخا للغرب فى آسيا •

٤ ـ ازدياد الارتباط بالوطن العربى ، وضمها الى مركز العالم الاسلامى ، ومناصرتها لشعب فلسطين ، والنزول بثقلها العسكرى فى القضايا العربية بصرف النظر عن النظم القائمة فيها ، وتجاوز الشعور الاسلامى فيها الهوى الغربى .

٥ ـ ظهور دعوات اسلامية مثل « الجماعة الاسلامية » تعرض الاسلام ككل ، وتدين الواقع بأكمله ، وتريد البداية من جديد كما بدأ الصحابة الاوائل ، وأثر هذه الجماعة على الجماعات المشابهة فى الوطن العربى وامتدادها فى جماعة « الاخوان المسلمين » .

أما عن امكانيات المستقبل فاننا نرصدها على النحو التالى :

١ ـ أن تتحول مفاهيم اقبال حول الذاتية ، والامة ، والعمل ، والطاقة ، والحركة الى أيديولوجية ثورية لاعداد المسلم لبناء الامة الاسلامية .

٢ ـ أن يتم التعريب حتى تقترب أطراف العالم الاسلامى من مركزه أكثر وأكثر وأن تتم لدينا أيضا « أسلمة » لغاتنا الاجنبية حتى نرتبط بجناحنا الشرقى الاسلامى فى آسيا أكثر من ارتباطنا بالغرب .

٣ ـ أن تبدأ فيها الثورة الاسلامية بعد أن تم حصارها بالثورة الاسلامية فى ايران وبالثوار المسلمين فى أفغانستان ، وأن يولد وجود الثورتين فيها قوى اسلامية ثورية وطنية كما حدث من وجود المقاومة الفلسطينية فى لبنان ، وتفجير الصراع الاجتماعى والوطنى .

٤ ـ أن تبدأ وحدة المسلمين فى قلب آسيا بباكستان وايران

وأفغانستان كمحور جذب لباقى الاطراف فى آسيا للمسلمين فى الهند والصين ، وامبراطورية المغول وآثار تيمور لنك ليست بالبعيد .

٥ — أن تكون مركز جذب آخر للمسلمين فى الاتحاد السوفيتى حتى يشعر المسلمون هناك بأن الاسلام قد عاد من جديد فى ايران وأفغانستان وباكستان ، ولاريب أنه عائد فى أذربيجان وتركمانستان وبلاد ماوراء النهر .

٦ — أن نبدأ بنقد الحضارة الغربية نظرا للاطلاع الواسع على الثقافة العربية فتنشأ لديهم بدايات علم « الاستغراب » فى مقابل « الاستشراق » حتى تتخلص من « التغريب » وتبدأ فى اكتشاف أصالتها وبعدها التاريخى .

سادسا : التبشير والاستعمار (أندونيسيا ، الملايو ، الفلبين) .

علاقة التبشير والاستعمار علاقة مزدوجة ومتبادلة أما أن يبدأ الاستعمار أولا كى يمهد الطريق للمبشرين لتدعيم الاستعمار عن طريق الدين واللغة والثقافة والعادات والتقايد واما أن يبدأ التبشير ليمهد الطريق بعد ذلك أمام الاستعمار بعد استئناف الناس وتغريب وعيهم وجعلهم لقمة سهلة فى فم الاستعمار . وكلما ابتعدنا عن مركز العالم الاسلامى الى أطرافه وأصبح المسلمون أقلية وسط الديانات الاخرى فى آسيا تبدأ حملات التبشير بين المسلمين وجميع الديانات غير المسيحية الغربية . فالمبشرون يرون الاسلام كالبوذية والبرهمانية والكونفوشيوسية ديانات غير متطورة أقرب الى الوثنية منها الى الدين الحق الذى تمثله المسيحية .

وتشتد حملات التبشير عندما يكون النظام القائم فى دول جنوب شرقى آسيا رجعيا مواليا للغرب فيفسح المجال للنشاط الغربى فى البلاد وعلى رأسه حملات التبشير والاحلاف العسكرية والشركات الاقتصادية المتعددة الجنسيات • وقد حدث ذلك فى أندونيسيا عندما اشتد نشاط الكنائس فى الآونة الاخيرة مما اضطر السلطات لوضع قانون ١٩٧٨ يحد من هذا النشاط بعد حركات المعارضة الاسلامية له •

ولكن الاسلام الشعبى يظهـــر فى حركتين : الثقافـــة الوطنية ، والاتجاهات التقدمية الاشتراكية • فبالرغم من محاولة الغرب دفـــع شعوب شرقى آسيا الى العلمانية وتعدد الاديان الا أن الاسلام ظل متوحدا بالثقافة الوطنية عند الشعوب • أراد باسم العلمانية أن يقضى على الثقافات المحلية وزرع الثقافة الغربية باسم المدنية والعلم والحضارة العالمية التى يشارك فيها الناس جميعا • كما أراد باسم تعدد الاديـــان القضاء على الاسلام باعتباره دينا طبيعيا متوحدا مع الثقافات المحليه وافساح المجال لزرع ديانات غربية مثل المسيحية الغربية • ويتضح ذلك فى جاوه أكبر جزر أندونيسيا عندما توحد الاسلام مع الثقافة الوطنيه فى جاوه حتى أنه ليصعب التمييز بين الاثنين • لذلك ظهر الاسلام فى أندونيسيا ثقافيا محليا وليس شعائريا طقوسيا ، اسلام حضارة وليس اسلام عبادة•وكما يتضح ذلك فى الحزبين الاسلاميين الكبيرين : المحمدية، ونهضة العلماء • يغلب على الاول الدعوة الاسلامية وانتشارها بين الوطنيين ، ويغلب على الثانى النهضة الحضارية الاسلامية •

أما بالنسبة للاتجاهات التقدمية الاشتراكية فقد كان المسلمون يكونون جزءا من الجبهة الوطنية التى أسسها سوكارنو والتى استطاع

بها تحرير أندونيسيا من الاستعمار الهولندى • كان المسلمون والماركسيون والوطنيون يكونون جبهة واحدة مناهضة للاستعمار ، تقدمية اشتراكية• كان الماركسيون مسلمين من حيث المضمون دون الشكل وكان المسلمون مسلمين مضمونا وشكلا • وقد تكرر ذلك من جديد فى الجبهة المتحدة التى شكلها حزب « سرقة اسلام » ، والحزب الشيوعى الاندونيسى • وكما اتحد الاسلام من قبل بالثقافات الوطنية فانه اتحد أيضا بالحركات الوطنية التقدمية والاشتراكية والتى ساهمت جميعا فى صياغة المبادىء الخمسة التى يقوم عليها الدستور : الايمان بالله ، احترام الانسان ، الوحدة الوطنية ، الديمقراطية ، العدالة الاجتماعية • كما توحد الاسلام مع حركات المعارضة للتسلط الداخلى والاستغلال الخارجى كما هو واضح فى « الحركة الطلابية الاسلامية » • وقد وضح لدى الجماهير المسلمة فى أندونيسيا أصل الجهاد فى الاسلام فنشأت حركة « جهاد » من أجل التعبير عن الاسلام الملتزم بالقضايا الوطنية • فالاسلام فى أندونيسيا اذن حركة ثقافية وحركة سياسية يمثل ثقافة وطنية وحركة تحرر وطنى لشعب أندونيسيا •

وقبع الاسلام الشعائرى الشكلى ، وانزوى عند بقايا أمراء الاقطاع أو رجالات الجيش • فاصطادهم الاستعمار ، وكانوا فريسة سهلة له ، فقام الانقلاب الغربى الرجعى ضد الحكم الوطنى ، وعاد الاسلام الشكلى الغربى التقليدى الى الظهور ، وظهرت نغمة الغرب الدائمة عند المسلمين : « الاسلام فى مواجهة الالحاد » •

واذا كان المسلمون فى أندونيسيا يكونونو حوالى ٩٠ ٪ من مجموع السكان فانهم فى الملايو يكونون حوالى ١٢٥ مليونا حوالى ٦٠ ٪ من السكان نظرا لوجود حوالى ٣٠ ٪ من الصينيين بالاضافة الى ١٠ ٪ من

الهنـــود . وكمـــا اتحـــــد الاســـلام بالثقافـــات الوطنيـــــة فى الملايو حتى أصبح دخول الناس فى الاسلام Islamization مســـاويا للتأكيد على الهية الملاوية Malayizition لذلك قـــام الاستعمار والتبشير بحملات ضخمة من أجل نشر المسيحية الغربية بعد ماانزعج من سرعة انتشار الاسلام بين الوطنيين ، واتحاد الاسلام بالثقافات الوطنيه وتوليده حركات تحرر وطنى مناهضة للاستعمار ، ولكنه لم ينجح فى مهمته . فقد بدا للشعوب أن الاسلام هو الوطنية فى الثقافة والسلوك وأن التبشير هـــو الغرب . الاسلام هـــو الثقافات المحلية والتبشير هـــو القضاء على الثقافات الوطنية Acculturation وزرع الثقافة الغربية محلها . الاسلام هو تأكيد الانا والتبشير هو الاغتراب ، ضياع الانا فى الآخر . الاسلام هى الطبيعة وحياة الناس ورعاية مصالحهم بما لديه من قدرة على التنوع والتمثل واثبات الخصوصية . ويشارك « حزب الوحدة الملاوية الاسلامية » الآن مع الاتجاهات الوطنية التقدمية الدعوة الى « الاشتراكية الاسلامية » والعودة الى الاصول الاولى .

وفى الفلبين حيث بدأ الاستعمار الاسبانى بعد سقوط غرناطة فى ١٤٩٣ الالتفاف حول العالم الاسلامى من البحار واحتل جزر الفلبين وسماها فى ذلك الوقت « الامـــة المورية » نسبة للمسلمين فى أسبانيا « المور » . وقد بدأت حركة التحرر الوطنى لديهم ممثلة فى « الجبهـــة الوطنية للتحرير المورى » منذ عشرات السنوات للتأكيد على هـــوية المسلمين الذين يتجمعون أساسا فى الجنوب فى « مندناو » مدافعين عن استقلالهم الذاتى ضد صنوف الارهاب من الحكومة التى ورثت الطغيان الاسبانى ثم اليابانى ثم الامريكى فى النهاية . وقد كلف ذلك المسلمون حتى الآن ٥٠٫٠٠٠ قتيل بالاضافة الى ٥٠٠٫٠٠٠ لاجىء . اتحد الاسلام أيضا بالثقافات المحلية ، وأصبحت اللغة العربية هى لغة الثقافة . ويمثل

المسلمون هناك ، وهم حوالى اثنان مليونا ونصف ، أكبر تجمع اسلام فى جنوب شرق آسيا خارج أندونيسيا والملايو • ويتركز المسيحيون فى الشمال • ويحاول النظام الرجعى الغربى فى الشمال القضاء على النزعات الوطنية الاستقلالية عند المسلمين فى الجنوب • ففى كل مكان فى آسيا يصبح الاسلام مرادفا لحركة الاستقلال الوطنى وتأكيد الهوية القومية •

وفى تايلاند يكثر المسلمون على حدود ماليزيا ، حـوالى المليون . ويصبحون أقلية • يطردون بالآلاف من البلاد وكأنهم عنصر دخيل على الديانات القائمـة لان الاسـلام يمثل التحـدى الحقيقى للنظـم السياسية القائمة الموالية للغرب بما للمسلمين من قدرة على الصمود ، ومواصلة النضال والجهاد فى سبيل الله ، والانصهار بالاجناس ، وتمثل الثقافات المحلية •

وفى بورما يبلغ المسلمون أيضا حوالى المليون على حدود بنجلاديش . قامت ضدهم أكبر حملة ارهاب فى ١٩٧٨ فهربوا وهلكوا بالآلاف لانهم يمثلون عنصر جذب للوطنيين ، وبؤرة انتشار وتكاثر • وفى سنغافورة يبلغون حوالى نصف المليون من الملاويين محاصرين بأغلبية من الصينين • والمسلمون فى كمبوديا وفيتنام أقلية داخل البوذية قد يخرقون الحصار يوما مـا •

سابعا : نهاية العلمانية والتغريب (تركيا) •

ظهرت بوادر النهضة الاسلامية الجديدة فى تركيا وكأن الرجـل المريض الذى كان يضرب به المثل منذ أواخر القرن الماضى وأوائل هـذا القرن قد دبت فيه الحياة من جديد من خلال أحفاد أصحاء ، يبعثون الامل والحياة فى سلالة الاسرة من جديد •

كانت الثورة الكمالية فى ١٩٢٣ نتيجة طبيعية لما وصل اليه حال الخلافة الاسلامية ومركزها فى استانبول : قهر وطغيان وتسلط ، فقر وتخلف ، جهل وخرافة ، هزائم عسكرية متوالية ، دسائس ومؤامرات ، أطماع شخصية ... الخ . وكان من الطبيعى أمام النموذج الغربى الناجح أن ينشأ « الضباط الاحرار » أو جماعة « الاتحاد والترقى » من أجل القيام بانقلاب لتغيير الاوضاع وتبنى النموذج الغربى العلمانى فى شتى مظاهر الحياة ، فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والتشريع بل حتى فى اللغة وأسلوب الحياة من لباس وسكن . فوضع التقدم ضد التخلف ، والحرية فى مقابل التسلط ، والغرب فى مواجهة الاسلام ، والعصرية على النقيض من التراث .

ولكن بعد جيل واحد ومنذ الحرب العالمية الثانية رأى المسلمون الآتى :

١ — موالاة تركيا فى نظامها الجديد للغرب ، والدخول معه فى أحلاف عسكرية ، حلف بغداد ، الحلف المركزى ، وجعل أرضها مرتعا للقواعد الاجنبية . ففقدت استقلالها الوطنى ، وتغير الحال منذ الخلافة ، فبعد أن كانت جيوش تركيا فى كل مكان فى العالم الاسلامى ، تدافع عن وحدته واستقلاله ضد الحركات الانفصالية والاطماع الغربية أصبحت قوات الجيش الامريكى على أرضها تدافع عن المسكر الغربى الذى كان يطمع فى تمزيقها بالامس القريب .

٢ — اقتصاد غربى رأسمالى منهار ، يعيش على معونات أجنبية بعد أن كانت تركيا البلد الزراعى الصناعى الاول ، وتحويلها الى مجرد تجميع لصناعات الغرب أو أسواق لتصريف منتجاته أو أيدى عاملة فى

دولة صناعية • عم الفقر فى البلاد ؛ وتفاوتت الدخـول بين الاغنياء والفقراء ، وزاد الفقراء فقرا والاغنياء غنى حتى أصبح يضرب به المثل أيضا كنموذج للبلاد المتخلفة •

٣ — « التغريب » : فى الحياة العامة ، وغربة الاجيال عن ماضيها . وانقطاع حاضرها عن ماضيها حتى ساد الغرب الشرق بعد أن كان الشرق يشع على الغرب • أصبحت تركيا « قطعة من أوربا » كما حاول الاستعمار مع مصر أيام اسماعيل ، وأصبح مضيق « البوسفور » معبوا من الغرب الى الشرق بعد أن كان معبرا من الشرق الى الغرب •

٤ — نشأة التيارات السياسية الجذرية مثل الماركسية وجماعات المعارضة واتحادات الطلاب والتنظيمات السرية التى ترفض كل ماهو موجود من تغريب ورأسمالية حتى أصبحت خطرا يهدد النظام القائم مما دفع أمريكا بالاسراع بتدبير الانقلاب لاستيلاء الجيش على السلطة خوفا من اليسار الوطنى أو من الثورة الاسلامية •

٥ — اذكاء روح القومية التركية ، وانفصالها عن الاسلام كوحـدة سياسية شاملة ، والثناء على الثـورة الكمالية وتأييدها وتشجيعها . والمشاركة فى تصدير النموذج الغربى فى القوميات المتصارعة ؛ وتحـديد القومية بالارض والانهار والجبال والوديان والبحار فتنشأ الخلافات على الحدود •

٦ — معاداة القومية العربية ، وقطع لواءى الاسكندرونة وقطعـه من سوريا ، واذكاء التعارض بين القوميتين التركية والعربية بـل واقامة معارك على الحدود ، ووصف الاتراك بالمستعمرين ، وحكم الاتراك

بالاستعمار التركى ، والايهام بوقوف الغرب ، انجلترا خاصة ، بجانب العرب ضد الاتراك ، اثر الحرب العالمية الاولى حتى ينقلب العرب على الاتراك ، ويقضى على وحدة الامة الاسلامية :

٧ — الاعتراف باسرائيل ، وضرب العرب فى أعزامانيهم القومية ، بل ووضع القواعد العسكرية الامريكية على أراضيها تحت تصرف قوات الغزو على الامة العربية ، فأصبحت تركيا والاستعمار واسرائيل جبهة واحدة ضد الامة العربية عامة وشعب فلسطين خاصة .

٨ — وكرد فعل لمعاداة الاتراك للعرب . عادى العرب الاتراك وكأنهم ليسوا مسلمين ، فناصر العرب اليونان على الاتراك فى قبرص . كما أيدت اليونان العرب ضد الاتراك فى فلسطين . ونسى الجميع أنهم كانوا أمة واحدة لمئات السنين حتىالامس القريب .

وهنا تذكر الناس أن الحاضر ليس بأفضل من الماضى وأن هـــذا الامس القريب لم يكن أسوء حالا من الحاضر . وتذكروا :

١ — حفاظ السلطان عبد الحميد على وحدة الامة ، ومقاومة الحركات الانفصالية للقوميات بالرغم من ادانتهم لوسائل القمع والاضطهاد المتبعة لتحقيق هذا الهدف . فالامة الاسلامية الواحدة لاتنفى تعدد القوميات داخلها على قدم المساواة .

٢ — الحفاظ على فلسطين ، ورفض كل العروض لشرائهـــا أو استئجارها أو استعمالها أو أخذها رهنا مقابل مبلغ من المال كانت الدولة فى أشد الحاجة اليه . كما رفض بدايات الهجرة اليهودية الى فلســطين وحددها ، وبالتالى لم تضع فلسطين .

٣ ـ فتوحات الجيش التركى فى أوربا . وانتشاره فى دول البلقان بالرغم من ادانتهم لوسائل الاحتلال والقمع والسيطرة التى قام بها الجيش لشعوب البلقان والتى تخصصت أجهزة الاعلام الغربية فى تصويرها • فالاسلام يفتح البلاد ، وينشر الحرية والعدالة والمساواة • ويصاهر المسلمون الشعوب ويختلط دماؤهم بدمائهم ، ويتوحدون بتاريخهم ، ويصبحون جزءا منهم الى أن يتحولوا الى تاريخ البلاد الطبيعى •

٤ ـ مقاومة شتى أنواع الاستعمار الغربى فى شمال افريقيا . والصمود أمام القوى الغربية فترة طويلة بالرغم من ضعف الدولة وقوة الغرب • بل ظهرت بطولات الجيش التركى فى المقاومة وركوب البحار وقيادة الاساطيل • كما استطاعت الوقوف أمام مؤامرات الغرب لتفتيت عرى الوحدة والدفاع عن أطراف الامبراطورية العثمانية •

٥ ـ الحفاظ على التراث الاسلامى ، وجمعه وتصنيفه ، وشرحه وتمثله حتى أصبحت « الكتبخانة » العثمانية وريثة « خزانات » العراق والشام ومصر والمغرب • وأصبحت مساجد تركيا دورا لحفظ المخطوطات مثل مسجد أحمد الثالث • والحفاظ على التراث لايقل أهمية عن الحفاظ على الارض والامة • وما تاريخ بنى اسرائيل ببعيد •

٦ ـ بدايات التحديث والاصلاح داخل الامبراطورية العثمانية من داخل الاسلام وليس من خارجه ، فقد ظهر المصلحون مثل الافغانى يريدون نهضة تركيا حفاظا على الخلافة ودفاعا عنها ضد أطماع الاستعمار الغربى والهيمنة الشرقية والحركات الانفصالية • والتغيير من

الداخل مع الاتصـال أكثر بقاء ودواما من التغيير من الخارج مـع الانقطاع .

ومن ثم أصبح حال الاسلام فى قلوب المسلمين اليوم فى تركيا كالآتى :

١ — حنين الى الماضى ، وظهور الاسلام السلفى . ونفور من الثورة الكمالية وكأن الاجداد كانوا على حق أكثر من الاحفاد ، ينشرون التراث ويبحثون الدراسات الاسـلامية ، وينتسبون الى الاسـلام كحضارة وان استحال انتسابهم اليه اليوم كدولة . ويظهـر ذلك فى الازدحام على المساجد وعلى الحج وعلى التمسك بشعائر الاسلام والحرص على الهوية الاسلامية والاعتزاز بكونهم مسلمين أكثر من اعتزازهم بكونهم أتراك .

٢ — ظهور تيارات الاصلاح : وحركات الاسلام المستنير التى ورثت الحركات والتيارات الاصلاحية التى وجدت أثناء الخلافة . وظهور بوادر جديدة للتغير الاجتماعى من الداخل بتطوير القديم ونقده . والعودة الى طبائع الاشياء بدلا من التقدم المزروع من خارج الجسد القائم على أساس من التقليدية والمحافظة وكما هو الحال فى بولندا بين المسيحية كأساس والماركسية كغطاء فوقى .

٣ — ظهور التيارات الوطنية التركية التى تدافع عن الوطن ضـد الاستعمار الامريكى ، وهى الوطنية الاصلية ، فى مقابل القومية على النموذج الغربى ، وما أيسر أن تتحد هذه الوطنية بتراث الامة وهـو التقليد الشائع فى مصر والمغرب والشام وعند الافغانى واضع شعار

مصر للمصريين ، والحزب الوطنى عند مصطفى كامل ، والطهطاوى والكواكبى وكل زعماء الاصلاح •

٤ ــ بدايات الاسلام الثورى والنهضة الاسلامية النشطة وظهور الاسلام السياسى كتيار أساسى خاصة بعد الثورة الاسلامية فى ايران، وامكانية هــذا التيار فى الجمع بين التيارات الاســلامية الاصلاحية والاتجاهات اليسارية الجذرية والاتجاهات الوطنية ، وبالتالى تتحقق وحدة الامة فى الاسلام والثورة وفى التراث والتجديد •

٥ ــ رفض التغريب والاحساس المتزايد بسلبيات الثورة التركية، واكتشاف مخاطر القومية التى مزقت الدولة وقضت على وحدة الامه، والدفاع عن صورة تركيا الاسلامية التى طالما شوهها الغرب فجعلهــا مرادفة للتعصب والجهــل والخرافة والجنس والحــريم والدسائس والمؤامرات والقسوة •

٦ ــ العودة الى وحدة الامة الاسلامية والتقارب مع العــرب وقطع العلاقات مع اسرائيل وتفهم العرب لقضية قبرص التى فتحهــا المسلمون أيام عمر بن الخطاب والتى كانت اسلامية مئات السنين ؛ ومازالت لتركيا فى قلوب العرب مكانة خاصة فى حياة الناس اليومية •

ثامنــا : خاتمــة

ان الاســلام فى مطلع القــرن الخامس عشر الهجرى فى قلوب المسلمين ليستأنف دورة جديدة بدأت فى الاصلاح الدينى فى القــرن الماضى على يد الافغانى ، دورة بعث جديدة ، يتحول فيها الاسلام من مشاعر تربط الامة الى طاقة مولدة لحركة الجماهير الاسلامية فتتغير

نظمها القائمة بعد أن ظهرت حدود الايديولوجية الغربية العلمانيه والقومية الليبرالية . لقد انتشر الاسلام فى أوله بين قوتين كبيرتين : الفرس والروم . وانتصر عليهما واحتواهما . وافترش أرضهما . وتمثل ثقافتيهما ، وعرب شعوبهما كقانون للتاريخ . فقد كان الاسلام تحمله طليعه ثورية استطاعت تجنيد الجماهير الاسلامية والتحرك نحـــو تحقيق رسالة التوحيد بينما كان الفساد والتفكك يدب فى عرى القوتين الكبيرتين فى ذلك الوقت بقادة تتمتع بمظاهر الحكم والبذخ تحـكم أغلبية مطحونة وبتوجيه من عقائد عنصرية وقومية .

ان امكانيات الامة الاسلامية لا حدود لها سواء فى الفكر أو فى الواقع . فلديها « التوحيد » كعنصر جامع وعامل موحد . ينبثق عنه نظام يكفى المسلمين فى تنظيم حياتهم . كما أن لديهم ثروات فى باطن الارض . ومواقع جغرافية . وامكانيات بشرية . وتاريخا طويلا يؤهلها الى أن تبعث من جديد فى دورة ثانية للتاريخ أمام قوتين عظميين : الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة حيث بدأت فى الاولى أصـوات المعارضة ، والاضطرابات ، والتخلى عن الايديولوجية الثورية الاولى، وتحكم مصلحة الدولة دون مقتضيات الثورة . وبدأت فى الثانية أزمة الرأسمالية فى الانتاج والموارد الاولية والتسويق والطاقة وفى المشروعات القومية والاستراتيجيات الحضارية والمبادىء العامة والقيم . وبـدأ المفكرون يحذرون من انهيار الغرب ، وانتحار الغرب ؛ وأزمة المجتمع الصناعى المتقدم ، ونهاية المجتمع الاستهلاكى . فعاصر المسلمون اليوم بوادر انهيار القوتين العظميين فى نفس الوقت الذى بدت فيه بوادر نهضة المسلمين الثانية . فأصبح المسلمون اليوم فى نقطة تحول فى تاريخ البشرية كلها .

ولكن التاريخ لايتحرك من تلقاء نفسه • ولايتحرك الا بتدخل العنصر البشرى فيه من خلال عمل الافراد وحركة الجماهير والا أصبحت قوانين حركة التاريخ فارغة بلا مضمون • وقد بدأ المسلمون فى أجيالنا هذه تحويل امكانياتهم الحضارية والمادية الى عمل وحركة ونشاط وممارسة ، يدفعون حركة التاريخ ويجعلون أنفسهم مادة قانونه ومضمون صراعاته •

ان الاسلام قادر على أن يعطى المسلمين الهوية السياسية • وأن يمدهم بنظام اجتماعى يجدون فيه خلاصهم مما هم فيه من ضنك وبؤس وفقر ، ونظام عقائدى يحيلهم من بعد خوفهم أمنا ، وينقلهم من التخلف الى التقدم ، ومن الثبات الى الحركة ، ومن الوراء الى الامام ، ومن الخلود الى التاريخ •

ولقد كانت آسيا بالنسبة الى الاسلام ، رصيده البشرى فى بداياته الاولى • وهى أيضا كذلك فى بداياته الثانية • ففى آسيا يسود التوحيد الطبيعى ، وتنتشر فكرة « الوحدة » فى جميع دياناتها ، وحيث توجد الدولة فى شعور الجماهير ،فالمواطن يؤمن بالله،وينتسب الى دولة ،ويظهر الزعماء والقادة من أجل تحويل فكرة الواحد الى دولة على الارض بفعل الجماهير • لذلك كان تراث تيمور وجينكزخان وهولاكو تراثا وطنيا فى آسيا الوسطى ممثله فى « أوزبكستان » أى الواحد الذى يحرك الجماهير مرة الى الشرق الى حدود الصين ، ومرة الى الغرب المشرق العربى • كل ذلك يجعل من آسيا ومما تمثله من روح وطبيعة ، وثقافة وحضارة ، وتاريخ وتراث قومى فى مقابل أوربا التى طالما غزت المسلمين فى تاريخها الحديث •

يستطيع المسلمون فى مطلع القرن الخامس عشر أن ينهض طائرهم من جديد بجناحهم الاسيوى فى الشرق وجناحهم الافريقى فى الغرب وجسده فى العالم العربى ، وقلبه فى مركزه • فلربما نهض العالم كله معه ، فيصبح المسلمون كما كانوا صناعا لبشرية جديدة •

نشأة الاتجاهات المحافظه فى وطننا العربى الراهن

أنه ليعز على الانسان حقــا مصير الثورة العربية فى مصر • فقد بدأ الامل فى قلوبنا جميعا منذ حوالى ربع قرن من الزمان . وتوالت انتصاراتنا ، الواحد تلو الآخر ، منذ القضاء على الملكية . وانسحاب جيوش الاحتلال ، وتأميم قناة السويس ، واندلاع ثورة العراق فى تموز / يوليو ، وانشاء أول محاولة وحدوية فى تاريخ العرب الحديث ، الجمهورية العربية المتحدة ، ثم قوانين يوليو الاشتراكية فى ١٩٦١ ، ثم الوقوف أمام الاحلاف الاستعمارية ، حلف بغداد قديما والحلف الاسلامى حديثا • ولكن اتت هزيمة حزيران / يونيو كأكبر صدمة فى تاريخ العرب الحديث بعد ضياع فلسطين ونشأة اسرائيل فى أيار / مايو ١٩٤٨ •وظننا أن شباب الثورة العربية قد عاد بثورة الفاتح من أيلول / سبتمبر ١٩٦٩ فى ليبيا • ولكن اختفاء عبد الناصر عن الساحة العربية منذ عشر سنوات تقريبا جعلها تخوض معركة البقاء دون زعامة قادرة على توحيــدها واستمرار نضالها •

ثم بدأت المصائب تتوالى ، وذلك ابتداء من القضاء على اليسار الناصرى فى مايو ١٩٧١ فى الدولة وفى الحرب ، ثــم الانفصــال عن الحليف التقليدى للثورات العربية بطرد الخبراء السوفييت من مصر فى ١٩٧١ ، والوقوع فى أزمة التسليح ، ثم عدم استثمار حرب تشرين

قضايا عربية ، يناير ١٩٨٠ •

الاول / اكتوبر وضياع نتائجها والتلاعب بها على مسرح السياسة الدولية ، ثم بداية الانفتاح الاقتصادى وضياع الانجازات الاشتراكية، ثم تكوين جسور بين مصر واسرائيل من خلال الاشتراكية الديموقراطيه وبمساعدة الاشتراكية الدولية حتى يتم تجاوز التناقض بين القومية العربية والصهيونية من خلال وحدة المذهب السياسى . ثم زيارة القدس . واخيرا الصلح مع اسرائيل والاعتراف بوجودها والتسليم بالصهيونية كفكرة وكواقع ، والاراضى العربية مازالت محتلة ، والاطماع التوسعية الصهيونية مازالت قائمة نظرا وعملا ، وحقوق شعب فلسطين مازالت شعارا خافتا . ومن يدرى ماذا يخبىء لنا القدر فى السنوات القادمة : والى أى مدى تنحسر اليه الثورات العربية ؟

ويبدو أن هناك خطة دولية لمعاقبة المنطقة وللتكفير عن الناصرية ومعاداتها للاستعمار والرأسمالية والصهيونية والرجعية ومحاولتها تحقيق مشروع قومى يقوم على الحرية والاشتراكية والوحدة ، وكأن المراد هو الايعاز الى شعوب المنطقة بأنه خلال الثورات العربية تحت زعامة ناصر ، خسر الوطن العربى أكثر مما كسب ؛ واحتلت أراضيه . ولن يكسب الوطن العربى وتتحرر أراضيه الا بعد التخلى عن مشروعه القومى فيصبح مواليا للاستعمار وحليفا للصهيونية . وعميلا للرأسمالية الدولية : تحت زعامة الرجعية العربية . وتبدو لنا الناصرية اليوم التى كنا نعانى أيضا من مثالبها وعلى رأسها غياب الحرية والديمقراطية وكأنها ازهى فترات حياتنا ، وكأنها الآن بالنسبة لنا مطلبا بعيد المنال : نتمنى تحقيقه من جديد أو الرجوع اليه اذا ما عاد التاريخ الى الوراء .

وتحت السطح تبدو المأساة أعظم . اذ انقلبت هذه الانتكاسات فى

نظم الثورة وأهدافها الى ردة أعظم فى أبنية الناس الذهنية ومكوناتها النفسية • فنشأت اتجاهات محافظة فى الحياة العامة • وأصبحت هى المسيطرة على أذهان الناس وسلوك الجماهير • تستغلها السلطات السياسية من أجل تدعيم الانتكاسات الثورية وتنظيرها حتى نتساءل • هل تنقلب الثورات العربية بعد ربع قرن من الزمان وبعد الهاب الناصرية لمشاعر ملايين العرب من المحيط الى الخليج الى عكس ما كانت تهدف اليه ؟ صحيح أنه تحدث فى الثورات انتكاسات جزئية وردة نسبية ولكن لم تنقلب الثورات الى نقيضها كما انقلبت ثوراتنا • بل انها أصبحت رائدة الثورات المضادة فى العالم ، ومناهضة لجميع حركات التحرر التى تولدت من الثورات العربية فى بدايتها •

والسؤال الآن : ماهى أصول الاتجاهات المحافظة السائدة فى عالمنا العربى الراهن خاصة فى مصر ، وماهى أسبابها ومصادرها ؟ ليس السؤال المطروح هو أيهما اسبق الانتكاسات الثورية فى الواقع العملى أم الاتجاهات المحافظة فى الابنية النظرية ، أيهما علة وأيهما معلول ؟ بل السؤال هو كيف نشأت هذه الاتجاهات المحافظة فى وعينا القومى بالرغم من وجوده فى ثورة دامت حوالى ربع قرن من الزمان ؟ واذا كان لابد من الاجابة على السؤال التقليدى عن العلة والمعلول فاننا نرى ان وجود القوالب الذهنية والمكونات النفسية الموروثة التى لم تتغير بتغير الانظمة الاجتماعية الخارجية هى التى دفعت بالاتجاهات المحافظة للظهور فى اللحظة التى اختفت فيها الزعامة الثورية ، وكأن ثورية القمة تستلزم بالضرورة ثورة القاعدة ، وكأن أخطر ما يهدد أية ثورة هو ثورية السلطة وتقليدية الجماهير •

ويمكن تحديد نشأة الاتجاهات المحافظة فى الوطن العربى الراهن وخاصة فى مصر بأربعة مصادر ساهمت جميعها متجمعة فى نشأة هـذه الاتجاهات فى حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وفرضت نفسها علينا فى حياتنا الخاصة والعامة •

أولاً : المحافظة الدينية :

لاتعنى المحافظة الدينية ان الدين يحتوى على المحافظة بل يعنـى نشأة المحافظة بسبب وضع الدين الذهنى والاجتماعى والسياسى وذلك ان الدين فى البلاد النامية هو تراثها الشعبى الذى يمدها بقيمها ويحدد أنماط سلوكها ، وهو يقوم بنفس الدور الذى تقوم به الايديولوجيات فى البلاد المتقدمة • فالدين هو مورث نفسى عند الجماهير يوجهها ، ويحدد تصوراتها للعالم ، ويعطيها بواعث للسلوك • ولقد أتت الثورة منذ ربع قرن بالمبادىء الستة : القضاء على الاستعمار ، والقضاء على الملكية ، والقضاء على الاقطاع ، واقامة جيش قوى ، واقامة عـدالة اجتماعية ، واقامة حياة ديموقراطية سليمة • وظلت هذه المبادىء الستة بلا أساس دينى صريح ، تعبيرا عن الامانى الوطنية لكافة الفئـات الاجتماعية • واكتفت مواثيق الثورة وعلى رأسها « الميثاق » ببيان أن الدين فى جوهره حركة تقدمية تهدف صالح الانسان وخير الجماعة دون أن تطور المفاهيم الدينية وتجعلها حاملة لاهداف الثورة • فظل الدين قائما فى وجدان الناس بلا تحديث من الداخل ، وبلا تغيير للقوالب الذهنية التقليدية • فكان من السهل بعد أن يضعف المـد الثورى ويبدأ الجزر المضاد للثورة ، بعد ان تغيب الزعامة الثورية وتحل محلهـا زعامة مضادة للثورة أن تظهر الاعماق التقليدية بعد غياب السطح الثورى ،

وان تنطلق القوالب الذهنية والمكونات النفسية الدينية الموروثـة فى غياب الرقيب الثورى فتظهر المحافظة وتبدو للعيان . فهى لم تنشأ من عدم،ولم تتخلق بفعل اللحظة ،ولكنها كانت موجودة بالفعل كتيار تاريخى أساسى سائد منذ أكثر من الف عام منذ انتهاء عصرنا الذهبى القديم واختفاء العقلانية التى مثلها الاعتزال منذ القرن الثالث الهجرى وضياعه بعد المحنة ، وبعد هدم الغزالى للعقل فى القرن الخامس والقضاء عليه قضاء مبرما . ولم تفلح بارقة ابن رشـــد فى اعادة التيار نظرا لبعده عن قلب العالم الاسلامى فى الاندلس ، ذلك الصقع البعيد ، ونظرا لحصار ابن رشد ذاته من الفقهاء ، وتحريم كتبه . ولم تنتج البارقة الا فى الغرب عند الرشديين اللاتين . نشأ المذهب العقلانى الطبيعى فى العصر الوسيط المتأخر والذى أصبح فيما بعد أحد روافد النهضة الحديثة فى الغرب . لم تنجح الثورة اذن فى معالجة هذه المحافظة الكامنة لانها لـم تحاول على الاطلاق وتركتها راسخة فى نفوس الناس حتى عادت من جديد وبشكل طبيعى فى الظهور بعد انحسار المد الثورى باختفاء الزعامة الثورية وتغييرها بزعامة محافظة ، فظهرت المحافظة الكامنة متفقة مع المحافظة الظاهرة ، وحدث الوئام بين محافظة القاعدة ومحافظة القمة . وامتدت المصالح بين المحافظة كمكون نفسى عند الناس مع المحافظة فى قمة السلطة السياسية . وهو مايفسر التأييد الشعبى لكل ماتفعله السلطة السياسية بصرف النظر عن نوعية القرار حربا كان أم سلاما ، اشتراكية كان أم رأسمالية ، ثورة كان أم ثورة مضادة .

لم تفعل الثورة أكثر من أنها استخدمت الدين دفاعا عن ذاتها . وتثبيتا لاركانها . فقد ذهب عبد الناصر والضباط الاحرار معه بعـد اندلاع الثورة الى رجال الازهر طلبا لتأييدهم طبقا لتاريخ مصر منـــذ

الحملة الفرنسية وتعاون رجال الجيش مع علماء الدين فى مواجهه الاحتلال الاجنبى • ثم استعمل عبد الناصر تاريخ الاسلام بعد ذلك أيام الوحدة مع سوريا من أجل بيان أن وحدة مصر وسوريا كانت هى الدرع الحامى لحمى الاسلام أثناء الحروب الصليبية فى وقت لم تكن القومية العربية قد تحولت الى ركن رئيسى فى ايديولوجية الثورة المصرية • وأخيرا استعمل عبد الناصر رجال الدين بعد قوانين يوليو الاشتراكية سنة ١٩٦١ ، للدفاع عن الاشتراكية باسم الاسلام بعد ان شنت السعودية حملة شعواء على الناصرية التى تمثل بالنسبة لها خطرا على العرش وتهديدا مباشرا للنظام الملكى وبديلا أمام الجماهير العربية فى السعودية وخارجها عن الاقطاع العائلى • قابل عبد الناصر الهجوم على الاشتراكية باسم الدين من خارج مصر بالدفاع عن الاشتراكية باسم الدين من داخل مصر ، وجند لذلك علماء الازهر وائمة المساجد واساتذة الجامعات ورجال الصحافة والاعلام بوجه عام وخرجت عشرات الكتب ومئات المقالات عن الاشتراكية والاسلام • حدث ذلك كله بين ١٩٦١ : ١٩٦٤ • فلما هدأت الهوجة وتمت المصالحة بين السعودية ومصر : وبين فيصل وعبد الناصر ، انتهى الجدل • ظلت معركة الاسلام والاشتراكية معركة بين نظامين ، وصراعا بين زعيمين ، كل منهما يستأجر عماله ، يصدرون لهما مايودان من فتاو • ومجموع الشعب لايهمه الامر فى شىء • فقد كانت معركة احترافية مهنية من أجل الصراع على السلطة والحفاظ على الزعامة ولكن لم تتحول الجماهير فى مصر الى اسلامية اشتراكية ولا فى السعودية الى اسلامية رأسمالية ، وظلت الجماهير فى كلا البلدين محافظة تقليدية بنفس القوالب الذهنية القديمة ، ونفس المكونات النفسية الموروثة • وهو ماسمى فيما بعد ، بعد اختفاء الزعامة الثورية

الاسلام العقائدى الشعائرى الغربى الرأسمالى • والحقيقة أن الامر ليس كذلك • بل ظهر الاسلام التقليدى فى مصر بعد اختفاء الزعامة فى مصر التى مثلها عبد الناصر ، بانتشار الاسلام السعودى فى مصر الثورية وتقابله مع الاسلام التقليدى فى السعودية وفى ارجاء اخرى من العالم الاسلامى قبل اندلاع الثورة الاسلامية التقدمية فى ايران •

بل ان الثورة قد اصطدمت مع الاتجاهات الدينية التحديثية مثل الاخوان المسلمين بسبب الصراع على السلطة وليس بسبب اختلافهما فى تفسير الدين • فقد كان هناك اتصال وثيق بين الضباط الاحرار والاخوان المسلمين قبل الثورة ، وكان الاخوان على علم بالثورة قبل وقوعها ، وكان الاتفاق ان يقوم الاخوان بحراسة المبانى والمنشآت العامة والسفارات والمصالح الحكومية ليلة الثورة وبعدها ، وان يقدموا للثورة بعد نجاحها كل عون شعبى ممكن • بل كان نصف مجلس قيادة الثورة الاثنى عشر ممن كان له صلة مباشرة أو غير مباشرة بالاخوان • وكان الاخوان يتلقون التدريب العسكرى على يد الضباط الاحرار ، والضباط الاحرار يتلقون المشورة الوطنية من الاخوان • ولكن كان الصراع على السلطة هو المقتل الذى فرقهما وأدى بهما الى الصراع قبل اندلاع الثورة عندما اراد الاخوان ضم الضباط الاحرار وجعلهم شعبة عسكرية للجماعة • ورفض عبد الناصر ذلك واعتبره وصاية على تنظيمه المستقل • ثم نشأ الصراع بعد الثورة عندما اراد الضباط الاحرار الاستئثار بالحكم والانفراد بالسلطة • فلما قاوم الاخوان معاهدة الجلاء سنة ١٩٥٤ التى كانت تعطى لبريطانيا حق العودة الى منطقة قناة السويس واستعمال المطارات المصرية فى حالة الحرب حدث الصدام • وعاد الصدام فى ١٩٦٥ ، واستشهد سيد قطب

كما استشهد من قبل عبد القادر عودة • وكان كلاهما يناط به التحديث • التحديث الفكرى والاجتماعى عند سيد قطب خاصة فيما يتعلق بالعدالة الاجتماعية فى الاسلام ، والاسلام بين الرأسمالية والاشتراكية ، والاسلام والسلام العالمى ، والتحديث القانونى التشريعى عند عبد القادر عودة خاصة فيما يتعلق بالتشريع الجنائى فى الاسلام • انتهت امكانية التحديث عند الاخوان بالقضاء على الامامين المذكورين ، واستحالة تطوير الدعوة سواء عند الرائدين أو عند تلاميذهما ونشأة يسار اسلامى داخل الدعوة • وظلت الدعوة على مدى ربع قرن ، وهو عمر الثورة ، اسيرة الجدران ، ينمو فكرها فى ظلمات السجون ، فتحجر وتعصب وتصلب وحقد ، وانزوى وانطوى وكفر كل مخالفيه • وأصبح بينه وبين الناصرية ثأر شخصى تستحيل معه المصالحة أو المغفرة • ومن ثم قويت المحافظة الدينية بهجوم الثورة عليها ، وأصبح بين الدين والثورة عداء مستحكم وثأر لا يمحوه الا الثأر بانقضاض الدين على الثورة كما انقضت الثورة على الدين •

وقد سمحت خلافة عبد الناصر بهذا الانقضاض نظرا لتشابك المصالح بين هذه الخلافة والاخوان ، فكلاهما يود محو الناصرية ، ومن ثم ظهر الاخوان واستأنفوا نشاطهم العلنى • وتغاضت السلطة عن الامر مادام فى عداء كليهما للناصرية صالح مشترك ، بل واستعملت السلطة الدعوة الاسلامية على يد الجماعة الاسلامية ، الشكل التنظيمى الجديد للاخوان لضرب الناصرية وجميع الاتجاهات التقدمية • ونجحت فى ذلك فى الجامعات وبين الشباب ، دون ان تعى الجماعة الاسلامية دروس الماضى ورفض الاخوان الدخول فى جبهة وطنية أثناء لجنة الطلبة والعمال فى ١٩٤٧ ضد القصر والانجليز بل عادى الاخوان هذه

الجبهة فتفتتت الوحدة الوطنية • ولو أن محاولات الجبهة قد عـادت لفترة قصيرة أثناء أزمة مارس / أذار ١٩٥٤ ولكن الثورة سـارعت بالانقضاض على الفريقين اليسار الماركسى واليمين الدينى حتى تخلو لها الساحة الوطنية • وقد تم لها ذلك بالفعل حتى انتفاضة اليسار الماركسى من جديد فى ١٩٥٩ أثنـاء معركة عبـد الناصر وخروتشـيف وانتفاضة اليمين الدينى فى ١٩٦٥ • ولما تم للنظام الجديد فى مصر بعد عبد الناصر ضرب اليسار باستعمال الجماعة الاسلامية حتى كادت أن تختفى الناصرية والتقدمية بين الشباب بعد أن كانت مزدهرة فى أوائل السبعينات ، وبعد توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل ، وبعـد ثورة ايران ، شعرت السلطة بخطورة الجماعة الاسلامية فتوجهت اليها بالتحريم والقمع ، وأصبح أصدقاء الامس أعداء اليوم ، وعاد الامر كما بدأ فى أول الثورة تحريم الاتجاهات الاسلامية المناوئة للنظام القائم •

ونظرا لعدم رغبة الجماعة الاسلامية فى الدخول فى معارك مبكرة مع النظام القائم بعد تعلمها الدرس من حكم عبد الناصر ودخول الاخوان معه فى معركة مبكرة اطاحت بالدعوة اكثر من ربع قرن فقد ركـزت الجماعة على الدين الشعائرى • الصلاة والصيام والزكاة والحـج • والمطالبة بمصليات بالجامعات وبالزى الاسلامى واطالة اللحى ، وآذان الصلوات ، والصلوات الجماعية حتى ولو أثناء المحاضرات ، وتحرير مجلات الحائط واليافطات الاسلامية ، واقامة معارض الكتب الاسلامية أو دعوة بعض المحاضرين من أئمة الاخوان السابقين أو من المشايخ المعاصرين لالقاء بعض المحاضرات عن الاسلام • فالمحافظة الدينيـة هنا ، وان كانت هى الاساس الفكرى للاتجاهات الاسلامية ، أصبحت أيضا خطة مقصودة من أجل موالاتها للسلطة وموالاة السلطة لهـا •

هذا بالاضافة الى أن الاسلام المظهرى أكثر جذبا للانظار ولجـــذب الشباب الذى تستهويه المظاهر من أجل الاعلان عن الذات وتأكيدها فى غياب أية ايديولوجية أخرى مطروحة بعد حصار الناصرية والتقدمية فى الجامعات • وبدت الاتجاهات الاسلامية مسيطرة على الشباب نظـرا لنشاط الصفوة منها ونظرا لعدم وجود أى بديل آخر مطروح • ومـع ذلك ظلت دائرة منعزلة لاتحظى بتأييد جماهيرى وان بدت أكثر مما هى عليه فى واقع الامر •

وفى هذا الجو الذى تغيب فيه الممارسة السياسية السوية للجميع ، وتنقصه روح الديموقراطية والتعبير عن الرأى الحر ، وفى غياب أيـة أيديولوجية تقدمية بدأت المزايدة فى الايمان وظهرت الجماعات الدينية المتطرفة ، تستعمل نفس السلاح الذى تستعمله السلطة وهو تكفير فرق المعارضة ، والدعوة الى تطبيق الشريعة الاسلامية : والتركيز على الايمان ضد الالحاد ، والاكثار من مظاهر الهوس الدينى فى أجهـزة الاعلام • خرجت جماعة « التكفير والهجرة » كجناح يمينى للجمـاعة الاسلامية التى هى فى أصلها الجناح اليمينى لجماعة الاخوان لتقسـم المجتمع الى قسمين مجتمع الايمان ومجتمع الكفر : وتطالب بتكوين مجتمع المؤمنين خارج مجتمع الكفار ، وتحرم تعامل الاول مع الثانى . وتكون جماعة مغلقة تدين بالطاعة المطلقة لامير الجماعة ولا ترى حرجا فى التصفيات الجسدية للخصوم ، وتطبق شريعة المجتمع المغلق ، فى أحكام المصاهرة والمعاملات المدنية •

توقف التحديث الدينى فى عمر الثورة على مدى ربع قـرن ، ولم يستمر الاصلاح الدينى أو يتطور منذ مائتى عام • وانقطع ماأراده حسن البنا من استمرار لجريدة المنار بعد وفاة مؤسسها رشيد رضـا

فى سنة ١٩٣٥ • وبعد ان ارتفع قوس الاصلاح الدينى على يد الافغانى ومحمد عبده والكواكبى هبط من جديد على يد رشيد رضا وحسن البنا والجماعة الاسلامية • بل اننا تراجعنا عن مكتسبات الاصلاح ، فعدنا اشعرية فى التوحيد والعدل بعد ان استطاع الاصلاح ان يكون معتزليا فى العدل مثبتا قدرة العقل على الوصول الى حقائق الامور ، والتميز بين الحسن والقبيح . ومثبتا القدرة على الافعال . والاختيار الحر ، ومؤكدا قانون الاستحقاق • تراجعنا عن ربط الافغانى العقائد بحياة الشعوب ، ومحاولته اعادة بناء العقائد بحيث يستطيع بها مواجهة الاستعمار والتخلف والطغيان وتحقيق رقى الشعوب وتقدمها • وتراجعنا عما بدأه الكواكبى من رفض للفتور عند المسلمين والوقوف أماه الاستبداد والاستعباد • وعادت المرأة متحجبة . وعاد الصراخ الى الحكم الدينى بعد ان قطعنا شوطا طويلا من الليبرالية والاتجاهات العقلانية ، والدعوة الى أقامة الدولة الحديثة على الحرية والديمقراطية ، والدستور والحياة النيابية • وتركنا الوطنية بعد ان خرجت الوطنية من جبة الافغانى فهو الذى وضع شعار « مصر للمصريين » ، وبعد ان خرجت ايضا من عمامة الطهطاوى وهو واضع شعار « حب الوطن من الايمان » • رجعنا الى الجماعة الدينية التى تلفظ الوطنية والقومية وتعتبرها هرطقات وكفرا وتبعية للغرب •

أما المؤسسات الدينية فانها ظلت على ماهى عليه منذ انتهاء الخلافة الاسلامية وبداية الدولة الاموية • يقطنها رجال الدين ويأتمرون بأمر السلطان رهبة أو رغبة ، خوفا أو طمعا حتى تحولوا أيام المماليك الى موظفين رسمين فى الدولة ففقدوا استقلالهم كلية ، وفقدوا شروط الاجتهاد والاستفتاء • ولم تنفع المحاولات الفردية للرفض والطاعة النظام

فما جزاء هؤلاء الا الفصل أو التعذيب . وبالتالى فقد رجال الدين قدرتهم على التحديث . ولما كان فاقـد الشىء لا يعطيه فقـد بشروا بالاسلام العقائدى الشعائرى ، فانتشر الاسلام المظهرى لدى الناس ، وانحسر الدين عن حركة الشارع . وقد تبنت السلطة أخيرا هـذا الموقف رسميا فأعلنت انه لاشأن للدين بالسياسة أو السياسة بالدين ، فالدين للعبادة والسياسة لرجال السياسة ، وعلى أكثر تقدير يكـون الدين عقيدة أى فلسفة نظرية لاشأن له بالممارسات العملية . فـاذا انحسر الدين عن الحياة مات واندثر ، وتحولت المحافظة الى تخلف والى مجرد مأمن متحفى . وجاء التحذير لرجال الدين اياكم أن يظهر فيكم خمينى ! وانتشر خبر فى الصحف عن نية الحكومة رفع مرتبات رجال الدين بعد انتصار الثورة الايرانية فى ايران حتى لو فكر أحدهم فى حذو المثل أعيد شراؤه واستيعابه داخل المؤسسة الدينية . كما تقوم هذه المؤسسة بادانه كل من يخرج على النظام سواء باسم الدين أو باسم الشعب ، وتنتقى من التاريخ الاسـلامى الشواهد التى تؤيد قرارات السلطة السياسية ، وتستخرج من القرآن والحديث مبررات لكل مايفعله النظام السياسى خاصة اذا ماكان فى حاجة الى مثل هـذه المبررات حين يبدأ الهجوم عليه من الخارج كما حـدث بعـد زيارة القدس ، ومعاهدة كامب دافيد ، وأخيرا معاهدة السـلام بـين مصر واسرائيل . فبالرغم من ان الصلح مع اسرائيل محرم شرعا نظـرا لاحتلالها اراضى المسلمين الا ان رجـال الدين سرعان ما أخرجـوا « وان جنحوا للسلم فاجنح لهـا » دون حتى معرفة بمعنى الشرط ، واسقاطه ، وجعل السلم بلا قيد أو شرط . وبالرغم من أن المؤسسة

الدينية لاتحظى بأية ثقة شعبية : يتهكم الناس عليها ويتندرون برجالها نفاقا وتخلفا وفسادا الا انها ظلت سلاحا تستعمله الاتجاهات المحافظة سواء فى السلطة أو خارجها ضد كل الاتجاهات التقدمية المعارضة .

ثانيا : المحافظة العلمانية :

تعنى المحافظة العلمانية المحافظة التى نشأت بسبب انتشـار العلمانية فى ثقافتنا المعاصرة وعدم استجابة وعينا القومى لها استجابة كاملة ، فى نفس الوقت التى تحاصرها فيه أجهزة الاعلام ، وتنـدد بها السلطة ، وتتهمها بالكفر والالحاد ، وتعتبرها افكارا مستوردة لاتعبر عن قيمنا وترابنا وأرضنا وتاريخنا وتراثنا . فقـد حدث أن انتشرت افكار الحرية والديموقراطية والاشتراكية منذ بداية التيار العلمانى الغربى فى فكرنا الحديث على يد شبلى شميل وفرح انطون وأديب اسحق ونقولا حداد ويعقوب صروف وولى الدين يكن واسماعيل مظهر وسلامة موسى . ومن الاحياء د. زكى نجيب محمود وفؤاد زكريا وجميع ممثلى روافد الفكر الغربى فى حياتنا المعاصرة الذين استطاعوا الانتشار خارج الجامعات واحداث تأثير على الشعوب والترويج لهذه التيارات الغربية باعتبارها تمثل حركات اصلاحية تحديثية مثل العلمية (د. فؤاد زكريا) والوضعية المنطقية (د. زكى نجيب محمود) والوضعية الاجتماعية (عبد العزيز عـزت) والماركسـية (د. الطيب تيزينى ، د. صادق جلال العظم) والوجودية (د. عبد الرحمن بدوى وزكـريا ابراهيم) والشخصانية (د. الاحبابى ، حبشى) وفلسفة الظـواهر (أدونيس) ... الخ . لم تستطع كلها أن تؤثر على الجماهير بنفس الدرجة ، ولم تستطع كلها ان تتحول الى فكر شعبى بنفس القوة ، وظل اشهر التيارات ، العلمية الوضعية والماركسية . أما المثالية الغربية فلم

يحدث رد فعل عليها نظرا لانها تقوم على الدين والايمان وتؤمن بما وراء الطبيعة وخلود النفس . وتنحو نحوا صوفيا حدسيا اشراقيا بما يتفق وعقائد الجماهير وتراثهم الشعبى • ولكن الاشكال كان مع التيار العلمى الوضعى . والتيار الماركسى •

يبدو اذن أن التحديث من الخارج عن طريق مذاهب منقولة عن الغرب يسبب سرعة حصارها وتشويهها والقضاء عليها بعد تحديد أثرها واتهامها بالكفر والالحاد أو الشيوعية • صحيح ان الحضارات تتفاعل فيما بينها • وقد أخذنا قديما وأعطينا من الحضارات المعاصرة لنا واليها • بل ان الاخذ هو شرط العطاء • فلولا الصياغات العقلية اليونانية لعقليننا الاسلامية القديمة ما استطعنا ان نعطى للغرب عقلانيتنا المتميزة فينهض ويتحرر من عصره الوسيط الايمانى • ولولا أخذنا من الهند الحساب والاعداد لما استطعنا أن نعطى للغرب الجبر وحساب المعادلات • ولولا أخذنا من أبوقراط وجالنيوس الطب لما استطاع أن يعطى ابن سينا وابن رشد للغرب الطب العربى • ولكن القدماء كانوا يعيشون فى مجتمع متقدم . وكانوا على ثقة بحضارتهم وبأنفسهم وبانتصارهم ؛ فلم يتورعوا عن الانفتاح الثقافى على الحضارات الاخرى ، وتمثلوا . وخلقوا • ولكن الامر يختلف اليوم • فنحن نعيش فى مجتمع متخلف مهزوم ، فاقد الثقة بنفسه ، يأخذ أكثر مما يعطى ، وينقل أكثر مما يخلق ، فكان من الطبيعى ان تقوم المحافظة الاساسية فى وجدان الشعب المستمرة منذ أكثر من ألف عام بأن تلفظ هذه الاجسام الغربية المنقولة قسرا : دفاعا عن الارحام ؛ وحرصا على الاصالة ، وتأكيدا على النقاء والشمول • وكلما زاد المنقول وظهر أثره اشتدت حركة الرفض له ، وزادت المحافظة قوة وعمقا •

ولما كانت هذه المذاهب المنقولة محصورة فى فئات المثقفين فانها لم تتحول الى تيارات شعبية وحركات جماهيرية واتجاهات وطنية . وقد قوى من هذا الحصار عزلة المثقفين الطبيعية . وعدم وجود ثقة مشتركة بينهم وبين الجماهير . سواء فيما يتعلق بالالفاظ مثل المادية الجدلية . وقوانين الكيف والكم . وقوانين الحركة والطاقة أو فيما يتعلق بالمصادر التاريخية مثل هيجل وماركس أو نيوتن وبيكون وأينشتين . وقد قوى من ذلك أيضا نظرة الجماهير الى طبقة الافندية الذين يمثلون بالنسبة لها الطبقة الحاكمة المسيطرة على أجهزة الاعلام أو على الاقل القريبة من الحكام والتى تستعمل لغتهم والتى تستفيد أيضا من اتصالها بالسلطة فيما يتعلق باللباس المهندم ، والمسكن النظيف . والمرتب المرتفع وربما العربة الكبيرة وكل مظاهر الوجاهة الاجتماعية . قد تشعر الجماهير بالنسبة لطبقة الافندية بعقيدة نقص لا شعورية تمنع من أن تستمع اليها ، حتى ولو كان فيما تقول صالحها . كما قد يغطى المثقفون الجماهير سواء عن قصد أو غير قصد احساسا بمركب العظمة . فهم أصحاب الياقات البيضاء ، وأهل العلم ، واصحاب الحظوة لدى السلطات. وعن طريقهم تقضى المصالح ، وتتحقق الوسائط ، ويبلغ المراد . وبالتالى نشأت أزمة ثقة بين الافندية والجماهير حتى انه ليصعب أن تنشأ الزعامة بينها . فأصبح الافندية زعماء بلا جمهور ، والجماهير شعبا بلا زعامة .

فاذا ماأحست السلطة بخطر البعض الذين استطاعوا أحداث اثر على انصاف المتعلمين أو على طبقات العمال وبالتالى اتسعت دائرة المثقفين خاصة فى الجامعات التى مازالت محور الحركة الوطنية فى البلاد النامية سهل استئصالهم بالقبض عليهم . وزجهم بالسجون واتهامهم بالكفر والالحاد والترويج للمبادىء الهدامة المخالفة لتقاليد البلاد وميراثها

التاريخى . فلا تتحرك الجماهير . وكأن الامر كان صراعا على السلطة بين الزمرة الحاكمة والافندية الذين يودون مشاركتهم فى الغنيمة . وبعد مدة من الزمن يدرك المثقفون انه لا حيلة لهم امام السلطة القائمة بشروطها الا العمل من داخل النظام مما يؤكد للجماهير ان المثقفين والحكومة شىء واحد وان اختلفا مؤقتا على اقتسام الغنيمة . أو الهجرة والعمل من الخارج ضد النظام مما يؤكد انعدام الاثر على الجماهير التى لاتقرأ الصحف الاجنبية اما لعدم معرفتها بالقراءة أو لمصادرتها أو لصعوبة الحصول عليها ، وما اسهل حصار هؤلاء ايضاء واتهامهم بالعمل ضد الوطن بالتعاون مع جهات أجنبية معادية فيتم عزلهم تماما عن الجماهير . أو العيش فى صمت ، يكتب المرء ويعود الى اكاديميته الاولى التى لا يتجاوز أثرها أفرادا معدومين . أو العيش فى سلام داخل البلاد وخارجها يعيش ويدخر ، ويترك النضال للشبان ، ويكتفى هو باجترار الذكريات أو اعطاء النصح لهم اذا ما طلب منه ذلك .

وبعد فشل التحديث من الخارج أمام الجماهير تبقى الساحة الفكرية خالية أمام المخزون الفنسى الكامن عند الجماهير . فتظهر المحافظة الكامنة على السطح ، ويبدأ رفض كل هذه المحاولات أما تلقائيا أو بتحريك من السلطة.ولكن يتفجر الغضب الشعبى ضدها وبالتالى يستحيل على المثقفين التأثير أو القيادة ، وتصبح المحافظة التقليدية هى الاختيار الوحيد أمام الجماهير ، الصامد أمام جميع المذاهب الوافدة حتى ولو استغلت السلطة هذا المخزون القديم ، وبالتالى تتقرب السلطة للشعب ويتقرب الشعب للسلطة ضد التحديث من الخارج أولا وضد التحديث ككل ثانيا ، فالتناقض بين الشعب والسلطة تناقض ثانوى فى حين ان

التناقض بين الشعب والسلطة من ناحية وبين المثقفين من ناحية أخرى تناقض أساسى •

ان السبب فى سيادة المحافظة هنا يرجع الى فشل التحديث العلمانى حيث انه كان مجتث الجذور عن تراث الشعب وان كان مايحمل من أهداف مثل العلمية والاشتراكية يعبر بصدق عن مطالب الامة واحتياجاتها • ولكن هناك فرق بين ان تأتى هذه الاهداف من الخارج وبين ان تنبع من الداخل • فمثلا اذا أردنا أن ندعو شعوبنا الى تمثل النظرة العلمية فى الحياة العامة ، وتفسير الظواهر تفسيرا موضوعيا للقضاء على نظرتنا الاسطورية للعالم التى تعتمد على الوهم والخرافة، فانه يصعب الدعوة لذلك عن طريق نيوتن وبيكون واينشتين وذلك لان هؤلاء لايقبعون فى المخزون النفسى عند الجماهير ولكن يسهل ذلك عن طريق احياء التيارات المماثلة فى تراثنا القديم مثل التيار العقلانى عند المعتزلة ، والتيار الطبيعى عند اصحاب الطبائع ، كما يمكن بعث نظرات علمائنا القدامى فى الرياضة والطبيعة وتحليل رؤيتهم للعالم • كما يمكن اللجوء الى القرآن مباشرة باعتباره المصدر الاول لوعينا القومى فى دعوته الى العقل والنظر فى الطبيعة وتسخيرها للانسان • بذلك يتم التحديث ، وتتحول المحافظة الكامنة فى نفوس الناس والموروثة منذ أكثر من الف عام الى تحقيق طبيعى لمطالب الجماهير ، فنتطور من تلقاء نفسها ، ومن داخلها • فتتبخر ، وتتحول الى تقدمية فى العلم وفى المجتمع ، وتصبح المحافظة المتطورة أساس النظرة العلمية ودعامة البناء الاشتراكى • وبالتالى تتحقق أهداف العلميين والماركسيين ولكن بوسائل مختلفة • فبدل أن يتم التحديث عن طريق نقل المذاهب الغربية يتم عن طريق احياء هذه المذاهب الكامنة فى شعورنا القومى فتصبح بديلا

آخر عن المحافظة الموروثة : فتتصارع البدائل حتى ينتصر البديل الجديد باعتباره أكثر تحقيقا لمطالب الامة واكثر دفاعا عن مصالحها .

ان خطورة التحديث العلمانى من الخارج هو انكار المرحلة التاريخية التى تمر بها مجتمعاتنا واسقاط المذاهب الغربية عليها طبقا للمزاج والهوى الشخصى للافراد أو للفئات حتى أصبح واقعنا الثقافى ساحة متضاربة لجميع أنواع المذاهب الادبية والفنية والسياسية والاجتماعية ، وجعلنا من مثقفينا وأدبائنا وفنانينا وكلاء حضاريين لغيرنا . ويظن المحدثون ان الترويج لآخر المذاهب وأحدث الصيحات يجعلهم أكثر تحديثا من غيرهم فينشأ لدينا الفن التجريدى والموسيقى الالكترونية . كما تروج لدينا البنائية ومسرح العبث .. الخ . ويصبح كل مثقف لدينا متخصصا فى مذهب ، يدعى الى أجهزة الاعلام كمرجع متخصص ، ويكون كمن يفتتح دكانا ويرفض أية منافسة أخرى من دكان يريد أن يبيع نفس الصنف . قد تكون مجتمعاتنا فى حاجة الى عصر احياء الذى مر به الوعى الاوربى فى القرن الرابع عشر والذى مررنا به نحن فى القرن الماضى . قد تكون مجتمعاتنا فى حاجة الى اصلاح دينى مرت به أوربا فى القرن الخامس عشر والذى بدأناه نحن فى القرن الماضى دون ان نكمل الشوط الى نهايته ودون ان نستثمر الاصلاح الى اقصى حدوده . قد نكون فى حاجة الى عصر نهضة مرت به أوربا فى القرن السادس عشر من أجل التأكيد على حرية الانسان فى البحث وحقه فى نقد الموروث وعدم التسليم بسلطة القدماء والاعتزاز بجسد الانسان وبتحليل الطبيعة وهو مالم نجربه حتى الآن ولو أننا حاولنا ، على استحياء منذ القرن الماضى واختفت المحاولة أثر المد المحافظ فى الآونة الاخيرة . لذلك يستبق البعض التاريخ عندما يروجون للمذاهب

العقلية المثالية الدينية فى القرن السابع عشر الاوربى خاصة الديكارتية التى ان هى الا حصيلة جهد طويل قبلها استغرق اكثر من ثلاثمائة عام . كما يستبق البعض الاحداث عندما يريدون تأسيس فلسفة تنوير شاملة كتلك التى حدثت فى القرن الثامن عشر فى الغرب . وذلك لانها أيضا حصيلة جهد طويل وصراع من أجل حرية الفكر دام أكثر من اربعة قرون . وقد يحاول البعض ان يستبق التاريخ ويروج الى المادية التاريخية والجدلية والاشتراكية العلمية التى ظهرت فقط فى القرن التاسع عشر الاوربى والتى كانت نهاية المطاف بالنسبة لتطور الوعى الاوربى على أكثر من خمسة قرون . ان فشل التحديث العثمانى انما يرجع الى عدم الوعى بالمراحل التاريخية ونقل المذاهب الغربية وكأنها نشأت فى فراغ واعادة زرعها فى تربة قد تكون غير صالحة المناخ والطين .

وأخيرا ، ان عملية التحديث لا يمكن ان تتم على نحو انتقائى جزئى نسبى بل هى عملية تطوير شامل فى حياة المجتمعات . قد يحدث التحديث الانتقائى الخارجى بعض الاثر فى بعض نواحى الحياة مثل أقامة معركة عسكرية على أساس من التخطيط العلمى السليم ولكنه لا يحدث أثرا مشابها فى كل نواحى الحياة الاجتماعية . هذا التحديث الشامل لا يتأتى الا عن طريق تطوير المخزون النفسى عند الجماهير الذى يمدها بالمحافظة كتيار تاريخى مستمر ، ومعين لا ينضب . ان التحديث الجزئى سرعان ما تعصف به المحافظة الكامنة فتمحو أثره أو تسىء تأويله كما حدث فى تفسير عبور القناة بالمعجزات أو بمساعدة الملائكة من السماء . كذلك ستظل المحافظة كامنة فى النفوس طالما أنها لا تتحول برمتها فى عملية التحديث الى شىء آخر حتى تتخارج وتعيش فى ميدان الوعى اليقظ فتتطور تطورا طبيعيا ، ومن ثم نأمن من الردة ، ولا نقع من جديد فى هوة الماضى السحيق .

ثالثا : المحافظة السياسية :

تعنى المحافظة السياسية المحافظة التى نشأت بسبب فشل التحديث السياسى ابان الثورات العربية الاخيرة . لم تنشأ المحافظة من السياسة مباشرة بل نشأت كرد فعل على عملية التحديث السياسى التى لم تمس جذور الشعب ووجدانه التاريخى . فلم تتجاوز المبادىء الستة فى ١٩٥٢ التى قامت الثورة لاعلانها مستوى الخطابة السياسية. كما كانت الاشتراكية الديموقراطية التعاونية فى ١٩٥٧ كلمات فضفاضة لم ترتبط بجذورها فى وجدان الشعب وتراثه الطويل . ثم جاءت الاشتراكية فى ١٩٦١ وكأنها ايديولوجية الحكومة تحدد الملكية ، وتحدد ساعات العمل ، وتحدد الحد الادنى للاجرة ، وترسى قواعد القطاع العام . ولكن كان ذلك كان تلبيات لحاجات الجماهير الوقتية دون أن تتأصل فى وجدانهم ودون أن تتحول الى ايديولوجية سياسية للجماهير . صحيح حاولت منظمات الشباب ، والمعاهد الاشتراكية ، والصحافة الحزبية ، وأمانات الدعوة والفكر . وترجمات امهات الكتب عن الاشتراكية عرض المذاهب الاشتراكية عرضا مفصلا ولكنها لم تتجاوز بعض المبادىء التى يتلقاها الشباب ويكررها والتى تقف فيها جماهير الشعب على الحياد التام . لذلك لم تدافع الجماهير عن ايديولوجية الثورة أى عن الاشتراكية العربية فى الوقت الذى اختفت فيه الزعامة الثورية وحلت محلها زعامة الثورة المضادة وكأن الامر لا يعنيها . لم تتحول ايديولوجية الثورة الى عقيدة ثورية عند الجماهير متصلة بحياتها ومتأصلة جذورها فى تاريخها . فظلت الجماهير مسلمة من جانب تسمع خطبا فى الاشتراكية من جانب آخر دون أن يحدث تأويل لعقيدتها الدينية بحيث تكون الاشتراكية مضمونا لها ودون ان تتحول الاشتراكية

الى مضمون لعقيدتها • بقى التوحيد فارغا بلا مضمون الا من تشخيص الله الحى الرزاق ، وبقيت الاشتراكية خطبة حماسية تلهب مشاعر الناس وتنتظرها بين الحين والآخر فتخفف من سلواها وأحزانها حتى موعد الخطبة القادم أو بقيت ايديولوجية الطبقة الحاكمة توزع مكاسب الاشتراكية فيما بين افرادها أو اشتراكية القول والكلام دون الفعل والممارسة •

لقد حاولت الثورة تطوير الدين من الناحية الشرعية ولكنها لم تعد تفسيره على نحو جماهيرى بحيث تتحول عقيدة الجماهير الى ايديولوجية ثورية • الغت المحاكم الشرعية ، وحاولت اعادة صياغة قانون للاحوال الشخصية عدة مرات ، والغت الوقف ، ونظمت الطرق الصوفية ، واصدرت قانون تطوير الازهر ، وأنشأت المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، وركزت على أهمية التربية الدينية فى المدارس ، وأقامت برامج دينية جديدة فى أجهزة الاعلام ، ومحطة مستقلة للقرآن الكريم ، وأكثرت من بناء المساجد والمعاهد الدينية لتحفيظ القرآن الكريم • ولكن كل ذلك لم يمس قضية اعادة ربط العقيدة بالمساواة والله بالارض ، ولم يستثمر كل طاقات العقيدة الدينية كحامل أو مد لمشروع الثورة القومى فى معاداة الاستعمار والصهيونية والرأسمالية والرجعية• كانت كل هذه الاصلاحات التشريعية تهدف الى تحقيق مصلحة عامة . فكانت تحديثا للقانون الدينى ، ولكنها لم تمس العقيدة الدينية ذاتها التى ظلت على ماهى عليه تقليدية سنية اشعرية صوفية تقوم على سلطوية التصور ، وحرفية التفسير ، واطلاق الارادة الالهية ، وفناء العالم،وتبعية الجسد • وما ان اختفت الزعامة الثورية حتى بقت المحافظة الدينية الاساسية • ولم تستطع الخطب الحماسية والاقوال والشعارات الابقاء

على شيء من المكاسب الاشتراكية • بل انه حتى بعد السلام مع اسرائيل والاعتراف بالدولة الصهيونية لم تتحرك الجماهير ولم تعارض وذلك لان العداء للصهيونية كان عداء سياسيا خالصا ولم يرتبط بالعقيدة الدينية التى ظلت على تقليديتها مضافا اليها خطابة سياسية لا ثقل لها •

كانت هناك زعامة ثورية ولكن لم تكن هناك عقيدة ثورية أو جماهير ثورية ؛ وهو ما حاولت الثورة الايرانية تلافيه فيما بعد • مما دعا البعض الى القول بأن الثورات العربية ذاتها لم تكن جادة فى تحقيق مشروعها القومى فى معاداة الاستعمار والصهيونية والرأسمالية والرجعية • فمعاداة الاستعمار تقتضى ربط الله بالارض . والعقيدة بالتحرر ، والايمان بالمقاومة ، وتبرز الجهاد كأول واجب على المسلم • ومعاداة الصهيونية تقتضى رفض عقيدة شعب الله المختار . والوقوف امام التوسع والعنصرية • وتقتضى ايضا الكشف عن تغلغل الفكر الرأسمالى فى تصورنا للعالم بل وفى ايماننا بعقائدنا على النحو الموروث. والربط بين التوحيد والمساواة فى المجتمع الاسلامى اللاطبقى . واظهار المالكية لله ؛ واستخلاف الانسان ، وحق الدولة فى التأميم والمصادرة . وملكية الوسائل الغامة للانتاج ؛ ونقد تكدس المال بين حفنة من الاغنياء. ونقد المجتمع الرأسمالى بوجه عام • كما تقتضى تفنيد النظم الرجعية المتخلفة والكشف عن وضع رجال الدين فيهـا وكيف يأتمرون بأوامر الحكام ؛ وكيف يفسر الدين لتثبيت الوضع القائم ، وكيف تتم فى مثل هذه المجتمعات ممارسة الشعائر الدينية نفاقا وتسترا على مظاهر السرقة والنهب والتسلط والطغيان • ولكن ترك هذا التحديث الجوهرى للعقيدة الدينية والاكتفاء بالتحديث السياسى الذى ساهم فى غياب النقص النظرى فى الثورات العربية وجعلها متعثرة ذات طابع تجزيبى خالص ؛

تسير وفقا للظروف وتصدر قراراتها طبقا للاحداث مما جعلها تسير من اليمن الى اليسار مرة ومن اليسار الى اليمين مرة أخرى . وكل ذلك بدعوى الوسط .

وكان من جراء ذلك التحديث السياسى دون المساس بعقائد الجماهير. عدم تأصيل التجربة الثورية على المستوى النظرى . والقدر النظرى الذى وجد غلب عليه طابع النقل والتجميع . ولكن الذى كان غالبا على مستوى تصورات العالم ورؤى القيادات والجماهير للكون هو التصور الغربى للعالم الناتج عن الرأسمالية الغربية والتى سرعان ماتفجرت وظهرت بعد اختفاء زعامة عبد الناصر الثورية . لم يحدث نقد للثقافة الغربية يمكن تحرر اذهاننا منها . فأدرنا القطاع العام بعقلية القطاع الخاص ، وطبقنا الاشتراكية بعقلية الرأسمالية . وكما قيل فى نكاتنا الشعبية اعطينا الاشارة يسارا واتجهنا يمينا .

وكان من شأن الطابع الاوتقراطى للنظام القضاء على كل محاولة لتأصيل الاشتراكية وتطويرها وأخذ المشروع القومى العربى مأخذا اكثر جدية وذلك بتجنيد الجماهير له . ولما كانت القيادات كلها من تكوين ثقافى غربى فان معظم القرارات قد صدرت لترسيخ البناء الرأسمالى للمجتمع خاصة فى أولويات الخطة . وعندما يقوم البناء الرأسمالى فى مجتمع متخلف فانه يصبح اشبه بالاقطاع الطبقى منه الى الرأسمالية المستنيرة الى تقوم على التراث الليبرالى . ومن ثم تتأكد المحافظة على الرغم من التحديث السياسى بل وتتأصل المحافظة نظرا لقوتها الكامنة وقدرتها على التأثير فى الجماهير وتقديمها تبريرا للنظم القائمة . وأصبح الوضع هو تحديث على السطح ومحافظة فى الاعماق،وما أسهل أن يتبدل

السطح وتبقى الاعماق • وكان ثوراتنا العربية الاخيرة ، بالرغم من كل انجازاتها الخارجية كرست المحافظة التقليدية حتى بدت مجتمعاتنا قبل الثورة أكثر تقدما نظرا للتراث الليبرالى الذى كان ثابتا فيها منذ القرن الماضى • وقد كان لغياب حرية الفكر ، وعدم مساهمة المثقفين فى عملية التحديث بعد أن تركوا دورهم لاجهزة الاعـلام ، ونقص الجدية فى تحقيق مشروعنا القومى نظرا لاتساع الهوة بين الاهداف المعلنة والقرارات الصادرة كان لذلك كله أثر فى ترسيخ المحافظة نتيجة لعملية التحديث فى النظم الخارجية وترك القوالب الذهنية والمكونات النفسية الموروثة ابان الالف عام الاخيرة دون تغيير أو تبديل •

رابعـا : المحافظة الاجتماعية :

تعنى المحافظة الاجتماعية تلك التى نشأت بسبب البناء الاجتماعى الذى تكون ابان الثورات العربية الاخيرة • فبعد ضرب طبقة الاقطاع وكبار الملاك فى الريف ، انتقلت القيادة السياسية من الطبقة العليا الى الطبقة المتوسطة • وقد ورثت هذه الطبقة بعض امتيازات الطبقة العليا وذلك لحاجة رجال الثورة للتعاون مع بعض الفئات يحكمون من خلالها ويعتمدون على خبرتها • حدث صعود اجتماعى سريع للطبقة المتوسطة ابان الثورة حتى أصبحت تسمى فى منتصف الستينات الطبقة الجديدة وفى أوائل السبعينات القطط السمان أو مليونيرات مصر الجدد أو الاقطاع الجديد فى الريف أو الرأسمالية الوطنية بالرغم من التفرقة فيما بعد بين غير المستغلة ، والمستغلة منها • ولما كانت لكل طبقة قيمها ، فقد ساعدت قيم الطبقة المسيطرة بتحالفها مع الطبقة المتوسطة وقيمها على الدفاع عن الوضع القائم وترسيخ قيم الطبقة الدنيا والدفاع عنها • ولا تعنى الطبقة هنا معناها الضيق الدقيق أعنى المعنى الاقتصادى فحسب بل

تعنى اساسا المعنى السياسى ، أى نسبة كل طبقة من الحكم ، ومـدى مساهمتها فى صنع القرار السياسى . وموقعها من السلطة • وحتى اذا كانت السياسة تعبيرا عن الوضع الاقتصادى فان الحكم تعبير عن البناء الاجتماعى • وقد ظهرت المحافظة الاجتماعية ابتداء من السبعينات وبعد اختفاء زعامة عبد الناصر الثورية وظهور تحكم البناء الاجتماعى والاقتصادى فى اصدار القرارات السياسية ، وسيطرة الطبقة الجديدة على الحكم بعد أن بانت مخاطرها • وكانت هناك محاولات لتحديدها أثر هزيمة حزيران وفى برنامج ٣٠ مـارس ١٩٦٨ ، وفى دراسات مؤتمر المبعوثين المقدمة من وفد الدارسين بفرنسا فى أغسطس ١٩٦٦ بالاسكندرية ولكن احدا لم ينتبه اليها الا بعد تجسيم مخاطرها بعد الهزيمة •

وتتمثل قيـم الطبقة الحاكمة فى عـدة قيـم يجمعها مفهـوم « كبير العائلة » أو « رب الاسرة » الذى وجب له الاحترام ، وعـدم مناقشته أو الاعتراض عليه ، وتقبل قراراته الابوية باعتبارها خيرا للجميع حتى وان بدت فى الظاهر مضرة عليهم ، ويبرر رجال الدين قائلين ان مرارة الدواء ضرورية للشفاء • وان مايراه القادة الحكماء المبصرون على المدى الطويل انفع للناس مما يراه المحكومون الذين يتحركون بدافع الجوع والحاجة فى اللحظة الحاضرة • هذه الصـورة الابوية التى تقررها الطبقة الحاكمة فى وعى الجماهير تثبت الوضع القائم ، وتمنع من أى حراك اجتماعى أو معارضة سياسية وذلك لانه كبير العائلة : تجب له الطاعة المطلقة ، والاحترام والتبجيل ، وهو أشبه برجل الدين المقـدس ، أو بزعماء القبائل ، أو ببطريك العبرانيين • ويساعد على ذلك « عصا المارشالية » والوشاح الاخضر ، وكأنها عصى موسى ووشاح الولى • ويظهر فى أجهزة الاعلام وهو يصلى فى مساجد

القرية او بالجلبات البلدى أو يتممتم بشـــفتيــه . ويسـبل عينيه، وبيـــده سـبحة يذكــر بهـــا اسـماء اللــه الحســنى . ينادى الجنود بأولادى ، والمذيعة بابنتى . والطلبة بأبنائى ، وهـو الاب الكبير . وتذاع الاغانى عن كبير العائلة الذى يفيض حكمة وبصيرة . وأفضل الافلام التى يجب ان يتم الاكثار منها هو « وبالوالدين احسانا » التى يرجع فيها الابن الضال ، تائبا عن ثورته الى الاعتراف بالسلطة الابوية . وعندما يتم تنظيم حزب يتم احضار وجهاء « القوم ، وكبار الموظفين ، ورؤساء الجامعات وينثر حولهم الشباب حتى تتأكد صورة رؤساء القبائل والعشائر . ويلجأ الى السلطة الدينية لتأكيد الصورة الابوية . فيبدأ باسم الله ويختتم بآية المغفرة والتوبة أو بدعاء صوفى ؛ فيتحد الرجل السياسى مع الرجل الدينى . ويكون أخطر زعيـــم هو الخمينى ، وأخطر ثورة ثورة ايران ، الاول يجعل من الدين ثورة، ومن الزعامة تعبيرا عن مصالح . الشعب ضد التسلط والظلم والطغيان . ويكون أخطر استاذ هو الذى يدعو الطلبة الى التفكير والنقد ونبـذ سلطة الموروث ، وتكون اخطر صحافة هى التى تنقد السلطة ، فكل نقد تشكيك أو عمالة ويصبح أخطر حزب هو الحزب المعارض الذى لا يأتمر بأوامر السلطة ، ويحرك الناس . وفى مقابل السلطة الحاكمة التى تمثل الطبقة العليا تأتى جماهير الشعب المحكومة والتى تمثـل الطبقة الدنيا . ونظرا لجهل هذه الطبقة وتغيب وعيها فان الطبقـة الحاكمة تفرز لهذه الطبقة قيما تناسبها وتؤكد على طاعاتها لاولى الامر مثل الطاعة ، والايمان ، والصبر ، والحب ، والسلام . وهى كلهـا قيم سلبية تدعو الى الاستكانة وعدم الحركة أو تفسر قيما اخـرى ايجابية مثل الاصالة والصلابة على نحو سلبى .

فالطاعة واجبة لاولى الامر . وكل ثورة على السلطة خـــروج

ومروق وفتنة وعمالة للخارج أو حقد من شخص موتور أو تعصب وجهل دينى . وبالتالى أصبح الثبات الاجتماعى هو نموذج التحديث وليس الحراك الاجتماعى ، ومن ثم كثرت قوى الامن المركزى ، وعظم دور وزارة الداخلية ، وكثر امناء الشرطة ، ونظم الحرس الجامعى ، وطلب من مؤسسة أو نقابة أو هيئة تطهير صفوفها من المشاغبين والملحدين والعملاء والمشككين والحاقدين والمتعصبين . والايمان أخص ما يميز هذا الشعب ، الايمان بالله وكتبه وملائكته ورسله واليوم الآخر ، الايمان بالغيبيات وبالموضوعات المفارقة للعالم . وليس من مضمون الايمان حق الفقراء فى أموال الاغنياء ، أو ضرورة تحرير الارض ، أو معادة العنصرية والاطماع التوسعية ، أو الوقوف فى مواجهة الاستعمار والرجعية . الايمان مفتوح نحو الماضى ونحو الاعلى وليس نحو الحاضر ونحو الاسفل . فهو ايمان بالتراث والعقائد وليس ايمانا بالتجديد وبحاجات الناس . والصبر صفة أخرى للشعب تجعله يرضى بالوضع القائم ، وأنه لا خلاص فى الحاضر على يد أحد من البشر بل الخلاص فى الآخرة . حيث يطعم الجياع ، ويلبس العراة ، ويسكن الذين بلا مأوى ، ويتحرر المستعبدون . فالصبر مفتاح الفرج كما يقال فى امثالنا العامية . ويؤول رجال الدين آيات الصبر فى القرآن لاثبات الصبر ناسين الآيات التى تحث على ترك الصبر مثل « فما أصبرهم على النار » . والحب وسيلة للترابط الاجتماعى ، وسيعطى الغنى الفقير بالحب ، ويعطى صاحب رأس المال حقوق العامل بالحب ، ويتنازل الطاغية عن سلطته للشعب بالحب . فالحب مهرجان بين القائد والشعب ، يظهر فى الاستقبالات والاحتفالات الشعبية التى تنظمها الحكومة لنفسها باسم الشعب . والحب يقضى على الصراع ، ويلغى

المتناقضات . ويجب التفكير والتحليل • أما السلام فانه يعبر عن طبيعة الشعب الذى يتسامح مع المسىء •

ويقوم التبرير الدينى باعلان أن الحرب لم تشرع لذاتها ، وان العدو محب للسلام فيجب أن نقابل سلاما بسلام ، اذا سار نحونا خطوة سرنا خطوتين • وهكذا يكون التعامل من شعبين متحضرين يعيشان فى جزيرة منعزلة وسط دول همجية متخلفة ! أما الاصالة فلا تعنى تطوير الجديد ، وبالتالى تكون قيمة ايجابية بل تعنى المحافظة على القديم والتعصب له ، والتصلب فى الدفاع عنه ، فالموروث القديم خير دعامة للمحافظة على الوضع القائم • تعنى الاصالة رفض الافكار المستوردة، والوقوف أمام المذاهب الهدامة المعارضة لتراث البلاد • والحقيقة أن الهدف منها هو الدفاع عن الوضع القائم ، ومنع أى عناصر حركة فيه وعلى رأسها الفكر الثورى والمذاهب الداعية الى التغيير الاجتماعى • أما الصلابة فتعنى رفض التغير . والوقوف أمام كل المحاولات لتغيير النظام الاجتماعى • فهى صلابة المحافظة على القديم . وتصلب ضد قوى التغير ، وعدوانية ضد جميع مراكز التفكير والخلق ، ودوائر النقد والمعارضه • لا تعنى الصلابة الثبات فى الجهاد . والمثابرة على المقاومة. ولكن تعنى الثبات على القديم . والعض بالنواجذ على الموروث •

أما الطبقة المتوسطة التى تحكم الطبقة العليا من خلالها . والتى نفرز من خلالها قيم السيطرة لها والخضوع لغيرها فانها ايضا تفــرز قيمها بمساعدة الطبقة الحاكمة التى تخدم مصالحها ، وهى نفس مصالح الطبقة الحاكمة • مثل الشرعية الدستورية ، سيادة القانون ، النظام والامن ، دولة المؤسسات • فالشرعية الدستورية تعنى حــكم

النظام والدولة وليس حكم التغير والثورة • والانتقال من الشرعية الثورية الى الشرعية الدستورية هو فى حقيقة الامر الغاء للثورة من أجل الدولة ، وقضاء على التغيير من أجل الثبات • هذا بالاضافة الى أن الدستور يتغير من أجل الثبات ، وتتغير بنوده من أجل اطالة حكم الرؤساء الى مدى الحياة أو لاستعمال بنوده الاستثنائية التى تعطى الحكام الحق المطلق فى اصدار القوانين واصدار الاحكام العرفية ، والمحاكم الاستثنائية ، وتنظيم الاستفتاءات الشعبية لتأييد الحـــاكم أو لاخذ رأى الشعب فى الموافقة على اسقاط حريته ، وقبول احتلال العدو لارضه • أما دولة المؤسسات فتعنى اعطاء كل ردة رجعية صيغة قانونية • فمجلس الشعب مؤسسة لا يمكن تجاوزها طالما انها فى يـــد الحكام • ولايطاق فيها صوت معارض حتى ولو كان واحدا ، ويكون جزاؤه الفصل أو التجاهل أو السجن أو المحاكمة والادانة ســلفا • والصحافة مؤسسة مادام رؤساؤها معينون من السلطة ينفذون أوامرها، ويكون جزاء المخالفين الطرد أو المنـــع أو التجاهل أو التخوين • والقضاء مؤسسة مادام يشرع القوانين الاستثنائية ، ويصادر صحف المعارضة ، ويدين المتظاهرين بالشيوعية ويحكم عليهم بالسجن والفصل ، والجامعة مؤسسة مادامت تراقب الاساتذة ، وتمنع الطلاب من نشاطهم الجامعى ، وتحرم مجلات الحائط ، وتوقف نشاط الاسر والجمعيات •

وهكذا تعنى المؤسسة اولوية الحكومة أو السلطـــة وسيطرتها على مضمونها وشل حركتها حتى توقفت حركة المجتمع ونشـــاط هيئاته بالمرة • أما سيادة القانون فتعنى أيضا خضوع كل معارض لقانـــون العقاب • فالقانون ليس موضوعيا يقوم على الصالح العام بل يعبر عن هوى الحكام ومصالحهم واستحواذهم على كل السلطات • فكل

يوم يصدر قانون لتكبيل الحريات . ومنع نشاط الافراد والهيئات. ومنع الحديث فى الموضوعات الوطنية الكبرى أو مس القضايا السياسية العليا حتى أثناء المعركة الانتخابية حتى تكون المعركة نزيهة شريفة . تعنى سيادة القانون تحريم الثورة . وقهر المعارضة ، ومنع حرية التعبير . والخضوع التام لارادة السلطة . أما النظام والامن فيعنى الاعلان الصريح على ضرب كل تجمهر بحجة اثارة الفوضى وخرق النظام . فالمحافظة على الوضع القائم لاتكون بافراز قيم الطبقات بحيث تخدم الطبقة العليا فحسب بل تعنى الابقاء على هذا الوضع القائم بالفعل عن طريق أجهزة الامن المركزية والمحلية ، عصب السلطة ، ودعامتها الرئيسية . فيدعو الحاكم « اقتلوهم حيث ثقفتموهم » ويعنى المعارضة ، ويقول وزير الداخلية « سأنزل وراءهم الى الشوارع وأطاردهم بمدفعى الرشاش » ، ويقول السلطان « سأصدر أوامرى باطلاق النار على كل المارقين » . وهكذا تكون قيم الطبقة المتوسطة فى تحالف مع قيم الطبقة العليا من أجل السيطرة على الطبقات الدنيا بعد أن يفرز لها قيمها التى تدعو الى السكينة والخضوع . وبالتالى تنشأ المحافظة هنا من البناء الاجتماعى الذى يقوم على قيم الطبقات فى نظام سياسى تسلطى يبغى الابقاء على الاوضاع القائمة .

أن البحث عن أسباب سيادة الاتجاهات المحافظة فى حياتنا الراهنة لواجب وطنى على كل المثقفين الثوريين والباحثين الاجتماعيين والتى قد يسميها البعض الانتكاسية الثورية أو الهجمة التترية أو الردة المعاصرة. ويمكن لمختلف المناهج التحليلية المساعدة على الكشف عن هذه

الاسباب • والمنهج الفكرى الخالص الذى يعتمد على تحليل الموروث باعتباره موضوعا مستقلا فى الشعور قد لايكون هو المنهج الوحيـد لدراسة هذه الظاهرة التى نراها جميعا ونقف منها موقف الدهشـة والتعجب • ولكن على الاقل يستطيع المنهج الظاهرى (الفينومينولوجى) الكشف عن نشأة الظاهرة وتتبعها فى الوعى الحضارى • ومن يدرى فقد نكون أشبه بهذا الطائر « فينكس » الذى تبعث فيه الحياة من خلال الرمـاد •

أثر أبي الأعلى المودودى على الجماعات الدينية المعاصرة

مقـــدمة :

بالرغم من وجود أسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية لظهـــور الجماعات الدينية المعاصرة خاصة تلك التى تحاول أن تحقق أهدافهـــا بالقوة (١) الا ان الاسباب الفكرية أو الاسس العقائدية لاتقل أهميـــة عن الاسباب الاولى لانها هى التى تعطى الاسس النظرية للسلوك ، وبالتالى تكون هى المحرك الاول لهذه الجماعات والدافع لها على الحركة والنشاط والتى تمدها بقيمها وأهدافها ووسائل تحقيقها وتنفيذها .

ولما كانت هذه الجماعات اسلامية أى أممية (تنتسب الى الامـــة الاسلامية) فان مصادر فكرها تتجاوز حدود مصر بطبيعة الحال وتمتد الى باكستان التى نشأت بناء على دعوة اسلامية من أجل اقامة الدولة الاسلامية التى يجد فيها مسلمو الهند فلاحهم فى الدنيا ونجاتهم فى الآخرة . ومفكر الدولة الاسلامية الاول هو الامام أبو الاعلى المودودى الذى أنشأ حركته « الجماعة الاسلامية » بعد الاخوان المسلمين فى مصر بثلاثة عشر عام تقريبا . وقد أثر فى فكر الجماعة بعد استشهاد مؤسسها الامام الشهيد حسن البنا فى فبراير ١٩٤٩ عند الامام الشهيد

المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، بحث الحركات الاجتماعية المتطرفة ، الحركات الدينية ، الندوة الاولى ١٩٧٩/١٠/١٤ .

(١) ان وصف بعض الجماعات الدينية المعاصرة بالتطرف هو حكم مسبق يفترض أن الدعوة الدينية تقوم على الموعظة الحسنة كما ان وصفها بالعنف أيضا حكم مسبق لان محاولة تحقيق الاهداف بالفعل ليست عنفا الا من وجهة نظر السلطة القائمة وعند فشل هذه المحاولات فقط .

سيد قطب ، فجمع فكر الاخوان بين الفكر الاصلاحى عند آخر ممثليه السيد رشيد رضا (وقد كان حسن البنا تلميذا له يفكر فى اصـدار « جريد المنـار » بعد توقفها فى ١٩٣٥) والفكر الالهى عنـد أبى الاعلى المودودى ، ولما كان الفكر الاصلاحى لاينمو نمـوا طبيعيا الا بالممارسة العملية لحركة الاصلاح فقد توارى الفكر الاصلاحى فى فكر الجماعة عند سيد قطب وظهر الفكر الالهى عند المودودى تغذيه وتقويه جدران السجون ، وقد نشأت الجماعات الدينية المعاصرة داخل حركة الاخوان المسلمين فى أروقة المعتقلات وفى نقاش حول حاضر الحركة الاسلامية ومستقبلها ، وقد ظهر الخمينى بعد المودودى وسيد قطب يعطى نفس الطابع ويقويه النجاح المذهل فى اسقاط الشاه ،

وستحاول هذه الدراسة وصف البناء الايديولوجى لفكر أبى الاعلى المودودى أساسا فى اطار الظروف الاجتماعية والسياسية التى سهلت تأثير هذا الفكر على الجماعات الدينية فى مجتمعاتنا الاسلامية المعاصرة ، كما ستحاول هذه الدراسة اعادة هذه البناء الى مسـاره الطبيعى لان الفكر لايقف أمامه الا فكر . ولاتنفع معه وسائل القمـع المضاد ،

ويتسم الفكر الدينى عند المودودى بطابع خاص تجعله ذا بناء محدد . يظهر فى سلوك هذه الجماعات الدينية المعاصرة ، ويمكن وصف هذا البناء على النحو الآتى :

١ — الحاكمية لله :

تعطى الحاكمية لله تصورا مركزيا للعالم ، فالله قمة الكـون خلقه ويحكمه ويسيطر عليه ، « الارض كلها لله وهو ربها والمتصرف

فى شئونها . فالامر والحكم والتشريع كلها مختصة بالله وحده وليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو شعب بل ولا للنوع البشرى كافة شىء من سلطة الامر والتشريع . فلا مجال فى حظيرةالاسلام ودائرة نفوذه الا لدولة يقوم فيها المرء بوظيفته خليفة لله تباركت أسماؤه . ولا تتأتى هذه الخلافة بوجه صحيح الا من جهتين : أما أن يكون ذلك الخليفة رسولا من الله أو رجلا يتبع الرسول فيما جاء به من الشرع والقانون من عند ربه » (٢) فالانبياء هم المعلنون عن هذه الحاكمية ، ومعهم القادرون على السير على هداهم . وتتبع السيطرة على الكون بكل مافيه حدا لايستطيع معه أحد الخروج عنه . « مامن حاكم ولا ولى ولا مليك مقتدر لهذا الكون الا ذلك الاله الواحد الفرد الصمد . وأنه هو الحاكم القاهر الذى لامعقب لحكمه ولاشريك له فى الملك ، ولاينفذ فى السموات والارض الا أمره (٣) . فلا تكن الا عبد الله ولا تأتمر الا بأمره ولا تسجد لاحد من دونه فانه ليس هناك من صاحب جلالة فالجلالة كلها مختصة بذاته جل وعلا ، وليس هناك من صاحب قداسة فالقداسة بأسرها مركزة فيه تقدست أسماؤه ، وليس هناك من صاحب سمو ، فالسمو لايستحقه أحد من دونه ، تعالى شأنه ، وليس هناك من صاحب سيادة ، فالسيادة بأجمعها مقتبسة من شرفه ، جلت قدرته وعظم شأنه ، ولا شارع من دونه ، فالقانون قانونه ، ولايليق التشريع الا بشأنه ، ولايستحقه الا هو ؛ ولا ملك ولا رازق ولا ولى الا هو ، وليس من دونه من يسمع دعاء الناس ويستجيب لهم ، وليست مفاتيح الكبرياء والجبروت الابيده ، ولا علو لاحد ولا سمو فى هذه

---

(٢) ابو الاعلى المودودى : منهاج الانقلاب الاسلامى ص ١٥ — ١٦ .
(٣) المصدر السابق ص ٤١ — ٤٢ .

الدنيا فكل من فى السموات والارض عباد أمثالك والرب هو الله وحده • فارغض كل أنواع العبودية والطاعة والخضوع لاحد من دونه ، وكن عبد الله ، قانتا مستسلما لاوامره.» •

ولما كانت الحاكمية لله فالاستخلاف لايكون الا فى الحاكمية • « فالحاكم الحقيقى فى الاسلام انما هو الله وحده ••• فاذا نظرت الى هـذه النظرية الاساسية وبحثت عن موقف الذين يقومون بتنفيـذ القانون الاسلامى فى الارض تبين لك أنه لايكون موقفهم الا كموقف النواب عن الحاكم الحقيقى : فهذا هو موقف أولى الامر فى الاسلام بعينه » (٤) • الحاكمية لله وحده فهو وحده الحاكم الحقيقى فى واقـع الامر ولايستحق أن يكون الحاكم الاصلى الا هو وحـده وهى حاكمية قانونية تعنى خضوع كل من فى الكون له • ولكنها تبقى فرضا مادامت لاتستند الى حاكمية واقعية أى سياسية أى مالكة للسلطة التى تحقق هذه الحاكمية فى الواقع • وهنا تأتى الخلافة تنفيذا للحاكمية (٥) •

ويعبر المودودى عن الحاكمية والخلافة فى « الحكومة الاسلامية » قائلا « أن تصور الاسلام عن الحاكمية واضح لاتشوبه شائبه • فهو ينص على أن الله وحده خالق الكون وحاكمه الاعلى ، وأن السلطة العليا المطلقة له وحده ، أما الانسان فهو خليفة هذا الحاكم الاعـلى ونائبه • والنظام السياسى لابد وأن يكون تابعا للحاكم الاعلى • ومهمة الخليفة تطبيق قانون الحاكم الاعلى فى كل شيء ، وادارة النظـــام

---

(٤) ابو الاعلى المودودى : نظرية الاسلام السياسية ص ٤٥ .

(٥) ابو الاعلى المودودى : تدوين الدستور الاسلامى ص ١٨ — ٢٨ .

السياسى طبقا لاحكامه » (٦) • وقد قرر جميع الانبياء هذه الحاكمية وهذا الاستخلاف مؤكدين حقائق ثلاث : الاولى أن السلطة العليا التى على الانسان أن يخضع لها ويطبعها ويقر بعبوديته لها والتى يتأسس على طاعتها النظام الكامل للاخلاق والمجتمع والحضارة هى سلطة الله وحده وينبغى التسليم بها وقبولها على هذا الاساس • والثانية حتمية طاعة النبى وحكمه بوصفة ممثلا ونائبا عن السلطان الاعلى والحاكم المطلق • والثالثة أن القانون الحكم الذى يقرر التحليل والتحريم فى جميع الميادين هو قانون الله وحده الناسخ لكل القوانين البشرية وليس للعباد حق المساءلة والنقاش فى أحكام الله فما حرمه الله يكون حراما وماحلله يكون حلالا لانه مالك كل شىء ويفعل مايشاء • وقد بين القرآن طاعة الانسان لله وللرسول ولاولى الامر • كما نص على الحاكمية فى « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون » • ويصفهم القرآن مرة أخرى بالظالمين ومرة ثالثة بالفاسقين • وليس صحيحا أنها آيات خاصة نزلت فى أهل الكتاب فى مناسبات خاصة بل هى أحكام عامة تتجاوز أسباب النزول وتنطبق على كل أمة بالنسبة لكتابها فى كل زمان ومكان (٧) •

وتتضمن الحاكمية رفض حاكمية البشر وضرورة الثورة عليها ، وكأن عصيانها أمر الهى • لذلك خرجت الجماعات الدينية على النظم القائمة كما فعلت الخوارج من قبل • ولا تعنى الخوارج هنا مايقصده رجال الدين والسياسة من شق عصا الطاقة ورفض سلطة الدولة وبالتالى ادانتهم ومحاكمتهم أمام القانون بل تعنى رفض الانضواء

---

(٦) ابو الاعلى المودودى : الحكومة الاسلامية ص ٦٤ •

(٧) المصدر السابق ص ٦٧ — ٧٤ •

تحت اللاشرعية الدينية كما رفض الخوارج من قبل وكما رفض آل البيت بقيادة على والحسين وباقى الائمة الرضوخ لسلطة الدولة الاموية التى اغتصبت الحكم وأخذته بالقهر والتهديد تاره وبالرشوة والاغراء تارة أخرى • ويتمثل هذا الرفض لحاكمية البشر فى قول المسلم « لا اله الا الله معلنا السياة لله ضد سيادة البشر • فنظرية التوحيد هذه ليست بعقيدة دينية فحسب ••• بل انما تقضى هذه النظرية على نظام الحياة الاجتماعية المبنى على أساس استقلال الانسان بأمره أو حاكمية غير الله والوهيتة ، وتنقطع بها هذه الشجرة الملعونة من جذورها . وينهدم هذا البنيان من أساسه ، ويقوم وينهض بنيان جديد على أساس غير هذا الاساس ••• المنادى يقول أن لاملك لى الا الله ، ولا حاكم الا الله ، ولا أخضع لحكومة ، ولا أعترف بدستور ، ولا أنقاد لقانون ، ولا سلطان على المحكمة من المحاكم الدينوية ، ولا أطيع أمرا غير أمره . ولا أتقيد بشىء من العادات والتقاليد الجاهلية المتوارثة ولا أسلم شيئا من الامتيازات الخاصة ، ولا أدين لسيادة أو قداسة ، ولا استخزى لسلطة من السلطات المتكبرة فى الارض المتمردة على الحق • وانما أنا مؤمن بالله ، مسلم له ، كافر بالطواغيت والآلهة الكاذبة من دونه ••• » (٨) • فالنظرية السياسية فى الاسلام تقوم على مبدأ أساسى وهو « أن تنزع جميع سلطات الامر والتشريع من أيدى البشر منفردين ومجتمعين ولا يؤذن لاحد منهم أن ينفذ أمره فى بشر مثله فيطيعوه أو ليسن قانونا لهم فينقادوا له ويتبعوه فان ذلك أمر مختص بالله وحده لا يشاركة فيه أحد غيره » (٩) •

---

(٨) منهاج الانقلاب لاسلامى ص ٤٤ — ٤٥ .

(٩) نظرية الاسلام السياسية ص ٢٧ .

لذلك تتميز الدولة الاسلامية بثلاث خصائص : الاولى أنه ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب أى نصيب من الحاكمية فان الحاكم الحقيقى هو الله . والثانية أنه ليس لاحد من دون الله شىء من أمر التشريع . والثالثة أن الدولة الاسلامية لايؤسس بنيانها الا على ذلك القانون المشرع الذى جاء به النبى من عند الله مهما تغيرت الظروف والاحوال . وأن الدولة لاتستحق الطاعة الا من حيث أنها تحكم بما أنزل الله وتنفذ أوامره فى خلقه (١٠) .

وتتمثل حاكمية البشر فى ثلاثة نظم : العلمانية . والقومية . والديموقراطية وهى النظم التى سيطرت على الحياة السياسية فى الغرب . فالعلمانية تعنى عزل الدين عن الحياة الاجتماعية للافراد وقصره فقط بين العبد وربه . أما القومية فانها تقوم على مصلحة الامة ورغباتها بصرف النظر عن مصالح الامم الاخرى ومن ثم نشبت الحروب بين القوميات ، والويل للمغلوب فلا مكان للضعيف . أما الديموقراطية فقد نشأت فى بداية آمرها ثورة على الاقطاع ولكنها انتهت الى سيادة الاكثرية على الاقلية . فالدولة العلمانية القومية الديموقراطية هى الدولة الحديثة التى تتمثل فيها حاكمية البشر فى الغرب والتى يرغب المسلمون فى تقليدها . وهى نظم كلها ترفض الحاكمية لله وبالتالى تجعل الفرد خاضعا لشهواته ورغباته ، وتجعل المجتمع خاضعا لاهوائه ومصالحه . وفى غياب حاكمية الله لايوجد مكان الا للشيطان الذى يبشر بالالحاد والعنف . أما القومية فانها « تضع ذاتها ومصالحها ورغباتها الخاصة فوق جميع الناس ومصالحهم ورغباتهم ؛ والحق عندها هو ما

---

(١٠) المصدر السابق ص ٢٩ .

كان محققا لمطالبها واتجاهاتها ورفعة شأنها ولو كان ذلك بظلم الاخرين واذلال نفوسهم » (١١) •

الدولة الاسلامية اذن ليست دولة ثيوقراطية لانها ليست دولة رجال الدين ، وليست دولة ديموقراطية لان الحكم ليس للشعب ،ولكنها دولة « ثيوديموقراطية » الحاكمية فيها لله طبقا لاختيار الشعب ، فالله هو المشرع والمسلمون هم المنفذون (١٢) • هى دولة لاتقوم على جنس أو عنصر أو مصلحة أو حدود جغرافية بل دولة فكرية أى دولة مبادىء وغايات (١٢) • الدولة الاسلامية تقوم على الديموقراطية الاسلامية ، وفيها يكون كل عضو فى المجتمع خليفة ، لا فوارق فى النسل أو فى المهنة، وليس فيها استبداد طائفة بأخرى على الانتخاب بناء على التقوى ، ويحكمها قضاء ليس من صنع أهواء البشر •

هذه الدعوة لحاكمية الله ورفض حاكمية البشر هى التى تدفع الجماعات الدينية المتطهرة الى قيام مجتمع مغلق داخل المجتمع الكبير ، وتجعل هدفها اقامة الدولة الاسلامية ، وشق عصا الطاعة على النظم القائمة ، وعدم التعاون مع الدولة اللادينية الذى يظهر فى الطعن فى شرعية دساتيرها ، ورفض الطاعة لمن يحكم بغير ماأنزل الله ، وتحريم الصلاة فى مساجدها ، وتحريم الخدمة فى قواتها المسلحة ، وتحريم العمل فى وظائفها الحكومية ، وجعل موضوع « الخلافة » أهم مؤلف لامير

---

(١١) ابو الاعلى المودودى : الاسلام والمدنية الحديثة ص ١٥ •

(١٢) نظرية الاسلام السياسية ص ٢٩ — ٣١ •

(١٣) منهاج الانقلاب الاسلامى ص ٩ ، وايضا نظرية الاسلام السياسية ص ٤٠ — ٤٤ ، وايضا ص ٤٦ — ٥٢ •

الجماعة الدينية • ويقويها ضعف نظمها السياسية ، وتضارب قوانينها، وقيامها على مصلحة البعض دون البعض الآخر ، وسن القوانين لعقاب المعارضة ، والرغبة فى تغيير الامر الواقع وتكوين نظام أفضل • ولما غاب التنظيم الام أعنى « جماعة الاخوان المسلمين » التى كان يمكن أن تمتص عاطفة هؤلاء الشباب كما كانت تفعل فى الاربعينات واوائل الخمسينات ، ولما غاب أيضا أى نشاط اسلامى علنى ظهرت هذه الدعوة فى هذا الاسلوب المغلق السرى • وستظل الحاكمية لله مصدر قوة لهذه الجماعات ومصدر قلق للنظم القائمة ما لم تستند الى أسس انسانية وشعبية • فبالرغم من أن الحاكمية لله تعبير عن الارادة الالهية الا أنها أيضا تظهر فى خلافة الرسول والائمة من بعده • وهؤلاء من اختيار البشر طبقا للبيعة ، وتحقيقا للشورى ، وكما تم اعلان ذلك فى حضارة أخرى من أن « صوت الله هو صوت الشعب » vox Deii vox populii • ولكننا لم نصل الى هذه المرحلة بعد ، ومازالت حضارتنا مركزة حول الله Theocentric ولم تصبح بعد مركزة حول الانسان ، ويقوى هذا الوضع الآلهى ويغذيه ماعليه نظمنا الاجتماعية من أنها أيضا تعبير عن ارادة الحاكم المطلقة يفعل مايشاء دون أى وجود لمؤسسات دستورية تراجعه أو لتنظيمات شعبية تقره أو لاجهزة جماهيرية تراقبه• فكل قوانيننا ودساتيرنا تعبير عن هذا الحاكم المطلق • فاذا وضع الشباب المؤمن فى الاختيار بين حاكمية الله وحاكمية البشر ، فما أسهل الاختيار بالنسبة له • وقد عبر عن ذلك أحد قضاة الاخوان عندما رأى التعارض الصارخ بين القانون الالهى والقانون البشرى بقوله « أنا قاض ولكنى مسلم » (١٤) •

---

(١٤) عبد القادر عودة : الاسلام واوضاعنا القانونية •

٢ — التنزيل والنص :

يبدو التنزيل الالهى فى اعتبارنا الاوامر الالهية للتنفيذ ومعرفتها من الوحى مباشرة بقراءة النصوص الدينية وفهمها فهما حرفيا بالاعتماد على سلطة النص وحده المتمثل فى « قال الله » و « قال الرسول » . لذلك تسود الحجج النقلية وتقل الحجج العقلية . ولما كانت الحجج النقلية قاطعة لاتحتمل وجهين كانت الاوامر الالهيــة كلها محكمات وليس بها من المتشابهات شيئا . لذلك كان أهم كتاب للمودودى هــو « ترجمان القرآن » الذى يشابه « فى ظلال القرآن » لسيد قطب . وهو تفسير شامل للقرآن سورة سورة . وآية آية حتى يتم الكشف عن التنزيل دون تأويل أو جمع للموضوعات المتفرقة وعرضها فى نســق محكم (١٥) .

وخطورة منهج التنزيل أى استنباط الاحكام الالهية مباشرة من القرآن دون اعتماد على العقل أو المشاهدة هو أولا اخراج الكلم عن مواضعه واستعماله فى غير ما أنزل فيه . وتأويله على غير معناه ، ومن ثم تنتهى الحرفية الى عكسها أى التأويل بلا شاهد حسى أو دليل عقلى . ثانيا أخذ بعض الكلام وترك البعض الآخر . وانتقاء الايات التى تشير الى الحاكمية لله وترك الآيات الاخرى التى تشير الى وضعية الشريعةحتى تتفق الحاكمية مع التنزيل . ثالثا . عدم أعمال العقل والاثبات بالبرهان والاعتماد على سلطة النص وحدها وبالتالى استحالت مخاطبة غير المؤمنين كما استحال الحوار بالعقل حول معانى النصوص . فالنصوص ليست

---

(١٥) أنظر ايضا : أبو الاعلى المودودى : المبادىء الاساسية لفهم القرآن ، وايضا تفسير سورة النور .

موضوعا للحوار بل موضوع للتنفيذ • رابعا . استحالة المعارضة العقلية لسلطة النص وايجاد التفسيرات المغايرة التى تقوم على الدليل العقلى والشاهد الحسى • خامسا . تحويل الشاهد الى تعصب وقوة واقتناع لايتزحزح عنه حتى ولو كانت أمامه عشرات البراهين العقلية المضادة حتى تحول الحوار الى جدل انفعالى يقوم على مقدمات نفسية مسبقة •

ويقوى ذلك فى مجتمعاتنا اننا مازلنا نعيش مرحلة النقل والاعتماد على سلطة الموروث ، واستمرار علمنا من الكتب والنصوص . واستشهادنا فى حياتنا العامة بأقوال القادة والحكام وكتابات أولى الامر وخطبهم • ولكن عند الشباب المؤمن أى الكتب أولى بالاستشهاد : كتاب الله أم كتاب الامير ؟ لذلك يرفض المودودى وضعية الشريعة بمعنى أن لها أسسا وضعية تقوم عليها • فينفذ قانون تحريم الخمر فى أمريكا لانه من وضع البشر بعد أن عرفوا أنها « ضارة بالصحة ومفسدة للقوى الفكرية ، وهدامة لبناء المدنية النسانية » (١٦) مع أن أهم مايميز الشريعة الاسلامية هو وضعيتها • فبالرغم من أن القانون الاسلامى تعبير عن الارادة الالهية الا أنه يقوم أيضا على الدفاع عن مصالح البشر • فهو قانون وضعى يقوم على أسس موضوعية فى الدفاع عن المصالح العامة والتى أطلق عليها الاصوليون القدماء الكليات الخمس : الدين ، والحياة ، والعرض ، والعقل ، والمال • وان كل أبحاثهم فى العلل وأنواعها وطرق معرفتها لترمى أساسا الى البحث عن وضعية

---

(١٦) نظرية الاسلام السياسية ص ٣٤ — ٣٥ ، وأيضا ابو الاعلى المودودى : نحن والحضارة الغربية ، بين الشريعة الربانية والقانون الوضعى ص ٥٢ — ٦٩ •

الشريعة وقيامها على جلب المنفعة ودفع المضرة • وبالتالى يمكن الدخول فى نقاش مع الجماعات الاسلامية عن الاسس الوضعية للتنزيل والاشتراك معهم فى تحديد مصالح المسلمين • وقد يصعب ذلك لسببين: الاول تحجر فكر الجماعات وعدم استطاعتها التفكير فى الاسس الوضعية للتنزيل • والثانى تحرج النظم القائمة من الدخول فى نقاش عام حول « مصالح المسلمين » نظرا للاوضاع المخالفة للشرع التى نعيش فيها مثل الفقر والتسلط والخوف • فلا يمكن النقاش حول الدين وقد تحول الى شعائر وطقوس ومظاهر خارجية وبعد أن قامت الدعوات لفصله عن الدولة • كذلك لايمكن النقاش حول الحياة والنظام السياسى يدعو الى الفصل بين الدين والدولة ، ويجعل الدين لدور العبادة والدنيا للمؤسسات السياسية • ولا يمكن الحوار حول المال نظرا لوجود الاقلية المترفة بيدها المال فى مقابل الاغلبية الفقيرة المعدمة التى تكد من أجل سد رمقها • ولا يمكن المناقشة حول العقل نظرا لما تبثه السلطة القائمة من دعوات ايمانيه واحتفالات دينية وابتهالات صوفية ورؤية للمعجزات تجعل العاطفة هى وسيلة التخاطب ، وتفسح المجال للتعصب الدينى • ولايمكن الحديث عن العرض نظرا لما تسمح به الدولة من مظاهر الخلاعة والفجور فى حياتنا العامة وفى أجهزة الاعلام •

ويمكن التخفيف من حدة التنزيل بعدة طرق : أولا • استعمال النص المعارض • ومقاومة النص بالنص حتى لاتكون شرعية النص أحادية الطرف • ثانيا ، نقل المجتمع كله من مرحلة المنقول الى مرحلة المعقول من أجل الاعتماد على العقل حتى ينشأ الحوار ، وتتم البرهنة على الشىء بالدليل فتخف حدة التعصب والانفعال • ثالثا ، الاعتماد على الواقع المرئى والعيان المباشر وادخال الواقع فى بطن النص حتى

يتحول الشكل الى مضمون وحتى يمكن رؤية المنفعة والضرر كأساس للتحليل والتحريم •

٣ ـ الثنائية المتصارعة :

تكشف هذه الثنائية المتصارعةً عن جدل الكل أولا شيء كما تكشف عن ثنائية متعارضة متصارعة بين النقيضين : الخير والشر ، الحق والباطل ، الصواب والخطأ ، الهداية والضلال ، الايمان والكفر ، الاسلام والجاهلية ، الاسلام والغرب أو عن عدة صور فنية مثل الملاك والشيطان، الجنة والنار • ولا سبيل الى ايجاد حل وسط بين هذين الطرفين المتصارعين أو الانتقال من أحدهما الى الآخر عن طريق التوسط والتدرج • الخير مطلق ، والشر مطلق ، والحق مطلق ، والباطل مطلق، ولا مكان للمواقف النسبية أو الشك أو الظن أو التردد • وهى ثنائية تحدد العلاقة من جديد بين حاكمية الله وحاكمية البشر ، بين الحكومة الدينية والحكومة اللادينية على مستوى العمل والممارسة •

والعلاقة الطبيعية بين الطرفين هى علاقة التضاد دون واسطة أو مصالحة • فبقاء أحدهما مرهون بالقضاء على الآخر • وان بقاء الباطل فى غيبة الحق عنه • ومن ثم ينشأ الصراع بين الجماعات الدينية والسلطة القائمة ، كل طرف ينتهز الفرصة للانقضاض على الطرف الآخر ، ويتشكك فى نواياه • ولما كانت سلطة الدولة هى الاقوى كان القهر دائما من جانبها ، وكان رد الجماعات عفويا ، جزئيا ، اعلاميا لاثبات الحق من حيث المبدأ فينال أعضاء الجماعة الشهادة ويكونون علامة على الطريق •

فهناك صراع بين الاســـلام والجاهلية • ففى المعرفة تكــون الجاهلية طريق الحس والمشاهدة وطريق الحدس والتخمين • فالطريق الاول يقــود الى الفكر الطبيعى الذى يجعل العالم مصـــدر المعرفة والذى يؤدى على مستوى السياسة والاجتماع الى الحاكمية البشرية . حاكمية الطبقة أو الاسرة أو الجمهور . وحب الــذات والشهوات . والخلاعة والفحشاء . والى الانتقال من الاقطـــاع الى الرأسمالية فى دكتاتورية العمال وأخيرا الى التعليم العملى المهنى وليس الى التعليم الدينى العقائدى • وهو الفكر الذى انتج كل المذاهب السياسية الغربية من قومية وتسلطية (استعمار) (١٧) • والطريق الثانى طريق الحدس والتخمين يؤدى الى الشرك الذى يجعل الحياة مرتعــا للاوهـــام والطقوس والخرافات أو الى الرهبانية التى لاتتجاوز الفردية والانانية والسلبية والتكفير عن الذنب أو الى وحدة الوجود التى يمحى فيهـــا التمييز بين الخالق والمخلوق (١٨) • أما طريق الاسلام فهو طريق النبوة ونظرة الانبياء للانسان والكون التى تجعل الله مسيطرا على كل شىء وحاكما وآمرا وقاضيا • ولا سبيل الى المصالحة أو الى التوفيق بين الطريقين : طريق الجاهلية وطريق الاسلام (١٩) • ولا يذكر المودودى أن الحس والمشاهدة مصـــدرا من المعرفة عنـــد الاصوليين وأن الحدس

---

(١٧) ابو الاعلى المودودى : الاسلام والجاهلية ص ١٣ — ٢٤ .

(١٨) المصدر السابق ص ٢٤ — ٣٦ .

(١٩) المصدر السابق ص ٣٦ — ٦٤ .

يعطى البديهيات وهى أيضا مادة المعرفة فى عام أصول الدين • كما أن الودودى لا يذكر الآثار العملية التى تنتج عن كل طريق وكيف أن الغرب تقدم بالفكر الطبيعى وأننا قد تأخرنا بالفكر الالهى •

وأحيانا تكون الثنائية المتصارعة بين الاسلام والغرب : الروحانية والمادية ، الدينية واللادينية • فالمذاهب الاوربية كلها فلسفية أم سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية مذاهب جاهلية : المادية ، مذهب المنفعة (فلسفة الذرائع) • والقومية ـ الديموقراطية ، العلمانية ، الرأسمالية ، الاشتراكية ، الفاشية . النازية . الفوضية • فالغرب بعد أن ترك الدين نظرا لظروف الكنيسة فى العصر الوسيط ، لم يبق له الا الدنيا • ولما كان غنى الامم بالافكار ورقيها بالآراء فان الغرب قد بدأت نهايته بعد افلاسفه على مستوى المذاهب والعقائد والنظريات ! العلم ، والالحاد ، والمذهب العقلى ، والمذهب الطبيعى ، والمذهب الاجتماعى كلها مذاهب تقوم على الخداع والتضليل ، وجاء المسلمون فأصبحوا عبيدا لها ! ولقد انهارات حضارة الاسلام فى الهند بسبب عبودية المسلمين للغرب • لذلك يجب أن يتحرز المسلمون فى باقى الاقطار الاسلامية من هذا الداء • وهنا يرد المودودى على الدهريين كما رد الافغانى من قبل • واذا كانت الحضارة الغربية قد انتحرت فان الاسلام مازال حيا فى قلوب الناس وفى تراثهم المجيد • واذا كانت تركيا قد سارت مع الهند فى التقليد والانهيار فان باقى العالم الاسلامى مازال يرغب فى الاسلام دينا ودنيا • لقد تأسست الثقافة الغربية فى هيجل وفلسفته التاريخية ، وداروين ونظريته فى التطور الانسانى ، وماركس وتفسيره المادى للتاريخ • وقد تجاوب معها المسلمون ايجابا أم سلبا فأصبحوا عابدين لها أو رافضين أياها • والاسلام يرفضها

وينقدها (٢٠) لان الاسلام قد بدأ حضارته ويعاود نهضته الجديدة . ويعطينا المودودى فلسفة للتاريخ ذات أربع مراحل مثلما أعطانا ابن خلدون من قبل : مرحلة البداية ، مرحلة الاكتمال ، مرحلة الانهيار ثم مرحلة النهضة . تأسست الدولة الاسلامية أولا ، وحققت أكبر ثورة فى التاريخ فى بضع سنين بعد تربية بضعة أفراد . ثم أتت مرحلة الملكية عندما تحولت الخلافة الى ملك عضود يقوم على الشعوبية وأنقسام القيادة الى رجال الحكم ورجال الدين . ثم جاءت مرحلة الانهيار عندما تحول التعليم الى علمانى ودينى ، وتكوين رجال دنيا أو رجال دين . وأخيرا يعاصر المسلمون مرحلة النهضة . تود الشعوب الاسلام وتود الحككومات العلمانية . ومن هنا وجب أن تقف الشعوب ضد الحكومات (٢١) .

وتقوى هذه الثنائية المتصارعة فى مجتمعاتنا نظرا لسيادة هذا النوع من التفكير فى حياتنا وقسمة تصوراتنا أيضا بين الحق المطلق والباطل المطلق وهو ما يميز أيديولوجيات المجتمعات المتخلفة بوجه عام . وتقوم أجهزة الاعلام برفض أحد الطرفين ، وهو الباطل فى نظرها والحق فى نظر الجماعات الدينية فتكفر المعارضة وتجعل السلطة صاحبة الحق المطلق . فنسبة النظام القائم الى المعارضة نسبة الخير

---

(٢٠) نحن والحضارة الغربية ، وايضا نظرية الاسلام السياسية ص ٥ — ٦ ، منهاج الانقلاب الاسلامى ص ١٩ ص ٢٤ ، وايضا ابو الاعلى المودودى : واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم .

(٢١) ابو الاعلى المودودى : الاسلام اليوم ، وايضا منهاج الانقلاب الاسلامى ص ٦٢ — ٦٥ .

الى الشر ، والحق الى الباطل ، والصواب الى الخطأ • ثم تقلب الجماعات الدينية العلاقة بين الطرفين فتجعل نسبتها الى السلطة القائمة نسبة الخير الى الشر • والحق الى الباطل ، والصواب الى الخطأ ، والايمان الى الكفر ، والاسلام الى الجاهلية •

ويمكن التخفيف من حدة هذه الثنائية المتصارعة عن طريق الحوار بين الطرفين ، والاعتراف بالجماعات الاسلامية كتيار أصيل فى البلاد ، واعطائها كافة الحقوق للتعبير عن نفسها • والاعلان عن دعوتها ، وقبول السلطة القائمة المراجعة والنقد • فالجماعات الاسلامية على حق من حيث المبدأ • فاذا ما أعطى لها حق التعبير الحر قامت بالموعظة الحسنة وتخلت عن العنف الذى لا يتولد الا تحت الكبت السياسى والحرمان من وسائل التعبير •

ولقد ظلت حياتنا الوطنية خلوا من هذه الوحدة بين الشكل والمضمون ، الشكل الدينى والمضمون السياسى • فالحاكمية لله تشرع من حيث المبدأ • وهو ما تفعله الجماعات الاسلامية ولكنها لا تتحقق الا فى مضمون سياسى واجتماعى وهو ما تفعله النظم السياسية القائمة على اختلاف مذاهبها • وتصبح المسألة هى : الحاكمية لصالح من ؟ والقرارات السياسية لصالح من ؟ فلو أمكن تفسير الحاكمية لصالح جماهير المسلمين ولو أمكن قيام نظم سياسية تعطى الاولوية لصالح الاغلبية على امتيازات الاقلية لما حدث الصدام بين الجماعات الدينية وبين الدولة •

ولا يقتصر الامر على الحوار بين الشكل والمضمون فى حياتنا السياسية ، بين الدين والتنمية ، بل يتجاوز ذلك الى الوحدة الوطنية

ذاتها التى يجد فيها كل تيار ذاته متفقا على برنامج للعمل الوطنى مع باقى التيارات وان كان مختلفا معها فى باقى منطلقاتها النظرية ٠ اذ لا يقتصر الخروج على الجماعات الدينية وحدها بل يشمل أيضا الجماعات اليسارية التى دأبت فى الاربعينات أيضا على اظهار نشـاطها باستعمال القوة ثم أمكن امتصاصها أخيرا داخل الثورات العربية واستطاعت التعبير عن نفسها على نحو طبيعى على عكس ما حدث لجماعة الاخوان المسلمين ابتداء من أزمة مارس ١٩٥٤ حتى اليوم ٠ ويثبت تاريخنا الحديث أنه فى لحظات الوحدة الوطنية ، عندما يتم تجنيد الشعب كله فى أهداف قومية واحدة تخف حدة الجماعات الدينية أو التنظيمات اليسارية النشطة الخارجة على النظام القائم كما حدث فى مقاومة عدوان ١٩٥٦ وكما ظهر فى أوائل الستينات ، فى مرحلة التحول الاشتراكى ٠

٤ — منهج الانقلاب :

ويتم حسم الصراع بين الثنائية المتعارضة عن طريق منهج الانقلاب ٠ وفى اللغة الفارسية يعنى لفظ « انقلاب » ثورة ، وكأن الثورة لا تكون الا انقلابا وكأن الانقلاب هو طريق الثورة ٠ وهو المنهج السائد أيضا فى التراث الاسيوى ، هذا الذى عبر عنه الافغانى بالتغيير الاجتماعى عن طريق انقلاب السلطة السياسية ٠ وهو الغالب أيضا على التراث الشيعى على عكس محمد عبده وأهل السنة بوجه عام ٠ وهو التيار الذى يرمى الى احداث التغير الشامل فى الامة عن طريق التربية وعلى مدى عدة أجيال ٠

يرفض المودودى طريق التدرج والإصلاح والنهج الديمقراطى لاجدات الانقلاب ٠ « يزعمون أنه اذا تم لهم تأسيس دولة قومية يمكن

تحويلها تدريجيا فيما بعد الى دولة اسـلامية بوسائل التعليم والتربية وبفضل الاصلاح الخلقى والاجتماعى • ولكن شهادات التاريخ والسياسة وعلوم العمران تفند مثل هـذه المزاعم وتعدها من قبيل المستحيلات • وان نجح مشروعهم كما يزعمون فلا شك أنه يكون معجزة • فان نظام الحكومة له أصل ثابت فى الحياة الاجتماعية ••• فلا يمكن أن يحدث انقلاب ثابت فى نظامها بطريق من الطرق الا اذا سبقه تبدل فى الحياة الاجتماعية »(٢٢) • فكل محاولات الاصلاح عن طريق التدرج وبالنهج الديمقراطى وهم وخداع وأمانى معسولة لخداع الشعوب سواء من العلمانيين أو المسلمين الخطابيين •

وهذا الانقلاب هو الجهاد ، وهو « السعى المتواصل والكفاح المستمر فى سبيل اقامة نظام الحق » (٢٣)؛ وهو الركن السادس من أركان الاسلام دون الاعلان عنه • وان لم يكن ركنا عند البعض فهو فريضة من أجل حماية الاسلام (٢٤) • والجهاد ليس هو ما أطلق عليه الاوربيون الحرب المقدسة بل هو فكرة انقلابية • « الاسلام فكرة انقلابية يريد أن يهدم نظام العالم الاجتماعى بأسره ويأتى بنيانه من القواعد ويؤسس بنيانه من جديد حسب فكرته ومنهاجه العملى • ومن هناك تعرف أن لفظ « المسلم » وصف للحزب الانقلابى العالمى الذى يكونه الاسلام وينظم صفوفه ليكون أداة فى احداث ذلك البرنامج الانقلابى الذى يرمى اليه

---

(٢٢) منهاج الانقلاب الاسلامى ص ٣١ — ٣٢ •

(٢٣) الاسس الاخلاقية للحركة الاسلامية ص ١٧ •

(٢٤) ابو الاعلى المودودى ، مبادىء الاسلام ص ١١٨ — ١٢١ •

الاسلام ويطمح اليه ببصره . والجهاد عبارة عن الكفاح الانقلابى عن ذلك الحركة الدائبة المستمرة التى يقام بها للوصول الى هـذه الغاية وادراك هذا المبتغى » (٢٥) . ودعوة الاسلام الانقلابية ليست موجه للعمال والفلاحين أو الملاك أو أصحاب رؤوس الامـوال بـل موجهة الى البشر كافة ، دعوة الى انقلاب عالمى شامل من أجل رفض سلطة الطواغيت مبعثى الفساد فى الارض من الامراء والملوك والحكام من أجل الانضواء تحت سلطة الله وحده حتى لا يقع المسلمون فى الشرك بين الله والحكام . « فان أبيتم عبودية الله الواحد الفرد الصمد دانت رقابكم للطواغيت الذين علوا فى الارض وتمادى بهم الطغيان فاتخذوا من أنفسهم الهة وأربابا من دون الله . ولن تخلصوا من نير عبوديتهم أبدا فانهم لا محالة يمتلكون ناصية أمركم يعبثون فى الارض فسادا »(٢٦). وتمتاز دعوة الاسلام الانقلابيـة بأنها دعوة الرسل لتجـديد النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وتغييرها تغييرا شـاملا . ومن هنا أتت الحاجة الى الجهاد . فالاسلام ليس مجموعة من المناسك والشعائر بل هو « نظام كلى شامل يريد أن يقضى على سائر النظم الباطلة الجائرة الجارية فى العالم ويقطع دابرها ويستبدل بها نظاما صالحا ومنهاجا معتدلا لا يرى أنه خير للانسانية من النظم الاخرى وأن فيـه نجاة للجنس البشرى من أدواء الشر والطغيان وسعادة له وفلاحا فى العاجلة والآجلة معا »(٢٧) .

---

(٢٥) ابو الاعلى المودودى : الجهاد فى سبيل الله ٢٣ — ٢٤ .

(٢٦) المصدر السابق ص ٣٤ .

(٢٧) المصدر السابق ص ٣٩ .

وحزب الانقلاب هو حزب الله ، حزب الحق والعدل ليكون شهيدا على الناس . ومهمته « أن يقضى على منابع الشر والعدوان ويقطع دابر الجور والفساد فى الارض والاستغلال المقوت وأن يكبح جماح الآلهة الكاذبة الذين تكبروا فى أرض الله بغير الحق وجعلوا أنفسهم أربابا من دون الله ويستأصل شأفة ألوهيتهم ويقيم نظاما للحكم والعمران »(٢٨) . ان حزب الانقلاب هو الوحيد المرشح لأخذ السلطة من أجل القضاء على الفساد . يقول المودودى « ان هذا الحزب لابد له من امتلاك ناصية الامر ، ولا مندوحة له عن القبض على زمام الحكم لان نظام العمران الفاسد لا يقوم الا على أساس حكومة مؤسسة على قواعد العدوان والفساد فى الارض »(٢٩) . لذلك لا يمكن تقسيم الجهاد الى هجومى ودفاعى لان هذين اللفظين يصدقان فقط على الحروب الوطنية . وليس الجهاد فى الاسلام كذلك لانه هجومى ودفاعى معا « هجومى لان الحزب الاسلامى يضاد ويعارض الممالك القائمة على المبادىء المناقضة للاسلام ويريد قطع دابرها ولا يتحرج فى استخدام القوة الحربية لذلك »(٣٠) . هذا الحزب هو الذى يقوم بتنفيذ برنامج الجماعة وهو « أن تستأصل شأفة كل نظام للحياة أسس بنيانه ووضعت قواعده على الانسلاخ من عبودية الله وعدم المبالاة بالمسؤولية الاخروية والاستغناء عن تعاليم الانبياء وارشاداتهم فانه مبيد للانسانية مقوض لدعائمها ، وأن تقيم مكانه نظاما للحياة مبناه على طاعة الله عز وجل

---

(٢٨) المصدر السابق ص ٤١ .

(٢٩) المصدر السابق ص ٤٢ .

(٣٠) المصدر السابق ص ٥١ .

والايمان بالآخرة واتباع الرسل والانبياء فانه لا سعادة للانسانية ولا فلاح فيه »(٣١) . ويفصل المودودى هذا البرنامج فى نقاط أربع : الاولى تطهير الافكار وتعهدها بالغرس والتنمية ومن هنا كان اهتمام المودودى بالتعليم والتربية وتطهير الثقافة . الثانية استخلاص الافراد الصالحين وجمعهم فى نظام واحد وتربيتهم من أجل تكوين الزعامة من الصفوة . والثالثة السعى فى الاصلاح الاجتماعى الشامل فى الدين والدنيا دون اكتفاء بالوعظ والارشاد . والرابعة اصلاح الحكم والادارة لان تغيير نظام الحكم هو السبيل لمنع الفساد فى الارض(٣٢) .

ويحدث الانقلاب عن طريق تكوين جماعة من الصفوة تقـوم بالانقلاب « فانها لا تظهر دولة اسلامية بطريقة خارقة للعادة بل لابد لايجادها وتحقيقها من أن تظهر أولا حركة شاملة مبينة على نظرية الحياة الاسلامية وفكرتها وعلى قواعد وقيم خلقية وعملية توافق روح الاسلام وتوائم طبيعته يقوم بأمرها رجال يظهرون استعدادهم التام للاصطباغ بهذه الصبغة المخصوصة من الانسانية ، ويسعون لنشر العقلية الاسلامية، ويبذلون جهودهم فى بث روح الاسلام الخلقية فى المجتمع »(٣٣) . ثم تتحول هذه الصفوة شيئا فشيئا الى حركة شعبية شاملة « تقوم هذه الحركة الشعبية وتنهض وتقوى حتى تغير بجهادها المستمر العنيف أسس الجاهلية الفكرية والخلقية والنفسية والثقافية السائدة فى الحياة

---

(٣١) واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ص ٦ — ٧ .

(٣٢) المصدر السابق ص ٥٦ — ٦٢ .

(٣٣) منهاج الانقلاب الاسلامى ص ٢٠ .

الاجتماعية وتأتى بنيانها من القواعد »(٣٤) • وكلما كانت الصفوة مختارة كان نجاحها أعظم • يقول المودودى : « ان اعلاء كلمة الله والدعوة الى القيام بها تحتاج الى رجال ذوى صلاح . يتقون الله فى السر والعلن ممن لا يلهيهم عن العمل بالشريعة والاستمساك بعروتها شىء من مطامع الدنيا ولا تصرفهم عن ذلك العقبات والشدائد • ولا يهم الدعوة بعد ذلك هل برز للعمل أمثال هؤلاء الرجال من الذين ورثوا الاسلام عن آبائهم أو من قبلوا هذه الفكرة بأنفسهم • وأيم الحق ان عشرة رجال من أمثال هؤلاء أرجح كفة وأثقل وزنا فى ميزان الدعوة الاسلامية من الآلاف المؤلفة من ضعاف الاخلاق »(٣٥) • هؤلاء الرجال يكونون الزعامة الحقة التى لا تبغى النفع العاجل ولا تنظر الى مصالح قومها بل هى الزعامة التى تحقق حاكمية الله الاوحد كما فعل رسل الانسانية وكما تثبت سنن الله فى الكون • ويحدد المودودى الدعوة الاسلامية فى ثلاث مبادىء : عبادة الله ، تطهير النفس ، والانقلاب العام • ويقول المودودى شارحا المبدأ الثالث : « ودعوتنا لجميع أهل الارض أن يحدثوا انقلابا عاما فى أصول الحكم الحاضر الذى استبدت به الطواغيت والفجرة الذين ملأوا الارض فسادا وأن ينتزعوا هذه الامامة الفكرية والعملية من أيديهم حتى يأخذها رجال يؤمنون بالله وباليوم الآخر ويدينون بدين الحق ولا يريدون علو فى الارض لا فسادا » (٣٦) •

---

(٣٤) المصدر السابق ص ٢٤ •

(٣٥) المصدر السابق ص ٢٨ — ٢٩ •

(٣٦) ابو الاعلى المودودى : تذكرة دعاة الاسلام ص ٧ — ٨ •

وأهم عنصر فى هذه الجماعة هو تربيتها وتأهيلها للزعامة وذلك عن طريق التربية الخلقية . الغاية هو « احداث انقلاب فى القيادة » قبل أن يحدث الانقلاب فى الشعب وأعنى بذلـك أن أقصى ما نبتغى الوصول اليه والظفر به فى هذه الدنيا أن نطهر الارض من أدناس قيادة الفسقة الفجر وسيادتهم ونقيم فيها نظام الامامة الصـالحة الراشدة . فهذا السعى والكفاح المتواصل نراه أكبر وأنجع وسـيلة موصلة الى نيل الرب تعالى وابتغاء وجهه الاعلى فى الدنيا والآخرة ... فان أراد أحد اليوم أن يطهر الارض ويستبدل فيها الصلاح بالفساد والامن بالاضطراب والاخلاق الزكية بالاباحية والحسنات بالسيئات لا يكفيه أبدا أن يدعوهم الى الخير ويعظهم بتقوى الله وخشـيته ويرغبهم فى الاخلاق الحسنة بل من المحتوم عليه أن يجمع من عناصر الانسانية الصالحة ما يتمكن من جمعه ويجعل منها كتلة متضامنة وقوة جماعية تمكنه من انتزاع زمام الامر من الذين يقودون موكب الحضارة فى الدنيا واحداث الانقلاب المنشود فى زعامة الارض وامامتها »(٣٧) .

يجب اذن تكوين زعامة طاهرة فى مواجهة الاغلبية الدنسة من أجل تحويلها الى جماعة طاهرة لان غاية الدين الحقيقية هى اقامة نظـام الامامة الصالحة الراشدة وتوطيد دعائمه فى الارض » وكل ذلـك يتوقف تحققه على القوة الجماعية . والذى يضعضع القوة الجماعية ويفت فى عضدتها يجنى على الاسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها ... ثم اذا لم يكن من الممكن تحقيق هذا المقصد الاسلامى الا بالمساعى الجماعية لم

---

(٣٧) أبو الاعلى المودودى : الاسس الاخلاقيـة للحركة الاسلامية ص ٩ — ١١ .

يكن بد من أن تكون فى الارض جماعة صالحة تؤمن بمبادىء الحق وتحافظ عليها ولا تكون لها غاية فى الحياة الا اقامة نظام الحق وارادة شؤونه »(٣٨) ٠

وتقوم التربية الخلقية للزعامة على القوانين المادية والمعنوية ٠ فالانسان موجود طبيعى تسرى عليه سائر قوانين الطبيعة ولكنه أيضا موجود خلقى لا يذعن للطبيعة بل يسيطر علها ويتحكم فيها٠ فالاخلاق هى مناط رقى الانسان وانحطاطه ٠ وهى نوعان : الاخلاق الانسانية الاساسية ، والاخلاق الاسلامية ٠ فالاولى مثل « قوة الارادة والمضاء فى الامر والعزم والاقدام والصبر والثبات والاناة ورباطة الجأش وتحمل الشدائد والهمة والشجاعة والبسالة والنشاط والشدة والبأس والولوع بالغاية والاستعداد للتضحية بكل شىء فى سبيل تحقيقها ، والحزم والحيطة وادراك العواقب والقدرة على تقدير المواقف المختلفة » ٠٠٠ وهذه كلها صفات القيادة الحازمة والزعامة الصلبة ٠ أما الاخلاق الاسلامية فلها مهام ثلاث : الاولى تزويد الاخلاق الانسانية بمركز صحيح وقطب مستقيم اذا اقترنت به حولها الى الخير والرشد وهو ما توفرها الزعامة بوجودها ٠ والثانية تأصيل الاخلاق الانسانية وتوسيعها وتطبيقها وتقويتها مثل الصبر والمثابرة والجهاد وهو ما توفره الزعامة أيضا بقدوتها ٠ والثالثة تطهير القلب من أدران الاثرة والانانية والظلم والخلاعة والاستهتار وهو ما توفره الجماعة أيضا بايمانها ٠ زعامة الجماعة اذن تجمع بين الاخلاق الاساسية والاخلاق

---

(٣٨) المصدر السابق ص ١٦ ص ١٨ ٠

الاسلامية وتستخدم الوسائل المادية والمعنوية لتحقيق غايتها • وهى وان كانت قلة من حيث الكم الا أنها كثرة من حيث الكيف(٣٩) • ويضع المودودى أربع مراتب للاخلاق الاسلامية يتدرج المسلم فيها من بدايتها الى نهايتها فيصل الى رتبة الزعامة • الايمان وهو مجرد اقرار باطنى ثم الاسلام حيث يظهر الايمان من الباطن فى عمل للجوارح ثم التقوى وهو عود الى الباطن من أجل خشية الله ثم الاحسان وهو عود الى العالم الخارجى لبدأ النضال الجماعى من خلال الجماعة(٤٠) • ويحدد المودودى منهاج العمل للجماعة بثلاث مبادىء : الاصطباغ بالدين كلية . وتقوية أواصر الصداقة والقرابة ، والصبر على الشدائد والثبات فى المصاعب • ويعدد مميزاتها فى أربع : أنها جماعة تقوم على المبدأ ، راسخة العقيدة ، حسنة الاخلاق ، قادرة على الكشف عن اللثا (٤١) • يقول المودودى : « لانه فى مثل هذا الكفاح والمقاومة يمتحن القائمون بالدعوة وحاملوا لوائها بأنواع المصائب والشدائد فيقاسون الآلام والاهوال ضربا وقتلا واجلاء عن الوطن . ويبذلون مهجهم وأرواحهم بكل صبر وجلد واخلاص وعزم ويبتلون بالشدائد ويفتنون »(٤٢) •

ويبرز المودودى دور الطلبة فى بناء مستقبل العالم الاسلامى مما يفسر اقبال الطلاب خاصة على الجماعات الدينية • فالطلبة هم قـادة

---

(٣٩) الاسس الاخلاقية للحركة الاسلامية ص ٢٠ — ٤٥ .

(٤٠) المصدر السابق ص ٤٦ — ٦٨ .

(٤١) تذكرة دعاة الاسلام ص ٢٠ — ٣٢ .

(٤٢) منهاج الانقلاب الاسلامى ص ٢١ — ٢٢ .

الوعى . القادرون على الفكر والمؤهلون للزعامة . الطلاب فى البلاد الاسلامية فى أوضاع متجانسة يرون انهزام الامة أمام الاستعمار وأثر الحضارة الغربية فى ثقافاتهم . وبالتالى فعلى عاتقهم يقع تحويل التراث الحضارى الى الاجيال القادمة . وهناك طريقان لذلك . الاولى تخص الطلبة والثانية تخص الحكومات . فما يخص الطلبة هو تربيتهم على مبادىء الاسلام الثلاث : مبدأ التوحيد ومبدأ الرسالة ومبدأ البعث بعد الموت ، وضرورة تركيز الجهود للمحافظة على هذه المبادىء من أجل الاستمساك بالاخلاق الاسلامية والحضارة الاسلامية أمام جرائم الذين ينشرون الثقافات العاهرة فى الشباب الاسلامى ووسط انتشار الخيانات فى المجتمع . أما ما يخص الحكومات فهو ضرورة التربية العسكرية على مبادىء الاسلام حتى يمكن للشباب تحقيق أهداف الاسلام(٤٣) .

والحقيقة أن كل ما يقوله المودودى لحل هذه الثنائية المتعارضة صحيح من حيث المبدأ ولكن الخلاف فى التطبيق . فلا يمكن ادانة الواقع كله وهدمه وتقويضه ثم اعادة البناء من جديد . بل الممكن هو تطوير والواقع تماما وبالتالى تتحقق الحاكمية لله . فادانة الواقع كله لاتسمح والواقع تماما وبالتالى تتحقق الحاكمة لله . فادانة الواقع كله لا تسمح بالتعامل معه بل تسبب النفور من كل محاولات الاصلاح والتغيير . صحيح أن هذه الثنائية المتعارضة تعبر أيضا عن البناء الثقافى للمجتمعات

---

(٤٣) أبــو الاعلى المودودى : دور الطلبة فى بنــاء مستقبل العالم الاســلامى .

المتخلفة التى لا تعرف التوسط بين الاطراف الا آن اكتشاف الواقع هو الذى يمكن أن يجمع الاطراف المتصارعة حوله • فالواقع ليس حقا أو باطلا ، خيرا أو شرا ، بل هو الواقع ذاته يتغير ويتحرك ويتبدل • هو ميدان العمل والجهاد والكفاح المتواصل • ان توجيه نشاط الجماعات الاسلامية الى البناء وحل المشاكل الاساسية التى تعرض لها مجتمعاتنا مثل الفقر والامية ونقص الخدمات هو السبيل لاكتشاف الواقع • وان اعادة البناء هو خير من الهدم •

٥ ــ الايمان والطاعة :

الدين هو الايمان والتسليم بمعطياته دون أعمال لعقل أو اقامة لبرهان على صحة هذا الايمان أو حتى مضمون اجتماعى له • والايمان أكثر عاطفة وانفعالا وأقل عقلا وبرهانا • لذلك غاب الحوار ، وانعدم النقاش ، وزادت الحمية الدينية ، وانقلبت الى تعصب وهوس •

عندما يتحدث المودودى عن مبادىء الاسلام فانه لا يتحدث عن الايمان بالواقع عن طريق الحس والمشاهدة وبطريق العقل والاستدلال ولكنه يتحدث عن الايمان عن طريق النبوة ، نبوة الرسل • فالعقل البشرى يتخبط فى طريقه ، والمعرفة البشرية ناقصة وخاطئة ، والانسان جاهل ونزاع للهوى • أما الرسل فهم أكمل البشر وأفضل الخلق لذلك هم مصدر العلم والمعرفة • النبوة اذن هو الطريق الى العلم الصحيح، ليس عن طريق الجهد البشرى بل عن طريق الوحى والالهام • والدليل على صدق النبى هو المعجزة أى الدليل الخارجى المحض • النبوة

ضرورية للانسان لان الانسان لا يكفى ذاته • ان استطاع معرفة دنياه فانه قاصر على معرفة آخرته(٤٤) •

أما مضمون النبوة فهو دينى خالص ، الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وعلى رأسه تصور الالوهية وصفاتها • يغيب عنه المضمون الاجتماعى الذى يربط الايمان بقضايا الواقع حتى لا ينغلق على نفسه فيتصلب ويتحول الى هوس دينى • والعجيب أن يجعل المودودى نسبة التصوف الى الفقه نسبة الدين الى الشريعة ، التصوف شريعة للباطن والشريعة شريعة للظاهر • والمسلم من يجمع بين الشريعتين وأصبح باطنيا فى سره ظاهريا فى علنه : يتصوف ويقيم الشعائر(٤٥) •

ويقوى ذلك ما يسود مجتمعاتنا من دعاية للايمان لان الايمان يعنى التسليم ، والتسليم بالمعطيات مسبقا يخدم النظم السياسية لانه يضمن لها طاعة الجماهير والتسليم المسبق بما تعطيه لها الصفوة الحاكمة • كما أنه الطابع العام المميز للمجتمعات المتخلفة اذ يقاس التقدم بمقدار ما يتوفر فى المجتمع من عقلانية وممارسة للنقد • ويمكن بطبيعة الحال التخفيف من حدة هذا الايمان الانفعالى عن طريق عمل العقل ، وطلب البرهان ، وتحليل المعطيات ، والتفرقة بين التمنى والرغبات من ناحية وبين الفكر الموضوعى من ناحية أخرى •

---

(٤٤) مبادىء الاسلام ص ٣٠ — ٣٥ ص ٦٤ — ١٠٣ •

(٤٥) المصدر السابق ص ١٢٦ — ١٢٩ •

ويقترن الايمان بالطاعة فان أى تنظيم اجتماعى لابد أن يقــوم على الايمان الراسخ لاعضائه وعلى طاعة الامــير • وقــد انهارت المجتمعات الاسلامية لفقدانها هاتين الدعامتين (٤٦) • والطاعة مطلقــة تنفيذا للاوامر ودون مناقشة لما تقتضيه الحاكمية لله • وقديما عرف الصوفية التصوف بأنه « الاعراض عن الاعتراض » •

ويعرف المودودى الاسلام حسب التعريف الشائع بأنه الانقياد والاستسلام • فالكون كله منقاد لقاعدة معينة وكذلك حياة الانسان • أما الكفر فهو العصيان والجهل والظلم والخسران المبين • ويقرن بين الايمان والطاعة ، ويجعل حاجة الانسان الى العلم واليقين من أجل الطاعة وليس لاجل الرفض • يجعل الايمان الانسان مطيعا منفــذا للاوامر والاحكام ، ومن لايؤمن بالله يكون رافضا عاصيا خارجا •وأن طاعة النبى واجبة فيما نفهم وفيما لانفهم • أما العبادة فهو أيضــا خضوع العبد للرب • وأحكام الشريعة تطلب من الانسان حق الله فى الطاعة والايمان والانقياد (٤٧) •

ويحدد المودودى الصفات اللازمة للعاملين فى الحركة الاسلاميه على نوعين : فردية وجماعية • فالفردية تشــمل الخضــوع للاوامر والنواهى • وطبقا لهذا الخضوع تتحدد درجات الجهاد ثم الهجرة ثم بداية الحرب مع البيئة المحيطة ابتداء من المنزل حتى المجتمع • أمــا

---

(٤٦) نحن والحضارة الغربية ص ٢٣٣ — ٢٤١ •

(٤٧) مبادىء الاسلام ص ٣ — ١٣ ص ٢١ — ٢٩ ص ٣٥ — ٣٧ ص ١٠٥ — ١٠٦ ص ١٣٤ — ١٣٨ •

الجماعية فانها تهدف الى تحريك الجماعة عن طريق أواصر الصداقة والقرابة • والمجاهد فى سبيل الله تتحدد علاقته بالله بالتفهم والتفكر أولا وبالعمل ثانيا • وتقوى علاقته بالله بالصلاة وذكر الله والصوم والانفاق • ومقياس علاقته بالله ايثاره الآخرة على الدنيا • ولا مكان للانتقـاد الاجتماعى الا عن طريق اسـداء النصح والمشورة لامراء الجماعة لان واجب المجاهد أولا هو الالتزام بالسمع والطاعة • لايكون الانتقاد فى كل حين ومجلس بل بناء على طلب من أمير الجماعة المحلية مع توخى رقابة الله ودون اطالة مع توقع عما يأتى عن الانتقاد الزائد من الفساد (٤٨) •

وتبدو هذه الطاعة فى الولاء المطلق لاعضاء الجماعات الدينيـة لامرائهم ، وفصل كل من يشق عصا الطاعة عليها لدرجة التهديد بالقتل ، وتنفيذ الاوامر بالقتل والعنف والاستيلاء على مؤسسات الدولة دون تفكير أو مناقشة أو اعتراض أو حتى مراجعة • وهنا تتحدد حاكمية الدولة بحاكميه الامير طبقا للتفسير الشائع لآية « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » • بل ويتم التحكم فى أعضاء الجماعة حتى فى أحوالهم الشخصية من زواج وطلاق أو عمل فى الدنيا وهجرة الى الأخرة •

ويقوى ذلك الطابع التسلطى لمجتمعاتنا المعاصرة التى يسودها أيضا هذا النمط من السلوك طبقا للتصور الهرمى للعالم • فالحاكمية للسلطان الذى يأمر فيطاع دون جدل أو نقاش حتى ولو أعترضت على

---

(٤٨) تذكرة دعاة الاسلام ص ٣٢ — ٨٢ .

أوامره وقوانينه بعض جماعات المعارضة • وبالتالى تعبر أيديولوجية التسلط ليس فقط عن الحاكمية لله بل أيضا عن الاوضاع السياسية فى مجتمعاتنا المعاصرة ؛ كل منها يقوى الآخر ويغذيه • تقوى هذه الطاعة نظمنا السياسية المعاصرة التى يدين لهــا المواطن بالــولاء • فتعتقل المعارضين ، وتتهمهم بالمروق والعصيان . وتــدين حركــات الرفض • وتصف الثوار بالكفر والعمالة والالحاد •

ويمكن التخفيف من حدة هذه الطاعة العمياء عن طريق اذكاء روح المعارضة فى المجتمع ، وافساح المجال للتعبير عن مختلف الآراء . وعدم سيادة الرأى الواحد والارادة الواحدة ؛ وسماع آراء الشباب بدلا من تلقينهم للمذاهب السياسية والمعتقدات الدينية أو دفعهم نحو المراجعة والتمحيص ، وعدم قبول شىء على أنه حق أن لم يثبت بالدليل أنه كذلك • ويبدو أن المأساة هو ظهــور هــذه الجماعات الدينية فى مجتمعات متخلفة نظرا لان الطاعة العمياء وغياب النقد هى احــدى سمات التخلف الحضارى حتى ولو ظهرت مثــل هــذه الجماعات فى المجتمعات الصناعية المتطورة •

٦ ــ المحارم والطقوس :

الحجاب والستار والمحرم علامــات مميزة للجماعات الدينيــه تخصها عن غيرها من الجماعات تأكيدا للهوية الدينية والانفصال عن باقى المجتمع • فجسم الانسان به أجزاء محرمة لابد من تغطيتها ؛ والعلاقات الانسانية بها جوانب محرمة لايجب الاقتراب منها • ويصل الامر الى تصور العالم مملوء بالمحرمات التى تتحول الى مقدسات

كما هو الحال فى المجتمعات المتخلفة • والاخطر من ذلك آن يتحــول ذلك المجهول الى نشاط سرى والى تحول الجماعات الدينية الى جماعات باطنية تخضع لقوانين العالم السرى ، عالم ماتحت الارض • ومعروف أنه يغلب على هذه الجماعات الطابع السرى على ماهو معروف فى فرق الشيعة لانها جماعات مناوئة للنظم القائمة ؛ وتبدأ بالعمل السرى فى الخفاء قبل أن تظهر فى العلن •

لذلك تظهر مسألة الحجاب وكأنها مسألة جوهرية فى الاســلام وفى تنظيم الجماعات الدينية • وتبدو مسائل الجنس والزواج وغض الطرف وعدم لمس يد النساء والهجوم على حفلاف التعارف والرحلات والجلوس المشترك للطلبة والطالبات فى الجامعات ؛ كل ذلك فتنـــة وشبهات ! فالانسان حيوان مملوء بالرغبات والشهوات والغرائز التى يجب كبح جماحها وذلك عن طريق المحرمات أى اقتصاص جوانب فى الانسان لايمكن الاقتراب منها بل معاملتها بالكبت والحرمان مثــل الجنس المحرم • ويفصل المودودى أحكام اللباس وستر العورات وحدود العورة للرجال وحدود العورة للنساء وتحريم منــع الخلوة واللمس وضرورة الاستئذان • كما يحرم النظر الى النساء ويمنع ابداء الزينة ويطالب باصلاح الباطن لمقاومة الشهوات والفتن : فتنة النظــر وفتنة اللسان ، وفتنة الصوت ، وفتنة الطيب وبطبيعة الحــال فتنة العرى • ولما كان عمل المرأة فى منزلها الا عن حاجة ترخص لهـــا الخروج فانه يؤذن بحضور المساجد والحج وخروجها للجمعة والعيدين وزيارة القبور واتباع الجناز • والرجل قوام عليها ومســؤول عن

معاشها وتربيتها وصلاحها (٤٩) • وفى كل كتاب يعقد المودودى فصــلا عن المرأة وملك اليمين وماتمت اليد والزواج والطلاق وكأنها موضوعا خاصا له كيانه وقانونه الخاص (٥٠) •

وينتج عن هذا أخلاق التزمت والالتزام بالشـــعائر والطقوس والمظاهر الخارجية • ويتحول الدين الى مجرد أعمال للجوارح كنوع من الاعلان عن النفس والدعاية الدينية المرئية التى يلاحظها كل الناس• فعن أسهل اطالة اللحى بدعوى السنة ، ومسك السبحة بدعوى ذكــر الله . ولبس الجلباب الابيض بدعوى الزى الاسلامى ، واقامة الصلاة فى الكليات والمعاهد ودور العلم بدعوى الايمان • فمبادىء الاسلام هى الاركان الخمس (٥١) . وقانونه هو قانون العقوبات ، وحدوده لمن يقترب من المحرمات . والشريعة وضعت القيود لزجر النفس وكبح جماح شهواتها وعقابها حتى أصبح العالم كله مغلغلا بالشريعة ، وكل شىء محكوم عليه بقانون • فضاعت البراءة الاصلية وانعدم السلوك الفطرى• وكل مالم يذكر اسم الله عليه من الذبائح فهو حرام حتى ولو كانت ذبائح أهل الكتاب (٥٢) • ويحدث هذا كــرد فعل عما يحدث فى المجتمع المتخلف من انحلال خلقى واثارة جنسية ينشأ بعده التزمت المضاد

---

(٤٩) ابو الاعلى المودودى : الحجاب ص ١٥١ — ٢٣٥ .

(٥٠) مبادىء الاسلام ص ١٤١ — ١٤٤ ، تدوين الدستور الاســلامى ص ٨٤ — ٩٣ .

(٥١) مبادىء الاسلام ص ١٠٧ — ١١٨ .

(٥٢) أبو الاعلى المودودى : الذبائح .

عند الاتقياء . هذا بالاضافة الى أن المجتمع المتخلف يتسم بالتشدق بالفضائل والرغبة فى الاعلان عن التقوى فى مظاهرها الخارجية حتى يفعل الباطن مايشاء بغير حساب كما هو الحال عند المنافقين .

ويظهر نشاط الجماعة نظرا لغياب أى نشاط سياسى آخر لاى حزب أو جماعة . فيبدو فريدا نظرا للسلبية التامة لمعظم التنظيمات السياسية . ويظهر سريا نظرا لغياب أى نشاط اسلامى علنى يدعو الى تحقيق الحاكمية لله بعد القضاء على نشاط الاخوان المسلمين منذ ١٩٥٤ حتى الآن . ويمكن التخفيف من حدة التزمت الدين عن طريق العودة الى الفطرة والى البراءة الاصلية التى تحدث الاصوليون عنها ، ففطرة الانسان بطبيعته تدفعه نحو الخير ، والبراءة الاصلية فى العالم ، الاشياء على الاباحة مالم يرد فيها تحريم . تجعله خارج نطاق المحرمات . ويمكن القضاء على كل المحرمات والاسرار « التابو » عن طريق العلم والمعرفة . فلا حياء فى الدين ، والانسان قادر على معرفة ذلك المجهول حتى ولو كانت أعضاء بدنه أو بدن الغير .

ومن مظاهر التزمت الدينى مايذكره المودودى باستمرار عن أهل الذمة وحقوقهم فى الدولة الاسلامية والبداية بتقسيم مواطنى الدولة الواحدة الى مسلمين وذميين مما يثير الضغائن والاحقاد ويبعث على الطائفية والفتن وكأن الدولة الاسلامية أصبحت قاب قوسين أو أدنى أو كأنها قد تحققت بالفعل وأخذ المسلمون حقوقهم والآن جاء الدور على أهل الكتاب وأخذوا حقوقهم والآن نبحث عن واجباتهم . بل ويصنف المودودى أصناف الرعية غير المسلمة وهى كلها أصناف نظرية خالصة بالنسبة للعصر الحاضر ومجرد تمييزات فقهية تأتى من بطون

الكتب تضر اكثر مما تنفع (٥٣) .

ومن مظاهر التزمت الدينى أيضا الهجوم على حركة تحديد النسل وبيان أسباب نشأتها فى الدول الصناعية كضرورة من ضرورات الصناعة وكنتيجة لعمل المرأة . ولكن آثارها على الغرب كانت وخيمة فيما يتعلق بكثرة الفواحش ، والامراض الخبيثة ، وكثرة وقائع الطلاق، وانخفاض نسبة المواليد . أما الاسلام فانه يترك خلق الله على الطبيعة لانه يعلم مضار هذه الحركة فى الجسد والروح وفى الحياة المدنية والاجتماعية وفى الاخلاق وفى النسل والحياة القومية . ويمكن علاج مشاكل الامة عن طريق اعادة تنظيم اقتصادها وتوزيع مواردها وليس عن طريق خنق امكانياتها البشرية . وهو وان كان على حق من حيث المبدأ الا أن سبب التحريم ليس هو الطبيعة بل ضرورة الثورة السياسية فى مجتمعاتنا من أجل أعادة توزيع الدخل القومى على أساس من العدل والمساواة . والعجيب أن يدين المودودى الفكر الطبيعى فى الغرب وينادى بالطبيعة فى هجومه على حركة تحديد النسل (٥٤) .

والاغرب من ذلك كله هو تأكيد المودودى على الملكية الخاصة فى الاسلام ملكية الارض بموجب القرآن والحديث ورفضة جميع أنواع الاشتراك فى فلاحة الارض مثل المزارعة . والاغرب من ذلك

---

(٥٣) أبو الاعلى المودودى : حقوق أهل الذمة فى الدولة الاسلامية وأيضا ، الجهاد فى سبيل الله ص ٥٢ — ٥٤ .

(٥٤) أبو الاعلى المودودى : حركة تحديد النسل .

كله هو وقوفه أمام الاصلاح الزراعى ونفيــه للتأميم والمساواة فى توزيع الثروة ودفاعه عن حقوق الملكية وانكاره لاية قيود عليها التى لا أصل لها الا فى هوى النفس وكأن الجماعات الدينية المغلقة تؤدى الى الاستحواذ على الاشــياء والتســلط على المــادة وتجعــل المقصــود من حــدود الله اثبــات حــق الملكيــة الفرديــة فى حين أن مثــل هــذه الجماعــات عــادة تكون ذات نزعــة اشتراكيــة • ولكن ظهورها فى المجتمعات المتخلفة التى مازالت خاضعة لتأثير الثقافة الغربية وعلى رأسها الفكر الرأسمالى جعلها تنحو نحوا رأسماليا فى تصورها للملكية ممــا يدل على أنها جماعات تسلطية أكثــر منهــا « كوميونات » للحياة المشتركة (٥٥) •

خاتمــة :

يتضح من هذا البناء النظرى لفكر أبى الاعلى المودودى الآتى :

١ — لقد ظهر التوحيد الاسلامى ، وهى عقيدة الاسلام الاولى ، فى صورة ثنائية متصارعة فتحول التوحيد فى فارس الى مانوية ثنوية، حاكمية الله ضد حاكمية البشر ، النور والظلمة ، وتجعل حياة الانسان صراعا بين النور والظلمة ، ونجاته بانتصار أحدهما على الآخر • وهو تصور يخيل حياة الانسان الى جحيم ويقضى على حدوثه واطمئنانه ويجعل الجهاد حريقا ، والمسلمين حطبا • أما التوحيد الاسلامى فهــو

---

(٥٥) أبو الاعلى المودودى : مسالة ملكية الارض فى الاسلام وايضا نظرية الاسلام السياسية ص ٣٦ .

تحويل الوحى كنظام مثالى للعالم عن طريق محو الثنائية بين الواقـــع والمثال . وهو معنى تطبيق الشريعة أو اقامة الدولة الاسلامية .

٢ — يبعد الفكر الدينى عند المودودى عن الايديولوجية المستنيرة التى تقوم على البناء النظرى المضاد . فحاكمية البشر تعنى الاتفاق الجماعى على الصالح العام خاصة وأن حاكمية الله لاتفعل مباشرة الا من خلال البشر فى جماعة معينة وفى نظام سياسى خاص وتحت زعامة محددة . وطالما استعملت حاكمية الله كتبرير لحاكمية البشر واضفاء السلطة عليها . واستقراء الصالح العام مضاد للتنزيل واحكام للمتشابه: والبدأ باسباب النزول قبل التنزيل وبالتالى البحث عن العلل المادية المباشرة التى تؤثر فى سلوك الناس . والعقل والرفض مضادان للايمان والطاعة وتحويل المجتمع السلبى الى مجتمع ايجابى . يراجع الحاكم فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . والاعمال الصالحة على الضد من الشعائر والطقوس وتعبر عن جوهر الاسلام وتفرده عن غيره من الديانات . والطبيعة على النقيض من السر ، والكشف على الطـــرف الآخر من الستر والحجاب . وقد استطاع المعتزلة من قبل صياغة هذه الايديولوجية المستنيرة القائمة على العقل والحرية والشورى والطبيعة والانسانية والتقدم . ولكن يبدو أن معاصرينا لم يلحقوا بعد بالسابقين علينـــا .

٣ — ولا تتحقق الدعوات مرة واحدة بلا مراحل واعداد مسبق . وان ادانه كل ماهو موجود والتشريع من جديد ، وهدم كل ماهو قائم

والبناء من جديد ليعبر عن عاطفة غضب وتدمير أكثر ممـا يعبر عن التغير الثورى • فالعلمانية لاشك أنها تمثل مكسبا للفكر الدينى•ولايمكن هدمها بل اكمالها • وكذلك القومية والديموقراطية والاشتراكية ذهـا تمثل مكاسب انسانية لايمكن هدمها بل اكمالها • وكل دين لم يأت انسخ الدين السابق ولكن لاكماله • ولو كان اللاحق هادما للسابق كما حدث تراكم حضارى بشرى ولعادت البشرية باستمرار لما بدأت ولما تقدمت عن نقطة الصفر •

٤ — لايتم التغير الاجتماعى بتغيير الصفوة ونقل الزعامة من فئة الى فئة أخرى • فتغير السلطة على القمة قد لايغير البناء الاجتماعى والهيكل الاقتصادى والتصورات الذهنية للامة • انما يحدث التغير الاجتماعى بتغير تصورات الناس للعالم التى توجه سلوكهم : وتعطيهم البواعث : وتمدهم بالغايات • وليست الزعامة الا أحد أطراف ثلاثة مع الفكر الثورى والجماهير المجندة • وتركيز المودودى على الصفوة هو تفكير انقلابى ،يغير المجتمع بتغير السلطة . وهو أضعف ما فى الفكر السنى المعروف فى القول المأثور « ان الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » • وما أسهل معارضة الانقلاب بانقلاب آخر . وتظل الجماهير متفرجة ويظل فكرها خامدا مستكينا خاملا •

٥ — لاتحدث التغيرات الثورية الدائمة عن طريق العنف بـل بتوعية الامة حتى تأتيها السلطة طوعا لاكراهية . واختيارا لا اجبارا •

والعنف لا يولد الا العنف سواء من الدولة ضد الجماعة الدينية أو من الجماعة الدينية ضد الدولة ، جهد ضائع ، وأمة تأكل بعضها بعضا . وتقتال على السلطة ، وحروب أهلية ، وانقسامات وفتن . ان العنف استباق للاحداث ، واصطناع للثورة ، يخيف الاغلبية ، ويشكك الناس فى الثورة أكثر من اطمئنانهم لها . لايقدر عليه كل فرد ، ولا تحبذه كل جماعة ، ولا ترضاه كل حضارة .

٦ — لايحدث التغيير الثورى فى جيل واحد بل قد يستغرق عدة أجيال . المهم أن يعرف كل جيل دوره فى الثورة وفى أية مراحل الثورة هو يعيش حتى لايقوم بدور لم يحن بعد وحتى لايعيش حياة جيل لاحق ويفقد حياته ويضيع دوره . قد لاترى أجيالنا الحاضرة الدولة الاسلامية التى ضاعت منذ صدر الاسلام ولكننا الممهدون لها . اذ لا يمكن القضاء على تخلف عدة قرون تبلغ الالف عام فى قرنين من الزمان منذ بدانا حركاتنا الاصلاحية الاخيرة . ولكن عذر الشباب أنهم يتصورون أنهم شيوخا عاشوا سنينا طويلا أو أحفادا يعيشون قرونا تالية . وفرق بين الحلم واليقظة ، وشتان مابين التمنى والواقع . فالزمن هو مادة الثورة وحركاتها ومقياس فشلها أو نجاحها . فلا توجد ثورة خارج التاريخ ، ولايوجد تاريخ بلا مراحل .

اولا : مؤلفات ابى الاعلى المودودى (٥٦) :

١ ــ الحكومة الاسلامية • نقله الى العربية أحمد ادريس ، المختار الاسلامى ، الطبعة الاولى ١٩٧٧ •

٢ ــ منهاج الانقلاب الاسلامى • تعريب محمد عاصم الحداد • دار الفكر •

٣ ــ الاسس الاخلاقية للحركة الاسلامية • تعريب محمد عاصم الحداد ، مكتبة الشباب المسلم •

٤ ــ نظرية الاسلام السياسية ، تعريب محمد عاصم الحداد ، دار الفكر ، دمشق •

٥ ــ مسألة ملكية الارض فى الاسلام • تعريب محمد عاصم الحداد ، مكتبة الشباب المسلم •

٦ ــ تدوين الدستور الاسلامى • دار الفكر •

٧ ــ القانون الاسلامى وطرق تنفيذه ، تعريب محمد عاصم الحداد ، دار الفكر •

٨ ــ مبادىء الاسلام ، دار الانصار ، القاهرة •

٩ ــ تذكرة دعاة الاسلام • دار الانصار ، القاهرة •

---

(٥٦) نأسف لعدم ذكر مؤلفات المودودى كما يجب بذكر اسم المترجم ، والطبعة ، ودار النشر ، ومكان النشر ، والسنة ، بل ذكرنا فقط الموجود منها على اغلفة الكتب أو بداخلها .

١٠ — دور الطلبة فى بناء مستقبل العالم الاسلامى . دار الانصار . القاهرة .

١١ — الجهاد فى سبيل الله ، دار الاعتصام ، القاهرة

١٢ — نحن والحضارة الغربية ، دار الفكر .

١٣ — واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم تعريب محمد عاصم الحداد ، مكتبة الشباب المسلم .

١٤ — الاسلام والمدنية الحديثة . المختار الاسلامى .

١٥ — الاسلام اليوم ، دار التراث العربى .

١٦ — الحجاب ، دار التراث العربى .

١٧ — الذبائح ، المختار الاسلامى .

١٨ — حركة تحديد النسل ، دار الفكر ، الطبعة الاولى ١٩٦٥ .

١٨ — حقوق أهل الذمة فى الدولة الاسلامية ، دار الفكر .

٢٠ — المبادىء الاساسية لفهم القرآن ، دار التراث العربى .

٢١ — تفسير سورة النور ، دار الاعتصام .

٢٢ — الاسلام والجاهلية ، لجنة الشباب المسلم .

ثانيـــا : مؤلفات أخرى لابى الاعلى المودودى :

١ — المصطلحات الاربعة فى القرآن ، مكتبة الشباب المسلم .

٢ ــ البيانات . مكتبة الشباب المسلم .

٣ ــ أسس الاقتصاد بين الاسلام والنظم المعاصرة . مكتبة الشباب المسلم .

٤ ــ نظرية الاسلام الخلقية ، مكتبة الشباب المسلم .

٥ ــ نحو الدستور الاسلامى ، مكتبة الشباب المسلم .

٦ ــ الدين القيم ، مكتبة الشباب المسلم .

٧ ــ معضلات الاقتصاد وحلها فى الاسلام . مكتبة الشباب المسلم .

٨ ــ نظام الحياة فى الاسلام ، مكتبة الشباب المسلم .

٩ ــ المسألة القاديانية ، مكتبة الشباب المسلم .

١٠ ــ شهادة الحق ، مكتبة الشباب المسلم .

أثر الامام الشهيد سيد قطب على الحركات الدينية المعاصرة

بالرغم من ظهور الفكر أولا فى ظروف اجتماعية معينة ومرحلة تاريخية محددة ثم استقلاله عنها ثانيا واحتوائه على أبنية خاصة به تصبح واقعا جديدا له وأساسا يرتكز عليه حتى انه ليصبح موجها لسلوك الناس ومنبعا لتصوراتهم للعالم الا أنه يمكن أن يتطور وطبقا للظروف النفسية التى يمر بها المفكر اعتدالا أو تطرفا : هدوء أو حدة ، شمولا أو تركيزا . فالاديب والمصلح والفيلسوف والسياسى . كل منهم ابن وقته ، ووقته جماع عصره وتجربته . فاذا كان من الصعب ان لم يكن من المستحيل تغيير العصر فانه من الممكن تغيير الظروف النفسية التى يعيشها المبدع عن طريق تهيئة المناخ الفكرى الملائم الذى يسمح بحرية التعبير دون المنع والقهر أو الادانة والعزل النفسى أو البدنى (١) .

وأفضل المناهج فى هذه الحالة الذى يتتبع الظروف النفسية التى يمر بها المفكر خلال مراحل عمره هو المنهج النشوئى الارتقائى الذى يتتبع تكوين المفكر من خلال المواقف النفسية والظروف الاجتماعية التى ولدتها (٢) .

---

(١) المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، وحدة بحث السلوك الاجرامى القسم الثالث من ندوة « الحركات الاجتماعية المتطرفة » (الحركات الدينية) ، القاهرة ١٩٨٠ .

(٢) من هذا النوع دراستنا عن « أثر أبى الاعلى المودودى على الجماعات الاسلامية المعاصرة . المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، وحدة بحوث السلوك الاجرامى ، ندوة الحركات الاجتماعية المتطرفة ، اكتوبر ١٩٧٩ .

وسنعتمد على تحليل فكر الامام الشهيد على معظم مؤلفاته وارجاعها الى المواقف النفسية والاجتماعية التى مر بها دون الاعتماد على المواد الثانوية مثل كتابات الآخرين عنه أو رؤيتهم له أو حتى سيرته الذاتية الخاصة وحياته الشخصية نظرا لما يمتاز به من اتساق بين حياته الخاصة وحياته العامة . ووحدة بين النظر والعمل • وليس الهدف من ذلك هو أعطاء سيرة فلسفية شاملة بل اثره على الجماعات الاسلامية المعاصرة • كما سنعتمد على فهم فكر مبنى على الملاحظة المباشرة والتجارب المعاشة • ومما يسهل ذلك أنتسابنا جميعا الى جيل واحد يجعل المؤلف يحلل الموقف كله من خلال وحدة تجربة الدعوة الاسلامية فى عصر الثورات الوطنية الاشتراكية وهى التجربة التى مازالت مستمرة حتى الآن • فان كنا فى الربع قرن الماضى قد عاصرنا المد الوطنى الثورى وانحسار حركة الدعوة الاسلامية فاننا نعاصر منذ عدة سنوات انحسار حركة المد الوطنى الثورى وعودة حركة الدعوة الاسلامية الى المد من جديد •

ويمكن التعرف على أربعة مراحل فى فكر الامام الشهيد تعبر عن تطوره الروحى : المرحلة الادبية . والمرحلة الاجتماعية ، والمرحلة الفلسفية ، والمرحلة السياسية • وهى فى نفس الوقت مراحل تعبر عن تاريخنا الثقافى منذ أكثر من نصف قرن ساهم فيها الام الشهيد • فقد كان جزءا منها مثل طه حسين والعقاد • وهى مراحل متداخلة فيما بينهما ولكنها تتمايز بالطابع العام الذى يغلب على كل منها • كما أنها تتفاوت فيما بينها فى الطول والقصر اطوالها الاولى المرحلة الادبية (١٩٣٠ — — ١٩٥٠) • واقصرها الثانية المرحلة الاجتماعية (١٩٥١ — ١٩٥٤) بعد ان وأدتها وهى فى المهد الثورة المصرية • ولو لم تندلع الثورة المصرية فى ١٩٥٢ وبداية الصراع بين الاخوان والثورة

على السلطة وليس على المبــادىء الثورية الست لامتــدت المرحلة الاجتماعية حتى ابتلعت قوانين يوليو ١٩٦١ . وطوت فى داخلها مرحلة التحول الاشتراكى (١٩٦١ — ١٩٦٤) فى الثورة المصرية ، وطورتها وعمقها وأصلتها ، وحافظت عليها ، ودافعت عنها . ولكتب لها الاستمرار والدوام ، ولاصبح سيد قطب ليس فقط من أمثال الصحابة الاوائل عمرو بن الخطاب وأبى ذر الغفارى بل أيضا من دعائم الثورة التحررية العالمية من أمثال ماركس ، وماوتسى تونج ، وهوشى منه ، وغرامشى ، وجيفارا . ولكان حلقة الاتصال بين ثوارنا القدماء والثوار المحدثين مثل الافغانى ، والسلطان جالييف ، والامام الخمينى • ولكن الامام الشهيد راح ضحية هذا الصراع بين الاخوان والثورة •

كما أن هذه المراحل تتفاوت فيما بينها من حيث التطور والوقوف ثم النكوص والارتداد • فهناك تقدم وتطور فعلى من المرحلة الاولى الى المرحلة الثانية • ولكن هناك توقف فى المرحلة الثالثة ، المرحلة الفلسفية (١٩٥٤ — ١٩٦٢) ، التى تمت بين جدران السجون والتى تحولت فيها « معركة الاسلام والرأسمالية » الى « خصائص التصور الاسلامى ومقوماته » أى تحولت معارك الاسلام عن النضال الاجتماعى الى عرض نظرى خالص للاسلام • ثم حدث نكوص من المرحلة الفلسفية الى المرحلة السياسية فى (١٩٦٣ — ١٩٦٥) ابان موجة الاضطهاد الثانية للاخــوان والتى بلغت ذروتها فى آخر عام عاشه الشهيد عندما تحول « خصائص التصور الاسلامى ومقوماته » الى « معالم فى الطــريق » وأنتقاء فقرات طويلة من « فى ظلال القرآن » ، وقد تم معظمة بين جدران السجون ، بالاضافة الى بعض تجارب السجن الفكرية التى تعبر عن « فكر المضطهدين » • حينئذ برزت أفكار الالوهية والربوبية والحاكمية

والدينونة والطاعة ؛ وتم التعارض بين الاسلام والجاهلية حيث لابقاء لاحدهما الا بقضاء الآخر . وهنا يبدو أثر أبى الاعلى المودودى عليه. ومن هذه المرحلة فقط خرجت جميع الحركات الاسلامية المعاصرة سواء التى استعملت العنف فى حادثة الفنية العسكرية أو مقتل الشيخ الذهبى أو تلك التى تستعمله الآن فى حرم الجامعة ومدرجاتها أو تلك التى ستستعمله فيما بعد وتعد لها نفسها الان خارج الجامعة على نطاق النظام الاجتماعى ككل .

أولا : المرحلة الادبية (١٩٣٠ — ١٩٥٠) :

وهى أطول المراحل الاربعة والتى يبدو فيها المؤلف جزءا من الحركة الثقافية والادبية التى كانت تعم البلاد فى هــذه الفترة (٣) . ويتفاوت انتاجه فيها بين النقد الادبى مثل « مهمة الشاعر فى الحياة » عام ١٩٣٢ (٤) أو « النقد الادبى ، أصوله ومناهجه » عام ١٩٤٧ (٥)

---

(٣) لم نستطع للاسف الاطلاع على « نقد كتاب مستقبل الثقافة فى مصر » الذى نفذ ولا يوجد بالمكتبات الوطنية العامة مثل كل مؤلفات سيدقطب. وهو يدل على نشاط المؤلف فى الحركة الثقافية ورفضه اتجاه « التغريب » الذى مثله طه حسين فى ذلك الوقت .

(٤) هى محاضرة القاها سيد قطب وقدم لها الاستاذ / محمد مهدى علام استاذ التربية فى دار العلوم فى ٢٨ / ٢ / ١٩٣٢ .

(٥) هناك أيضا النقد الادبى التطبيقى مثــل « كتب وشخصيات » (١٩٤٦) الذى لم نستطع الاطلاع عليه والذى يحتوى فى غالب الظــن على مراجعات ومقالات . كما أعلن عن مجموعة ثانية « لحظــات مــع الخالدين » . وهناك بعض المقالات التى نشرت أغلب الظن فى منتصف الاربعينات مثل « منهج الادب » ، « الاسلام حركة ابداعية شاملة فى الفن والحياة » وقد نشرتا فى « التاريخ ، فكرة ومنهاج » ص ١١ — ١٢ ، ص ٢٢ — ٢٩ .

وبين الانتاج الادبى فى الشعر مثل « الشاطىء المجهول » عام ١٩٣٤ (٦) وفى الرواية مثل « المدينة المسحورة » ؛ « اشواك » ، « الاطياف الاربعة » أو فى السيرة الذاتية مثل « طفل من القرية » عام ١٩٤٥ (٧) • وقد تم تتويج هذه المرحلة باكتشاف الجانب الفنى فى القرآن وذلك فى « التصوير الفنى فى القرآن » عام ١٩٤٥ ثم تطبيق النظرية فى « مشاهد القيامة فى القرآن » (٨) •

كانت الاحساسات الادبية والفنية هى الطاغية على التصورات العقلية والاهتمامات الوطنية والاجتماعية والسياسية • ويبـــدو أن الشعر كان أعلى الفنون • وهو بمثابة المنبع الاول للفكر • فالشاعر فيلسوف • يحس ويشعر ثم يعبر ويصوغ مرة بالصورة فهو شاعر ، ومرة بالتصور فهو فيلسوف • فالشاعر مصور • تقوم الصورة لديه على الخيال وتعتمد على التناسق • وهو قادر بالخيال على الاحساس بالحقيقة . حقيقة الانسان والحياة والكون • وهو الشاعر الصادق فى

---

(٦) اعلن سيد قطب فى الطبعة الثانية لكتابه « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » عن ديوان آخر « حلم الفجر » ولكن يبدو انه لم يصدر .

(٧) لم نستطع للاسف الاطلاع على « الاطياف الاربعة » التى كتبها بالاشتراك مع اخوته الثلاثة (دار المعارف) او على « افراح الروح » (دار الشروق) .

(٨) نظرا للطبعات الاولى التى نفذت او التى لا يوضع عليها تاريخ الطبعة (نظرا للطبعات التجارية التى تمت بعد ذلك الشرعية منها وغير الشرعية والتى لايوضع عليها أيضا تاريخها أو تاريخ الطبعة الاولى ، فانه يصعب معرفة تاريخ نشرها بالدقة . وقد استعملنا الاستدلال للتغلب على هذه الصعوبة وذلك عن طريق هوامش الكتاب والاحالة الى المؤلفـات السابقة بالرغم من وجود هوامش اخرى يصعب معرفة مصدرها ، هل هو المؤلف ام الناشر .

مقابل الشاعر المزيف الذى لايبدأ بالتجربة الوجدانية • صحيح أن للبيئة أثر فى التذوق والخيال . ومع ذلك فالتجربة الشعرية لها استقلالها الخاص •

بهذا التصور للشعر وضع سيد قطب أولى انتاجه الادبى وفيه بذور « التصوير الفنى » وبدايات « التصور » للحياة والانسان والكون دفاعا عن الأدباء الشبان ضد طه حسين الذى ينكر عليهم انتاجهم وموهبتهم ، ومعطيا له نماذج شعرية من خمسة منهم بالاضافة الى نموذج واحد للعقاد قائلا لطه حسين « أنك تبحث عن الشاعر الشاب الذى نشأ فى هذه الاعوام فعرف جماعة من الشباب عن شوقى وحافظ ومطران فلا تجده وعن الكاتب الشاب الذى ظهر فاستحدث مذهبا فى النثر صرف بعض الناس عن هيكل والمازنى والعقاد فلا تظفر به (٩) » هنا يظهر سيد قطب مدافعا عن الخلق والابداع الذى سيصبح فيما بعد لديه مرادفا للاسلام • وفى ديوانه الشعرى الاول « الشاطىء المجهول » الذى يضم مجموعة أشعاره فى ١٩٣٤ وبداياتها قبل ذلك بعشر سنوات تبدو الموضوعات الفلسفية والميتافيزيقية من خلال الوجدان والاحساس الشعرى بالزمان والخلود • يعقد مقدمة للديوان يتحدث فيها كناقد عن نفسه كشاعر وكأنه انقسم شطرين ذات وموضوع ، مبينا أن الشعر أوسع مجالا من العلم والفلسفة ، عارضا لموضوعات الجسم والعقل والروح والزمن والوحدة ومستشرفا المجهول • وفى نفس الوقت يتحدث عن ملكة التصوير الفنى وروح القصص ، والحركة الداخلية ، وموسيقى الشعر (١٠) •

---

(٩) سيد قطب : مهمة الشاعر فى الحياة ص ٨ .

(١٠) سيد قطب : الشاطىء المجهول ، مقدمة .

وقد ظهرت كثير من الموضوعات الميتافيزيقية مثل الغربة والموت . فقد اعتاد الشاعر أن يتردد كثيرا على وادى الموتى فى أوقات مختلفة أكثر ماتكون عند مغرب الشمس وقبل طلوعها (١١) . الا أن ذلك لم يمنع من ظهور الموضوعات الاجتماعية أو السياسية . بل ان الشاعر يتغنى فى جبال ريف مصر (١٢) وانه سر بقائها ويطالب له بالسلامة . ولم يشر الى الاسلام الا مرة واحدة مقارنا صوره للجسم والزمن والوحدة أما بالنسبية أو بالتصوف الاسلامى (١٣) . ولكن الموضوع الغالب هـو للوطنيات بالرغم من أنه أقل الاجزاء جميعا (١٤) . وتـدور الاشعار الوطنيـة حـول مصر ، والسـودان ، وفلسـطين ، والشرق ، ومن الموضوعات التى كانت سائدة ايضا عند شاعر النيل حافظ ابراهيم وفى شعر العقاد (١٥) . فمصر فى كبوة من التسلط والتخلف والاستعمار آن لها ان تنهض من عثرانها ، ويحثها الشاعر على النهوض بعـد حادثة

---

(١١) يقول مثلا بعنوان « غريب » .

غـريب اجـل انـا فى غربـه	وان حف بى الصحب والاقربون
غريب بنفس وما تنطـوى	عليه حنيـا فـؤادى الحنـون
غـريب وان كـان لا يـزن	وجاور فيهـا الشـكوك اليقين
ولكنها داخلتهـا الظنـون	ببعض القلوب لقلبى حنـين
غريب فـو حاجتى للمعـين	ووالهف نفسـى للمخلصـين

الديـوان المذكور ص ٥١

(١٢) يقول الشاعر :

اسلم فدتك مواهبى وحطـامى ... ياريف بمصر وانت سر بقائهـا

الديوان المذكور ص ٨٦

(١٣) الديوان المذكور ص ٧ .

(١٤) ينقسم الديوان خمسة اقسام : ظلال ، ورموز ـ صور وتأملات ـ غزل ، ومفاجاة ، وطنيات .

(١٥) يشير الديوان الى العقاد والحركة الادبية فى مصر ، ص ٤٤ .

البدارى ومأمورها المقتول وسجن أهالى البدارى : دنشواى الجديدة(١٦)٠ كما كتب الشاعر أشعارا فى ذكرى سعد فى ١٩٣٢ والثـورة الوطنية المصرية ٠ كما حاول الاستعمار فصل شطرى وادى النيل والامة فى شغل عنه بما هى فيه من نكبات عامة ٠ وقد قام السيد العبيدة رئيس جمعية اللواء بتأليف جمعية على أثـر اخـراج الجيش المصرى من السودان فى ١٩٢٤ ؛ وقام يناضل عن وحدة وادى النيل المقدسة فى جرأة ورجولة وبطولة غير عابىء بسجن أو بتنكيل بلغ من وحشيته « ان يسجن الفقيد وهو سياسى ! » ٠ كما عبر الشاعر عن صوت مصر الوطنية بعـد موافقة وزارة وبرلمان صدقى على مشروع خزان الاولياء فى ١٩٣٢ ٠ ونظم الشاعر نداء الى البلاد العربية الشقيقة فى ١٩٣١ بمناسبة ثورة فلسطين وحوادثها الدموية ٠ كما رثى شهيدى الطـيران على طليعـة الضحايا فى ١٩٣٢ ٠ وقد ظل صراعه مع الصهيونية منذ ذلك الحـين

---

(١٦) منعت الوزارة نشر مقطوعة من ضمنها :

يا أيهـا الرفقـاء بالحبـه ان لا ... تنسوا اناسا تئن وتألـــم
فى مصر قد تلقى الكـلاب رعاية ... بينما يحقـر شعبها ويحطـم
فى مصر لا يلقى المسىء جزاءه ... لابـل يكافـأ دونـه ويكـرم
فى مصر لا يحفظ التـاريخ مـن ... فحش يعـج بهـا وفحش يكتم
فى مصر لو فى مصر بعض كـرامة ... غضبت وفار على جوانبها الدم
ماذا يعز على الهوان نصـونه ... لم يبق من حرماتنا ماتكـرم
الموت ! ياللموت ! يأشرف شرعة ... مما نسـام به ومـا نوسـم

الديوان المذكور ص ٢٠٣ — ٢٠٥

ويقـول ايضـا :

ماعهدنا مصر تعطى ظهـرها ... كذلـول النوق من شـاء يركب
المطايا حـين تخشى حتفهـا ... تعطب السائق من دون العطب
مصر لـمـا غضبت لغضبتهـ ... لم يرعها الغرب لمـا أن غضب

الديوان المذكور ص ١٩٧ — ٢٠٠

حتى استشهاده (١٧) • ومصر هى درة الشرق ومركزه فى مواجهة الغرب• فصيحة الافغانى وشعر حافظ يتكرران معا عند شاعر الوطنية (١٨) • فلا غرابة اذن ان يكون أول مهد له هو « مصر الفتاة » فى أواخر الاربعينات •

أما « المدينة المسحورة » (١٩) فهى مدينة عظيمة فى مصر القديمة تقع فيها فرصة حب وانتقام • وقد كان البحث فى مصر القديمة كمـادة روائية طريق جيل كامل من الادباء أثر دعوة الافغانى مصر للمصريين وتحت تأثير الحركة الوطنية المصرية (٢٠) وتأسيس الحزب الوطنى وقيام ثورة ١٩١٩ ونضال مصر عند الاستعمار ، وتحقيقا الوطنيـه المصرية التى بدأها الطهطاوى ولطفى السيد وطه حسين والعقـاد • ومع ذلك فالقصة موضوعة فى قالب روائى اسلامى ، قصة من ليالى ألف ليلة وليلة ، الليلة المـائة بعـد الالف ، تقصها شـهرزاد على شهريار • وتدور حول قصة حب وتعتمد على التحليل الوجدانى للمحبين

---

(١٧) ايه يامصر عزاء انمـا   انت اولى بالتحيـات الوصفـاء

للاسف لم نستطع الاطلاع على كتابه « معركتنا مع اليهود » لانه ممنوع دخوله وتداوله فى مصر ، ولكن فى بـاقى كتبـه وأيضـا فى « ظـلال القرآن » الكثير عن نضاله ضد الصهيونية .

(١٨) يقول الشاعر :

الشرق بالمشرق تلك دمـاؤه   والغرب ، بالمغـرب يضويه الدم
مصر الفتـاة وما تزال خفيـة   تهفـوا اليكم بالقلوب وتعظـم

(١٩) لم نستطع للاسف معرفة تاريخ صدور هذه الرواية ولكنها من بواكير انتاج سيد قطب . انظر محمد على قطب : سيد قطب الشهيد الاعزل .

(٢٠) كتب نجيب محفوظ مثلا « كفاح طيبة » ، « رادوبيس » وترجم لاردمان تاريخ مصر القديمة . وكان توفيق الحكيم من قبل قد كتب « عودة الروح » .

مما يظهر فيما بعد فى منطق الوجدان والتعبير الحسى عنه (٢١) • كما تظهر بعض الموضوعات الدينية مثل الخرافات والسحر والشعوذة والاقدار « حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا » وتحقق النبوة والالهام(٢٢)• كما تظهر صورة الطريق عدة مرات : اين الطريق ؟ او « لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » • مفرق الطريق بين عهدين ، وهى الصورة التى لم يخل منها أى عمل من أعماله والتى أصبحت فيما بعد عنوانا لمؤلفه « معالم فى الطريق » الذى دفع حياته ثمنا له (٢٣) • كما تظهر بدايات أفكار ستصبح فيما بعد نقدا للغرب مثل ضرورة اشراف الام على تربية الاطفال فان « اشراف الام لايعدله اشراف » (٢٤) • وتظهر أيضا بذور « التصور الاسلامى » خارجة من الادب مثل الحديث المستمر عن الحلم والواقع وعدم الفصل بينهما ، وبيان أهمية الحلم والخيال « لان الحياة بلا خيال نوع من التحجر » ، ولان الانسان لن يصل الى شىء الا بالوجدان والخيال والاحلام ، ولان الواقع الاصيل لن يحصره ادراك فرد وهو ما سيصبح فيما بعد « التصور الاسلامى » (٢٥) • ولكن الواقع

---

(٢١) مثلا وضمت ساقيها المتفرجتين وذراعيها المتراخيتين « المدينة المسحورة ص ٢٣ أو بعض عبارات الاحساس بجمال المراة مثل وهى تتمنى فيبدو قوامها الفاتن ص ٩ أو وكانت قد نضجت أنوثتها وتفتحت رغباتها (ص ١٥) أو قول الام فانى أخشى عليها ماهو أشد من سلب الاغنام ص ١٩ وليس بين الرجل والمراة حين يخلوان ذلك الحاجز المتوهم من الكهرباء أو غير الكهرباء .

(٢٢) المصدر السابق ص ٤٣ — ٤٤ ، ص ٦٧ .

(٢٣) المصدر السابق ص ٣١ ، ص ٦٦ .

(٢٤) وسيجد هذه الفكرة فيما بعد فى كتاب انا فرويد وزميلتها « أطفال بلا اسر » المصدر السابق .

(٢٥) المدينة المسحورة ص ١٠ — ١١ .

أيضا طرف للخيال • فالانسان يحس أيضا بشوق الى الحياة فى الارض والعودة الى الواقع (٢٦) • واذا كان السحر قد جسد الحياة وأوقف الزمان (٢٧) فان الحب قد أعاد الحياة وحرى الزمن • والزمن والتطور والحياة والتجدد والحركة بذور « التصور الاسلامى » • ويظهر التناسق الفنى فى بناء الرواية بين البطل والبطلة « الاب والام » وتحليل عواطف كل منهما بالتبادل ثم بين البطل والبطلة « الابنة والابن » •فالرواية تقوم على فن هندسى متقن ، وهو ماسيصبح فيما بعد أساس « التصور الفنى فى القرآن » • كما يبدو الصراع بين الخير والشر ، بين الحب والانتقام،بين الحياة والموت مع الافاضة فى تصوير نزوع الخير لان الادب الاسلامى كما يقول فيما بعد لايصور لحظات الضعف الانسانية بل لحظات القوة والاكتمال • لذلك لم يبين المؤلف لماذا يعتى المدافعون عن المدنية ، وما ذنب القتلى من المتفرجين على المدينة •

ولكن الاظهر فى ذلك كله هو الجانب الاجتماعى • فالبطل والبطلة راعية غنم ، فالحب لايعرف التفرقة الطبقية وينتصر على الملك فى النهاية• وقد استبشر فريق وهلل لهذا الانقلاب وفى صميم نفسه شعور غامض بأن هذا تصرف الهى يرفع من مقام الشعب ويزيل الفوارق بينه وبين أكابر الرؤوس فى البلاد (٢٨) • ثم تكون البطلة الاميرة ابنتهما والبطل راعى غنم ، وينتصر الحب أيضا فى النهاية على انتقام الاميرة الاولى المهجورة، وهى اميرة شريرة تحولت الى ساحرة وفقدت حبيبها • وقد زعم فريق ان

---

(٢٦) المصدر السابق ص ١١ •
(٢٧) المصدر السابق ص ٧٢ •
(٢٨) المصدر السابق ص ٤٣ •

الاميرة كانت قد قسمت على امرأة عجوز فقيرة رأتها تلوذ بحوائط القصر من الوابل المنهمر فأمرت بابعادها عن القصر حتى لاتشوهه بمنظرها القذر (٢٩) . هذا الجانب الاجتماعى هو الذى يستمر فيما بعد المرحلة الادبية كلهـا .

أما روايته « اشواك » فيبدو من الاهداء الى رفيقة عمره التى انفصل عنها انها تجربة شخصية مر بها الكاتب الاديب تدور حول الصراع بين الانسان والادب ، بين الحياة اليومية وحياة الابداع ، وايثار رفيقة العمر أن يبقى لعمله الادبى فهو أدوم وأخلد (٣٠) . وهى قصة تدور حول فترة الخطوبة بين الحبيبين وتحليل نفس كل منهما بمـا فيها من غزل وحب وتوتر وغضب . ويأخذ الحب الرومانسى صورا حسيه ووصفا للصدور والرؤوس والشعور (٣١) . كما يظهر موضوع الخيال والواقع من جديد مما يوحى بالتصوير الفنى كمقولة فى النقـد الادبى فيما بعد (٣٢) . ويمكن تلمس بعض جذور الموضوعات الدينيـة لديه مثل الحديث عن بيئته المحافظة التى جعلته يقترب من الشعر والفن

---

(٢٩) المصدر السابق ص ٤٤ .

(٣٠) سيد قطب : اشواك ص ١٣٧ .

(٣١) يقول مثلا « فاذا شفتاه تهويان على شفتيها فتستجيب له بكل مافيها (ص ٣٥ — ٣٦) » صدرها الفاتن ، صدرها البارز الفاتن (ص ٤٥ . نظرت اليه نظرة متوددة راضية تمازجها الفتنة والاغراء ولو كـان النور مطفأ لصنع شيئا آخر (ص ٤٦) فاستجابت اليه فى لين واغراء ولو فى غير هذه اللحظة لارتكب الحماقة التى يشمئز منها طبعه (ص ٤٨) .

(٣٢) « وما الفرق بين الخيال والواقع اذا كان كلاهما يستجيب له القلب والذهن ، ويترك آثاره فى النفس والحياة ؟ وما الفـرق بين الحلم والحقيقة ، وكلاهما طريق عابر يلقى ظله على النفس ثم يختفى من عالم الحس بعد لحظات » ص ١٤٦ ، ١٤٨ .

والخيال ويرتبك مع المرأة أو مثل بعض التشبيهات الصوفية مثل « لقد خلا الهيكل من الصنم المعبود ، واستوحش الصوفى من سبحات الشهود (٣٣) • وقد يكون موضوع الرواية كلها وهو ثقل الماضى فى الحاضر أو الماضى الحى وأثر صديق الفتاة القديم على عواطف خطيبها الحالى هو البذور لموضوع التراث والتجديد ، والدين والتطور (٣٤) • وتراث الامة الذى مازال يعيش فى قلوب الناس • ومع ذلك فانه يغلب على الرواية التحليل النفسى للفرد • ولا أثر فيها للجوانب الاجتماعية أو التصورات الاسلامية • كما أنها انتهت نهاية مأساوية وهى القطيعة والانفصال بين الحبيبين على عكس التفاؤل الاسلامى •

أما « طفل من القرية » فانه سيرة ذاتية للمؤلف فى طفولته المبكرة منذ أكثر من ربع قرن أيام الكتاب والمدرسة وقبل الرحيل الى القاهرة مثل « الايام » لطه حسين ومهداة اليه • بها اختلاف واتفاق معه مثل الخلاف والاتفاق بين الاجيال والطبائع والحياة والاتجاه (٣٥) • ويتجاذب السيرة جانبان : الجانب الدينى والجانب الاجتماعى •

ويظهر الجانب الدينى فى دين القرية الذى يتمثل فى تصوف

---

(٣٣) أشواك ص ١٢٣ .

(٣٤) المصدر السابق ص ٨٩ ، ٩٥ .

(٣٥) لم يكن سيد قطب كشاعر وقصاص وناقد فريد فى جيله بل كان وزملاؤه فى لجنة النشر للجامعيين التى نشرت « طفل من القرية » ، « الاطياف الاربعة » ، « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » ، يمثلون نفس التيار مثل عبد الحميد جودة السحار ، نجيب محفوظ ، على احمد باكثير ، محمود تيمور ، ابراهيم المازنى ، كامل الكيلانى ، ابراهيم المصرى ، وداد سكاكينى ، أمين يوسف غراب ... الخ .

المجذوبين والايمان بالعفاريت والاولياء . فلاعب الجمباز مثل المجذوب. ولكن يبرز الدين العلمى على يد المدرسين الشبان فيحدث التقابل بين الخرافة والعلم : بين العلاج عن طريق العفاريت والتمائم وكتابات سليمان وآية الكرسى أو الصمد وذكر الله الاعظم لطـــرد العفاريت الشريرة التى تختفى فى شهر رمضان وبين الطب والعلم الحديث . بل يقوم المدرس الشاب مع الاطفال بتجربة علمية يذهب فيها الى المكان المسكون ، رواق المنزل القديم التى سكنها الارانب ويظنها النـــاس عفاريت لاثبات ان هذه العفاريت خرافة أساسها الجهل وقصص مكذوبة لبعض الاغراض الدنيوية حقيقة أو متوهمة ثم دور الخوف والرعب فى الايهام وتحويل الحقيقة الى وهم . كما يظهر الدين فى أسلوب الكتاب فى تحفيظ قواعد اللغة والقرآن دون فهم أو تذوق والصراع بين الكتاب والمدرسة واعتماد الكتاب على حفظ القرآن وأهمال المدرسة له ومحاولة المؤلف الجمع بين الحسنيين حفظ القرآن فى الكتاب وفهمه فى المدرسة واكتشاف الكتاب والمدينة ، وحب الثقافة والكتب ، وتذوق الطبيعة ، وتشخيص النهر بعد الفيضان « مسكين خلاص همد » ، وتفويض الامور الى الله « الامر لله » كما يؤمل أهل القرية دون أن تظهر الحاكمية بعـــد .

وارتبط الدين أيضا لديه بالوطنية فقد حفظ رسالة لعمرو بن العاص وصف فيها مصر والفيضان . وتأثر بالناظر الشاب وهو يفيض وطنية ويتحدث عن عباس الشيخ وعبد العزيز جاويش ومحمد فريد وأنـــور باشا التركى وطلعت رؤوف وشقيقته حميدية التى اذاقت الحلفـــاء الويل فى نهاية الحرب العظمى الاولى . وكان الطالب يقرأ دواوين شعراء الوطنية مثل ثابت الجرجاوى وكتب التاريخ كمادة وطنية . ولما اندلعت

ثورة ١٩٢٩ وقف الناظر أمام التلاميذ والقى عليهم خطبة نارية وطنية ، وأغلق المدرسة الى أجل غير مسمى لانه ذاهب هو وزملاؤه للعمــل فى الثورة . فالثورة واجب على كل انسان . انطلق حماس الطالب ، يكتب الخطب ، ويقرض الشعر ، ويلقى ذلك فى المجامع والمساجد لينفخ روح الثورة فى الجميع فصاروا يستمعون لكل هاتف بالثورة . وكان الاســم المقدس الجديد لديهم هو سعد زغلول (٣٦) .

أما الجانب الاجتماعى فانه يظهر فى تصور فقر الريف وترف الاغنياء حتى لقد علم وهو فى هذه السن مايجب ان يبقى ومايجب ان يزول . فلقد أحس أنه سارق سارق لهؤلاء الغرب (الاجراء الزراعيين) وأمثالهم من الملايين التى تنبت الذهب فى الوادى ونجوعه . ولو كان فى الوادى قانون عادل لقاده الى السجن قبل أولئك الكثيرين الذين يحسبهم القانون لصوصا ومجرمين . لقد ظل هذا الشعور يعاوده ابدا كلما جلس يتناول طعاما دسما أو فاكهة لذيذة أو حلوى انيقــة أو يتمتع بأيسر مباهج الحياة بين ملايين المحرومين . لقد علم أشياء وأشياء ولم يتبين عمق آثارها فى نفسه وقسوة وقعها على حســه الا وهو يسترجعها الان فى الحين بعد الحين فيشعر فى قرارة نفســه بالخجل ويحس لنفسه ولشعبه بالازدراء . عرف قحط النهر ، وارتباط الفلاح بالارض ، واقامة المآتم يوم بيعها . عرف أغلاب الزمان فى الريف : غلب الفقر ، غلب الحرمان ، غلب الجور من الحكام : الضريبة، مطالب العمدة : تلبية لاوامر الحكومة : تذاكر الجمعية الخيرية والهلال الاحمر والاسعاف : سخرة الجسور ، وتنقية الدودة فى مزارع الاثرياء

---

(٣٦) سيد قطب : طفل من القرية ص ١٣٨ .

وتقاتشيهم خارج القرية . ومكافحة الجراد،وغلب الكدر المتواصل..(٣٧) عرف ان الذين يعملون اجراء زراعيين غرب — لايربطهم بالقرية لا الدين لا القومية ولا الجنس : وهو ماسيظهر فيما بعد على أنه الامة الاسلامية . عرف قلب التقاليد وبخاصة فيما يتعلق بالمرأة التى لاترتفع فى نظر الرجل عن السلعة . فاذا كان بيت أهلها مازال مفتوحا فهى محترمة الى حد ما لان هناك مالا ينتظرها . أما اذا خرب بيت اهلها فهنا تعانى من الذل والتحقير مايحيل حياتها ظلاما فى ظلام . وعندما تبلغ سن الثلاثين يجب أن تحتشم دون زينة فتقتل طبيعتها . لذلك سيظهر الاسلام فيما بعد كعدالة اجتماعية وأخذ حقوق الفقراء من الاغنياء وكتحرير المرأة المسلمة .

ويمثل « التصوير الفنى فى القرآن » ثم « مشاهد القيامة فى القرآن » نقله من الادب الى الدين واكتشاف العنصر الفنى فى الدين قبل ان يكتشف فيما بعد الابعاد الاجتماعية والفلسفية والسياسية . ويقوم على تجربة شخصية منذ سماع القرآن فى القرية فى كنف أمه التى يهديها « التصوير الفنى » كما أهدى « مشاهد القيامة » الى روح أبيه،وكماأهدى ديوانه « الشاطىء المجهول » الى أخيه . وينقد تفسير الاساتذة الذى لاذوق فيه ، ويعتمد على التجارب الانسانية الشعورية والتأثر الوجدانى، ويعطى التفسير الشعورى معتمدا على التذوق الفطرى وتشخيص الانفعالات الانسانية ويصنع نظرية فى التصوير الفنى الذى يعتمد على التخيل الحسى والتجسيم مركزا على أغراض القصة وهو احداث الاثر النفسى المطلوب وليس وصف حقائق مادية بالتفسير الحرفى للنصوص

---

(٣٧) المصدر السابق ، المقدمة ص ١٩١ .

فالآيات تحمل مثلا يضرب وليس حادثا يقع . وقد شغل القدماء أنفسهم بمباحث عقيمة حول اللفظ والمعنى ولم يلمسوا قضية التصوير الفنى « بالرغم من اقتراب البعض منه مثل الجاحظ وابن قتيبة وقدامة وأبو هلال العسكرى وأخيرا عبد القاهر الجرجانى الذى وضع نظريته فى التخييل». وقد اقتصر « التصوير الفنى » على الجانب الادبى دون التعرض للمسائل الاجتماعية مثل العدالة الاجتماعية أو الفلسفية مثل التصور الاسلامى أو السياسة مثل الحاكمية .

أما « مشاهد القيامة » فهى تطبيق لنظرية « التصوير الفنى » على موضوع ميتافيزيقى خالص وهى الاخرويات ، البعث ، واليوم الآخر ، والجزاء والعقاب مبينا أثرها فى الشعور أو كما يقول المؤلف، « العالم الآخر فى الضمير البشرى » وواضعا اياها فى اطار تاريخ الاديان المقارن الذى يجمع على أن الاخلاق هو أساس الجزاء والعقاب . ومع ذلك لم يظهر البعد الاجتماعى والسياسى لهذه المشاهد . كما لم يظهر بناء فنى واحد لهذه المشاهد كلها بدل عرضها حسب الترتيب الزمنى للسور . ومع ذلك فيبدو ان قضية التصوير الفنى كانت تدل على شجاعة الفكر والتمسك بحرية النظر دون ادنى مجافاة للدين. كما تدل على ان المؤلف كان مقدما على عصره الذى مازالت تسود، الحرفية والتفسير المادى للنصوص .

---

(٣٨) كان « التصور الفنى فى القرآن » فى البداية بحثا فى مجلة المقتطف عام ١٩٣٩ قبل ان يخرج عام ١٩٤٥ فى صورة كتاب . وكان فى رأى المؤلف يصلح لان يكون موضوعا لرسالة جامعية . وقد قام د. محمد أحمد خلف الله برسالة مشابهة بعنوان « الفن القصصى فى القرآن الكريم » عام ١٩٤٧ .

وأخيرا يمثل « النقد الادبى : أصوله ومناهجه » اجتماع الادب والدين ومحاولة ايجاد نظرية فى النقد الادبى تضم منهجه فى الادب واكتشافه للجانب الادبى فى الدين فى موضوع «التصوير الفنى فى القرآن» . ينقد التراث محاولا تطويره وفهمه وتأصيلا للتصوير الفنى على عكس ماسيفعل فيما بعـد فى المرحلة الفلسفية من رفض الفلسفة والكـلام والتصوف . وينقد الادب العربى القديم لانه لايسلك طريق التركيز ولايسلك طريق المشاهد والجزئيات فى عرض التجارب الشعورية الا نادرا . همه صياغة التجربة الشعورية فى حكمة أو قاعدة لا فى مشاهدة وحالة(٣٩) . وكان ينقص كثيرا من النقاد والعرب القدماء لا فى مشاهدة على الحركة . وينقد قدامة لاقامته النقد على أسس فلسفية منطقيـة على عكس عبد القاهر الذى حاول الاعتماد على التحليل النفسى . فقد استطاع الامام عبد القاهر الجرجانى أن يصل الى نظرية التخييل . فهو لذلك يستحق اهداء الكتاب « الى روح الامام عبد القاهر أول ناقد عربى أقام النقد الادبى على أسس علمية نظرية ولم يطمس بذلك روحه الادبية الفنية ، وكان له من ذوقه الناقد وذهنه الواعى مايوفق به بين هذا وذاك فى وقت مبكر شديد التبكير » (٤٠) . وبالرغم من هذا الموقف النقدى من التراث فقد استطاع المؤلف أن يقدمه سهلا بسيطا واضحا رافضا تقليد الغرب فى النقد الادبى ، ومدافعا عن التأصيل فى التراث القديم . ويستشهد بالادب الشرقى ومؤلفات طاغور . ويعرض للحركة الادبية لجيل بأكمله : العقاد : وطه حسين : والمازنى وللشعر الحديث

---

(٣٩) سيد قطب : النقد الادبى ، اصوله ومناهجه ، ص ٤٩ .

(٤٠) المصدر السابق ص ٣ . ويقتبس المؤلف نصا طويلا من « دلائل الاعجاز » ص ١٢٥ .

عند نازك الملائكة ويعتمد على الدراسات العلمية لمعاصريه فى الابـــداع الفنى(٤١) • وظل التمايز الحضارى مقياسا للشعر ووضعه المتميز داخل كل حضارة • ويدافع عن رأى العقاد فى الادب الشعبى الذى لا سلطان عليه للطبقة الحاكمة • وتظهر الواقعية فى الادب وأهميتها وهى التى ستتحول فيما بعد الى واقعية المنهج الاسلامى على عكس مثل افلاطون المجردة • كما يشـــير الى صراع الطبقات كحقيقة اجتماعية يحللها الاجتماعى وان لـــم تكن موضوعا مباشرا للادب وان حـــاول المؤلف فيما بعد تجاوز الصراع الطبقى من أجل تغليب طبقة على طبقة الى تحرر الانسانية جمعاء وهو التحرر الاشمل والاعم والابقى والاقرب الى الكرامة الانسانية ، وهو مايسميه المؤلف المنهج التكاملى فى الادب الذى يأخذ فى الاعتبار كل العناصر المكونة للعمل : الادبية والفنيـــة والوجدانية والاجتماعية والانسانية • صحيح ان الصراع محور الحركة التطورية فى الفن طبقا للتفسير المادى للتاريخ ولكن الاسلام لايعيطه كل هذه الاهمية لان أهدافه أوسع وأرقى •أنه لايرضى بالظلم الاجتماعى ولايقره ولايدعوه الناس الى الرضا به بل يدعوهم الى مكافحتة لتطوير البشرية •

ويركز المؤلف على أهمية القيم الشعورية والقيـــم التعبيرية فى العمل الادبى ويستشهد بالقرآن ويكتشف التصوير الفنى من جـــديد ويستشهد بمقتطفات طويلة منه لضرب المثل بموسيقية الالفاظ ولبيان وظيفة الصور والظلال والايقاع ومقدار اشتراكها فى الدلالة الادبيـــة

---

(٤١) مثلا دراسات مصطفى سويف التى كانت فى صورة مقـــالات فى مجلة علم النفس .

وفى تصوير الجو العام . فالسمة الاولى للتعبير القرآنى اتباع طريقة تصوير المعانى الذهنية والحالات النفسية وابرازها فى صور حسية .

ولكن الاهم من ذلك كله هو بداية الربط بين الادب والتصور فالادب فى كل حضارة مرتبط بتصورات هذه الحضارة وقيمها . ويمكن للناقد أن يتذوق العمل الادبى ويرفض التصور الذى يقوم عليه . والاسلام أدب وتصور يقوم عليه هذا الادب . فمن الصعب فصل الادب عن التصور الكلى للحياة وهو الاسلام . فالاسلام عقيدة وحركة لتطوير الحياة وتجديدها . فمثلا لايحفل الادب الاسلامى الا بقوة العنصر وليس بضعفه ولا سلبيته . الاسلام لايحارب الفنون ولكنه يعارض بعض التصورات والقيم التى تعبر عنها هذه الفنون ، ويقيم مكانها تصورات أخرى . فالاسلام تصور تنبثق منه قيم . وبالتالى فالادب الاسلامى عقيدة ضخمة هائلة جادة فعالة خالقة منشئة تملأ فراغ النفس والحياة وتستنفذ الطاقة البشرية فى الشعور والعمل وفى الوجدان والحركة فلا تبقى فيها فراغا للقلق والحيرة والتأمل الضائع . أبرز مافيه الواقعية العلمية حتى فى مجال التأملات والاشراق . جاء الاسلام لتطوير الحياة وترقيتها وليس للعرض فى زمان أو مكان معين أو لمجرد تسجيل مافيها من دوافع ونزعات (٤٢) . الاسلام حركة ابداعية شاملة فى الفن والحياة . على عكس مثالية الغرب ستكون واقعية الاسلام . قرأ الجيل الاول من الصحابة القرآن وكان هدفهم تطوير الواقع لا ترقيعه . الادب الاسلامى أدب موجه يحمل فكرة وصاحب

---

(٤٢) سيد قطب : منهج الادب فى « التاريخ ، فكرة ومنهاج » ص ١١ — ٢١ .

رسالة (٤٢) • ولا نهضـــة للامة الا بالبعث الاســـلامى وليس كمـــا يلجأ البعض الى الشرق أو الى الغـــرب أو الى الفرعونية المصرية القديمة • وهكذا يكاد سيد قطب ينتقل من المرحلة الادبية الى اكتشاف الاسلام ذاته كتصور وكتقدم فى التاريخ كما حدث بعد ذلك فى المرحلة الفلسفية (٤٤) •

من هذا العرض للمرحلة الادبية يمكن استنتاج الآتى :

١ — بدأ سيد قطب حياته شاعرا ، أديبا ، روائيا ، ناقـــدا ، وكان مدخله الى الدين هذا المدخل الادبى الفنى • وعرف « التصور الفنى » وتذوق القرآن ومايحدثه فى النفس من ابداعات وانطباعات جمالية • ولكن للاسف لم تتأثر الجماعات الاسلامية المعاصرة بهذه المرحـــلة نظرا لفقدانها الاحساسات الادبية والجمالية بل ووقعت فى حرفيـــة تفسير النصوص وملئها بشحنة من الغضب والتمرد والقسوة • وان كان لديهم بقايا من شعر أو قصة فانه يعبر تعبيرا مباشرا وفجا عن الصراع بين الايمان والكفر ، الاسلام والجاهلية ، ويكون أقرب الى الدعاية والموعظة وأدب المناسبات • عرف سيد قطب الاسلام من خلال الادب والفن وتبنت الجماعـــات الاســـلامية الاســـلام تحت ظروف

---

(٤٣) سيد قطب : الاسلام حركة ابداعية شاملة فى الفن والحياة ، المصدر السابق ص ٢٢ — ٢٤ •

(٤٤) أطلنا فى هذا الجزء عن المرحلة الادبية نظرا لانه غير معـــروف عن الامام الشهيد مع أنه يكشف عن بداياته الانسانية ونظرا لانها بالفعل أطول مرحلة عاشها ولا يجب اسقاطها عن الحساب فى مقابل المرحلـــة السياسية التى ظهر فيها « معالم فى الطريق » والتى دفع حياته ثمنا لها ونظرا لانها المرحلة التى لم تتأثر بها الجماعات الاسلامية المعاصرة بل تجهلها تماما ، وان عرفتها فهى تتنكر لها باعتبارها حدثت قبل التحول الاسلامى •

نفسية واجتماعية : تحول الاسلام فيها الى « ايديولوجية المضطهدين » وبالتالى يمكن التخفيف من آثر هذه الجماعات على حياتنا المعاصرة وذلك بالتركيز على الجوانب الادبية والفنية فى الدين وأثر الصورة الفنية فى توجيه سلوك المؤمنين . فالعاطفة الدينية هى عاطفة جمالية ينقصها الصياغة الفنية ويحل محلها التعصب والهوى . ويكون تشجيع حركة الادباء الشبان وتأسيس الجماعات الادبية فى الجامعات : واصدار مجلات للشعر والقصة والمقال الادبى كوسيلة لتعريف الانفعالات الدينية بأسلوبها الطبيعى وهو الاسلوب الادبى ، وأن صورة حسان بن ثابت « شاعر الرسول » ليس ببعيد .

٢ — كان سيد قطب فى أدبه شاعر الحب والغزل .ولم يجد حرجا فى وصف مفاتن البدن ومايشعر به المحبين لشوق اللقاء والعناق والقبلات. ولكن الجماعات الاسلامية نظرا لتطهرها الظاهرى وحرمانها وكبتها نظرا لما يسود المجتمع من محرمات على رأسها الجنس تضع كل ثقلهـا فى الغطاء والحجاب ، وفصل الطلبة عن الطلبات . تسقط التصور الجنسى للعالم نتيجة للتخلف والحرمان والكبت ثم تغطية وتحجبه عن طـريق التزمت الخارجى والاشباع الجنسى عن طريق العداء للمرأة وبوتقتها ووضعها على أريكة أمام الجميع اقرب لما يفعله العراة ولكن على نحو مقلوب . وبالتالى يمكن للحياة الاجتماعية المشتركة والسلوك السوى ، والتعبير العلنى عن عواطف الحب والاعجاب المتبادل والاعتراف بمكونات الفطرة وبمظاهر الجمال فى الخلق يمكن لذلك كله ان يقضى على المحرمات فتخرج من السر الى العلن بدل أن يموت الانقلاب من الضد الى الضد فى حياة افـراد الجماعة من اللـه الى التجارة ، ومن التزمت الى الاباحية ، ومن التقوى الى النفاق .

٣ ــ كان سيد قطب جزءا من الحركة الثقافية والنقدية فى مصر منذ الثلاثينات حتى أواخر الاربعينات حيث ازدهرت المجلات الثقافية والنقدية فى مصر منذ المعارك الفكرية والادبية ، وكان سيد قطب من النابغين الشبان الذى فرض نفسه على الحركة الادبية والثقافية فى مصر • ولكننا لا نجد الجماعات الاسلامية أى أثر على حياتنا الثقافية والادبية بل انعزلت فى نشاط ذى نمط واحد معين وهو النمط المظهـرى الشعائر • لم يبزغ منهم أحد فى حركة الادباء الشبان كمـا فعلت الحركات اليسارية بوجه عام والماركسية بوجه خاص ، ولم يدخل أحد منهم فى معارك الفكر والادب والثقافة كمفكر وأديب وليس كداعيـة وخطيب • وبالتالى فانه من الممكن تحول هـذا النشاط واخراجه عن عزلته الى المعارك الثقافية والادبية لجيلنا • فالدعوة الاسلامية ليست مستقلة عن حياة البلاد الثقافية ومعاركها الادبية •

٤ ــ ظهر فى أدب سيد قطب الشعور الوطنى ومشاركته فى الوطنية المصرية بالشعر والخطبة والمقال بدافع فردى خالص دون أن يتلقى تعليمات من جماعة أو من رئيس مباشر • وكان يلهب شعوره القـادة الوطنيون والشهداء الابرار لمعارك جيلنا : استقلال مصر ، وحدة وادى النيل ، استقلال فلسطين • ولكن الجماعات الاسلامية المعاصرة غالبا ماترى الشعور الوطنى أقل قيمة من الشعور الدينى • بل كثيرا ما تتنكر لـه وتجعله مناقضا للشعور الدينى ومضادا له • فتلتزم بمقتضيات الشعور الدينى وتضحى بالشعور الوطنى وهو مايجعلها باستمرار موضـع الاتهام بالخيانة والعمالة لنظم دينية أخرى خارج الوطن ، ويجعلهـا غير قادرة ليس فقط على الدخول فى وحدة وطنية بل أيضا على تصورها • فكيف يجتمع النقيضان : الجاهلية والاسلام ؟

٥ — استطاع سيد قطب وهو الريفى القروى ادراك مأساة ريف مصر منذ الصغر ، وأحس بفقر الفلاحين وبؤس الاجراء الزراعيين ، كما رأى ترف الاغنياء وسرقة اللصوص ، وظل هذا الانطباع طيلة حياته يعطبه الاحساس بالذنب تجاه هؤلاء المنبوذين ، وبالرغم من أن لمعظم اعضاء الجماعات الاسلامية جذورا ريفية الا أن أحساسهم بقضايا الفقر والغنى يتوارى كلية أمام احساساتهم الدينية حتى أصبحت بغير ذات مضمون ، ويقتصر حديثهم على بعض النصوص الدينية فيما يتعلق بالزكاة والاستخلاف ودون مساس بجوهر الاقتصاد الرأسمالى مثل الملكية الخاصة ، والتنافس ، والربح ، والاقتصاد الحر ، والتجارة ، لم يصور كتابهم بؤس ريف مصر وفقرها الموقع : ولم يشعر أحد منهم بنيل مصر وفيضانه وكأنها احساسات وثنية ، وبالتالى يمكن أرجاعهم الى الريف وادراجهم فى العمل الاجتماعى فى الريف حتى تأخذ عواطفهم الدينية مضامينها الاجتماعية ،

٦ — كان سيد قطب وهو فى هذه المرحلة الاولى من حياته على وعى تام بالموقف الحضارى ، ينقد التراث القديم فيما لانفع فيه ولا أصالة ، ويبرز ما يصلح لجيلنا واشباع حاجاتنا ، وينقد الغرب ويرفض تقليده ، وفى نفس الوقت الاستفادة بابداعاته ودلالالتها بالنسبة لنا فى نهضتنا وبالنسبة له فى مظاهر انهياره وينفتح على الحضارات الشرقية القديمة التى انفتحت حضارها القديمة عليها ، ويبين حدود الاقليمية الحضارية مثل الدعوة الفرعونية ، ويطلق حدودها حتى تدخل فى اطارات الحضارات الشرقية القديمة التى تجعل العمل الصالح فى الدنيا أساس الجزاء فى الآخرة ، ولكن الجماعات الاسلامية المعاصرة خرجت عن مسار التاريخ واطار الحضارات والتصقت بالتراث

القديم وحده ، وعادت التراث الغربىماينفع منه قبل مايضر . كما عادت الشرق كله وحضاراته مع أنها امتداد لحضارة الاسلام القديمة . وبالتالى تحول نشاطها خارج التاريخ ودون وعى بالمرحلة فانحسر اثرها . ويمكن التغلب على ذلك عن طريق ادخال الجماعة فى روح العصر ؛ واعطائهم البعد التاريخى ، وانشغالهم بقضايا الساعة ومعرفتهم بالمراحل وادراكهم للتطور .

٧ — لم تظهر فكرة الحاكمية فى هذه المرحلة الادبية وهى الفكرة التى أصبحت مسيطرة عليه فى المرحلة السياسية . مما يدل على أنها فكرة طارئة عليه أما من الخارج خاصة أبى الاعلى المودودى أو من الداخل تعبيرا عن ظروف القهر السياسى والاعتقال ظلما . بل كانت لديه بدايات رفض الدين الشعبى الذى يقوم على الخرافة والجهل . بل ان بذورها لم تظهر لديه فى المرحلة الادبية كما ظهرت بذور الاتجاهات الوطنية والاجتماعية والثقافية .

ثانيا : المرحلة الاجتماعية : (١٩٥١ — ١٩٥٣) :

وبالرغم من ظهور بدايات التحليل الاجتماعى فى المرحلة الادبية الا أنه بدأ بصورة واضحة فى « العدالة الاجتماعية فى الاسلام »(٤٥) وفى

(٤٥) صدر « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » فى ١٩٥١ وكان فى البداية ايضا مقالا فى ١٩٤٩ . وقد نشرته لجنة النشر للجامعيين التى كانت تضم ممثلين لنفس التيار الاسلامى مثل عبد الحميد جودة السحار بمؤلفاته « أبو ذر الغفارى » ، « بلال مؤذن الرسول » ، « سعد بن أبى وقاص » ، « أبناء أبى بكر الصديق » . واحمد على باكثير ، « واسلاماه » ، مولاى محمد على « محمد رسول الله » ، وعبد الفتاح مقصود « الامام على » .... الخ .

« معركة الاسلام والرأسمالية » وفى « السلام العالمى والاسلام » وأخيرا فى « دراسات اسلامية » التى تبدأ فيها القطيعة بين الاخوان والثورة (٤٦) . وقد انتهى سيد قطب الى الجانب الاجتماعى فى الاسلام تلقائيا ابتداء من الادب وليس ابتداء من الدين أو من الاخوان المسلمين. وكان قد انضم للجماعة أيضا فى هذه الفترة . وكانت مصر فى ذلك الوقت تغص بالحركات الاجتماعية سواء فى الاحزاب الماركسية أو فى الطليعة الوفدية أو فى الاحزاب الاشتراكية وفى طليعتها حزب مصر الفتاة الذى كان سيد قطب قد انضم اليه قبل انضمامه الى الاخوان . كانت المعركة الاجتماعية فى الاربعينات على أشدها . وهى التى دفعته الى اكتشاف الجانب الاجتماعى فى الدين بعد اكتشاف الجانب الادبى فيه فى فترة أيضا كانت المعركة الادبية على أشدها فى أوائل الثلاثينات .

ويعتمد الكتاب على منهج النص وعلى ذكر الشواهد التاريخية لاثبات الدين الحى ، والعمل ، والانتاج ، وأهمية الدنيا فى الاسلام دون أن يعطى تصورا نظريا محكما أو ايديولوجية اجتماعية واضحة

---

(٤٦) للاسف لم نستطع معرفته تاريخ صدور « معركة الاسلام والرأسمالية » على وجه التحديد ولكنه يبدو أنه سابق على « الاسلام العالمى والاسلام » طبقا للطبعة الثانية « للعدالة الاجتماعية فى الاسلام » التى تعلن أن معركة الاسلام والرأسمالية قد صدر وتعلن عن قرب صدور « السلام العالمى والاسلام » . ويؤيد ذلك ايضا بروز الحاكمية أكثر فى السلام العالمى والاسلام التى تكشف عن بداية الصراع بين الثورة والاخوان . أما الهامش الذى يشير الى « السلام العالمى والاسلام » فى « معركة الاسلام والرأسمالية » (ص ٨٨) فالارجح أنه من الناشر . أما « دراسات اسلامية » فانها مقالات كتب معظمها فى ١٩٥٢ وبداية الاعلان عن الاخوان وفكرهم فى مواجهة الثورة وبداية الشكوك بين الاثنين .

المعالم ، ويستشهد بالمعاصرين ودراساتهم فى الملكية والعدالة (٤٧) ولكنه فى نفس الوقت يحاول تأصيل العدالة الاجتماعية فى التراث القديم فيجدها مثــلا فى المصالح المرسلة ، وينقد الطوفى لتقديمــه المصــالح المرسلة على النص على عكس الشافعية الذين لا يأخذون بالمصالــح المرســلة والحنفية الذين يأخذون بالاستحسان مع القياس ويصف المالكية بالاعتدال لانهم يجمعون بين المصلحة والنص ، كما يستشهد بالمستشــرقين المنصفــين للاســـلام المتجــردين عن الهــوى والضغينــة وبعض المفكرين الغربيين الذى تحولوا الى الاســلام أو الذين بقوا على دينهم ولكنهم اعجبوا به وأنصفوه .

ومع ذلك فانه ينقد الغرب ، ينقد مناهج التاريخ الغربية التى تنفى أثر العوامل الروحية فى الزمن والتى تعتبر أوربا هى المحرك لخط الزمن لان الاســلام يفسر التاريخ بالعقيدة والنشــاط والحركة ويعتبــر الانسانية جمعاء ميدان التاريخ والامة الاسلامية فى مركزه ، لذلــك أرتبطت العدالة الاجتماعية لديه بفلسفة التاريخ وتقدم الامة الاسلامية وانهيار الغرب قديما ممثلا فى الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ، وحديثا ممثلا فى المعسكرين الشرقى والغربى أى النظامين الشيوعى والرأسمالى ، والغرب له حالة خاصة قد حدثت فيه فجوة بين الدين والعلم ، بين الكنيسة والفكر نظرا لطبيعة الدين المسيحى ومســاره فى التاريخ الاوربى ، فالدين كان مخدرا للشعوب فى أوربا « وجدت

---

(٤٧) يذكر أعمال أبو زهرة مثل « الملكية ونظرية العقد فى الشريعة الاسلامية » .

الطبقات الكادحة التى تريد أن تصارع أن الدين لايغذى رغبتها فى الصراع ؛ وأن الكنيسة تتخذ منه مخدرا للكادحين فأعلنت ثورتها الكاملة على الدين وقالت عنه انه مخدر الملايين . ومن هنا كان العداء الجاهر الصريح بين الشيوعية والدين عند الشيوعيين »(٤٩) . ولكن احيانا يظهر التصور الشعبى للشيوعية عند المؤلف قائلا « حاولت الشيوعية ان تقضى على الاسرة لانها تلغى أحاسيس الاسرة وحب التملك وتضع شيوعية الثورة وملكية الدولة للافراد ولكنها فشلت (٥٠) . كما يستشهد بالكتابات الناقدة للغرب أو التى تدل فى رأى المؤلف — على انهيار قيم الغرب (٥١) . ويرفض أى تقارب بين النظام الاسلامى واى نظام فى الغرب ، فلا يوجد شىء يسمى الامبراطورية الاسلامية كما يقول طه حسين فى كتابه « الفتنة الكبرى — عثمان » لان النظام الاسلامى له خصائصه المميزة ولكن المهم هو اكتشاف الرصيد الروحى للاسلام . للاسلام .

فالاسلام ليس دينا معزولا عن الحياة أو ينظم علاقة الانسان بربه ولكنه دين الحياة ينظم العلاقة بين الانسان والانسان . ليس الاسلام كدين مخدرا للشعوب يستغله الرأسماليون والحكام المستبدون لتنويم الطبقات الكادحة وتخدير المحرومة .وليست العبادات فيه شعائر وطقوس وأشكال ومراسيم بل أفعال يومية موجهة لحياة الفرد والجماعة.

---

(٤٩) العدالة الاجتماعية ص ١١ — ١٢ .

(٥٠) المصدر السابق ص ٦٢ .

(٥١) مثلا أنا فرويد ودورثى برنجهام « اطفال بلا اسر » ، الكسن كاريل « الانسان ذلك المجهول » وسيرد فيما بعد سيد قطب على الاخير بالتفصيل فى « الاسلام ومشكلات الحضارة » ١٩٦٢ .

ويربط سيد قطب قضية العدالة الاجتماعية فى الاسلام بقضية التصور الاسلامى فيرفض أولا التراث الفلسفى القديم لان الفلسفة الاسلامية الحقة لاتلتمس عند ابن سينا وابن رشد وأمثالهما ممن يطلق عليهم فلاسفة الاسلام • ففلسفة هؤلاء انما هى ظلال للفلسفة الاغريقية لا علاقة لها حقيقة بلفسفة الاسلام • وللاسلام فلسفته الاصيلة الكامنة فى أصوله النظرية والقرآن والحديث وفى سيرة رسوله وسننه العملية • وهذه الاصول حسب أى باحث متعمق يدرك بها فكرة الاسلام الكلية التى يصدر عنها فى كل تعاليمه • يقوم النظام الاسلامى على فكرتين مستمدتين من فكرته الكلية عن الكون والحياة والانسان • وحدة الانسانية فى الجنس والطبيعة والنشأة وأن الاسلام هو النظام العالمى الخالد فى مستقبل البشرية(٥٢) • هذه الوحدة المطلقة المتعادلة المتناسقة هو أساس التكافل العام بين الافراد والجماعات والتى تجعل الاسلام بسير فى تحقيق العدالة الاجتماعية مراعيا العناصر الاساسية فى الفطرة الانسانية غير متجاهل كذلك للطاقة البشرية(٥٣) • لذلك يعنى التوحيد الاسلامى ثلاثة مبادىء : التحرر الوجدانى ، المساواة الانسانية ، والتكافل الاجتماعى • « والتكافل الاجتماعى أشمل وأعم من الضمان الاجتماعى المالى كاعانة من الدولة والذى هو جزء من التكافل الاجتماعى • ويعنى ان كل فرد فى الكفاية المادية عن طريق العمل ، واذا حدث عجز قامت الدولة بكفايته بدلا عنه • ويشمل أيضا حق التعليم

---

(٥٢) وهنا يعد المؤلف بتقديم بحث كامل عن « فكرة الاسلام عن الكون والحياة والانسان » وقد صدر بالفعل بعد عشر سنوات تقريبا بعنوان « خصائص التصور الاسلامى ومقوماته » العدالة الاجتماعية » ص ٢٤٧ .

(٥٣) المصدر السابق ص ٢٩ .

والتربية وحق العمل وتمكين القادرين عليه وحق الامر بالمعروف والنهى عن المنكر . فالفرد جزء من المجتمع وليس عالة عليه » (٥٤) . ان شهادة ان لا اله الا الله وهى من أخص المشاعر الاعتقادية لتعنى التحـرر الوجدانى من كل عبودية لعبادة . هذا التحرر الذى هو الخطـوة الاساسية لتحقيق مجتمع صالح كريم . الكل فيه متساوون(٥٥) . فالشهادة هنا لا تعنى الحاكمية بقدر ما تعنى تحرر الضمير البشرى » لقد بدأ الاسلام بتحرر الضمير البشرى من عبادة أحد غير الله ، ومن الخضوع لاحد غير الله . فما لاحد عليه غير الله من سلطان . وما من أحد يرزقه من شىء فى الارض ولا فى السماء الا الله ، وليس بينه وبين الله وسـيط ولا شفيع ، والله وحده هو الذى يستطيع ، والكل سواه عبيد لايملكون لانفسهم ولا لغيرهم شيئا(٥٦) . ولكن لم تظهر الحاكمية فى « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » بل ظهر التوحيد كثورة اجتماعية على الواقع بدافع من الواقع أكثر من كونه بدافع من الفكر ، وبباعث مادى أكثر من كونه بدافـع تصـورى ، وبشـعور اجتمـاعى أكثر من كـونه بشـعور دينى . ولكن تظهـر صورة الطريق فى آخر الكتاب « فى مفترق الطرق » (٥٧) . كمـا يهـدى الكتـاب الى الفتيـة الذين الحهـم فى خيـالى قادمـين ، يجـاهدون فى الله بأموالهـم

---

(٥٤) سيد قطب : الرسالة الاسلامية والضمان الاجتماعى ، فى التاريخ فكرة ومنهاج ص ٣ — ٣٦ وهى مقال من أوائل الخمسينات فترة « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » .

(٥٥) المصدر السابق ص ١٣ .

(٥٦) المصدر السابق ص ٣٦ .

(٥٧) المصدر السابق ص ٢٦٣ — ٢٦٧ .

وأنفسهم مؤمنين فى قرارتهم ان العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . الى أولئك الفتية الذين لا أشك لحظة فى أن روح الاسلام القوية ستبعثهم من ماضى الاجيال الى مقبل الاجيال فى يوم قريب ، جد قريب (٥٨). وهم الذين أصبحوا فيما بعد الجيل القرآنى الجديد .

وتبلغ قيمة الالتزام الاجتماعى عنـــد سيد قطب فى « معركة الاسلام والرأسمالية » . فالصلة بينهما صلة حركة وصراع وتناقض ، لا حياة لاحدهما الا بفناء الآخر . وقد وقع الاختيار على الرأسمالية كأحد طرفى الصراع وليس على الشيوعية لان الخطر الداهم الذى يغزو مصر والعالم الاسلامى لايزال هو نهب الرأسمالية وعملائهـــا لثروات المسلمين بل أنه يسخر من اتهام كل من يناهض الرأسماليـــة بالشيوعية . صدر فى أوائل الخمسينات ابان الثورة المصرية قبلهـــا وبعدها مما يدل على نضج الثورة الاجتماعية فى هذه الفترة . ولايعتمد على النصوص الدينية كثيرا ولكنه يبدأ بالاوضاع الاجتماعية وبلغة الارقام والاحصاء لان المواعظ والخطب والآيات لن تغير شيئا . ويطلق صيحة للنذير ويشير الى المخاطر التى تواجه الامة جراء الاوضـــاع الاجتماعية حيث تتمايز طبقتان : الاغنياء والفقراء . وصدر الكتاب بآية « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »(٥٩) . صحيح أن الحماس والخطابة يغلب عليه

---

(٥٨) المصدر السابق ص ٣ .

(٥٩) معركة الاسلام الراسمالية ص ٤ . كذلك صدر الامام الخومينى كتابه : الحكومة الاسلامية بآية « ان الملوك اذا دخلوا قرية افســـدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون » ، النحل : ٢٤ .

ولكن ذلك يرجع الى أنه موجه توجيها مباشرا لجمهور الامة حتى تعى واقعها ، وتدرك من المسئول عن ذلها وفقرها وبؤسها . أن صوتا سيرتفع بعد ذلك كله ولن يمكن اسكاته أبدا ، صوت المعدات الخاوية التى تملأ جنبات هذا الوادى صوت الملايين التى تبذل الوقت والدماء ؛ صوت الواقع ،لابد لهذا الوضع أن يثور . «ان الذين يعملون فى هذا البلد هم الذين يجوعون أعنى الذين يعملون أعمالا شريفة لا تدخل فى قائمة السرقة والاختلاس والغش والتدليس والارتشاء واستغلال النفوذ وتجارة الرقيق الابيض والخيانة الوطنية(٦٠) . ان هذه الاوضاع الاجتماعية القائمة هى التى تدفع بالناس دفعا الى أحضان الشيوعة وبخاصة ذلك الجيل الناشىء من الشبان الابرياء . ولايمكن أن تصح دعوة خلقية أو دينية لملايين الجياع . فالمعدات الجائعة لاتفهم المنطق بل أن الاوضاع الاجتماعية هى التى تفسر الخلق والضمير .

فما الحل ؟ فريق يهتف بالاشتراكية ، وفريق يحلم بالشيوعية ، وفريق يدعو الى الاسلام ، وهو وضع طبيعى من بيئة طبيعية فى موقف محاصر بين المذاهب السياسية المعاصرة غربية وشرقية ، قديمة وحديثة . ولكن بالرغم مما يتمتع به الغرب من حرية التفكير والتعبير وبالرغم مما يسوده مجتمعاته من احتكار واستغلال وأثارة وانحلال فان المجتمعات لاتتغير عن طريق التقليد للغرب وهو المعادى لكل ماهو اسلامى أو شرقى (٦١) . ولكن فى الاسلام خلاص من التقليد أو الاستجداء أو الاستيراد من وراء الحدود . الاسلام صاحب لنا وصديق الفناء منذ أربعمائة والف عام . الاسلام حجة قوية ضد

---

(٦٠) المصدر السابق ص ١٧ — ١٨ .

(٦١) المصدر السابق ص ٣٣ .

الرأسمالية المستغلة وضـــد من يريدون استبعاده من معركة العدالة الاجتماعية (الشيوعيون) ومن المحترفين من رجـال الدين وفقهـاء السلطان . المغرب والشرق كلاهما ضد المسلمين فكرا وواقعا ، وعقيدة وأرضا وكما هو واضح فى فلسطين ، والاسلام يكون كتلة ثالثة مستقلة بالاسلام . فاذا كانت مشاكلنا أربعة : سوء توزيع الملكيات والثروات ومشكلة العمل والاجور ، وعدم تكافؤ الفرص ، وفساد جهاز العمـل وضعف الانتاج فان الاسلام يحلها جميعا باعادة توزيع الملكيات والثروات وحق الدولة فى التأميم ومصادرة رأس المال المستغل وفرض الضرائب على الاغنياء واعتبار الاسلام أن العمل وحده مصدر القيمة وأن الناس متساوون وان الانسان خليفة الله فى الارض سخر الله له كل شىء فى الكون . فالاسلام نظام أعدل من الشيوعية وأطهر وأشمل : أعـــدل لانه لايمس الملكية الفردية الا عند الاقتضاء ، وأطهر لانه يضمن بـــذل أقصى الطاقة من الافراد فى الانتاج ، واشمل لانه يعد الفرد للمجتمع ويعد المجتمع للافراد (٦٢) . الاسلام عدو التبطل باسم العبادة والتدين ويمنح المسلمين الذاتية والشخصية .

ان الاوضاع الاجتماعية القائمة مناقضة فى جملتها وتفصيلهـــا لروح الدين كله . ولكن المشكلة هم رجال الدين المحترفون الذين يؤولون الدين ليساندوا هذه الاوضاع الاجتماعية ارضاء للحكام وافتراء على الدين . « ان الاسلام ليصرخ فى وجه الظلم الاجتماعى والاسترقاق الاقطاعى ويمد المكافحين لهذه الاوضاع بقوة ضخمة للكفاح والصراع . وما من وضع اجتماعى هو أبعد عن روح الاسلام من أوضاعنا القائمة .

---

(٦٢) المصدر السابق ص ٤٤ .

وما من ثم أكبر من اثم الذين يدينون بدين الاسلام ثم يقبلون مثل هذه الاوضاع أو يبررونها باسم الاسلام . والاسلام منها براء • ان هده الاوضاع غير قابلة للاستمرار والبقاء ذلك انها مخالفـة لروح الحضارة الانسانية بكل معنى من معانيها ، مخالفة لروح الدين بـكل تأويل من تأويلاته : مخالفة لـروح العصر الحاضر بـكل مقتضى من مقتضاياته ومن ثم فهى لاتحمل عنصرا واحدا من عناصر البقاء يملى لها فى الاجل ، ويمنحها فرصة البقاء (٦٣) • لابد للاسلام اذن ان يحكم . اذا أردنا للاسلام أن يعمل فلابد له أن يحكم • فالاسلام لاينزوى فى المعابد أو يستكن فى القلوب انما جاء ليحكم الحياة ويصوغ المجتمع لا بالوعظ والارشاد بل بالتشريع والتنظيم •• لا اسـلام بلا حكم ، ولا مسلمين بلا اسلام (٦٤) • الحاكمية هنا تعنى اذن الاسلام للحكم وليس الحاكمية لله على عكس أعطاء يوم الاحد للكنيسة وللدنيا باقى أيام الاسبوع • فعقيدة الاسلام لايمكن أن تتحقق بذاتها فى واقع الحياة مالم تتمثل فى نظام اجتماعى معين • العقيدة هى التى تخلص الامة دون الوطنية أو العدالة الاجتماعية اللتان تتحققان تلقائيا من خلال الاسلام • ويحدث ذلك دون ماحاجة الى هيئة كبار العلماء بل من خلال تحول العقيدة الى طاقة وحركة وتغير وتطور •

ومع ذلك تلقى الشبهات حول الاسلام من الابرياء الجهال الذين يبهرهم مقاليد الحكم أو مناصب الافتاء • فيقال ان الحكم الاسـلامى يعنى بدائية الحكم وشظف البداوة • والحقيقة أن هناك فرقا بين النشأة

---

(٦٣) المصدر السابق ص ٢٢ .

(٦٤) المصدر السابق ص ٦٢ .

التاريخية للاسلام وافقه الاسلامى المتجدد المتطور • يقال أنه حــكم المشايخ والدراويش ! والحقيقة انه حكم يقوم على الشورى « فالحاكم فى الاسلام يتلقى الحكم من مصدر واحد هو ارادة المحكومين • فالبيعة الاختيارية هى الطريق الوحيد لتلقى الحكم ، والواقع التاريخي قــام على هذا المبدأ »(٦٥) • فالحاكمية للبشر ومصدرها من البشر • وخلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى قامت على أساس الاختيار المطلق • ولكن عدل بنو أمية القاعدة ثم ردها الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز حتى تختاره الامة مختارة فلا ولاية بغير شورى ورضى وقبول (٦٦) • ويقال أنه حكم الطغيان فى حين أن الرسول قد قال من رأى سلطانا جائــرا مستحلا لحرم الله ناكثا لعهد الله ، مخالفا لسنة رسول الله ، يعمــل فى عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان على الله ان يدخله مدخله » • والاسلام يدرأ الحدود بالشبهات ، ولا يطالب الناس بواجباتهم قبل أن يعطيهم حقوقهم • ويقال أنه نظام الحريم فى حين أن المرأة فى الاسلام تعمل فى الدراسة والتجارة والحرب • ويقال أنه نظام متعصب ضد الاقليات فى حين أن المستشرقين انفسهم قــد اعترفوا بانسانية الاسلام وشموله (٦٧) • وقد كانت مذابح الاقليات على يــد الاتراك لاسباب سياسية وليست دينية •

---

(٦٥) المصدر السابق ص ٧٣ •

(٦٦) صعد الخليفة المنبر فقال « ايها الناس : انى قد ابتليت بهــذا الامر عن غير راى كان منى فيه ولا طلبة ولا مشورة من المسلمين وانى قد خلعت ما فى اعناقكم من بيعتى فاختاروا لانفسكم » فقال الناس : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك فلك الامر باليمن والبركة » ، المصدر السابق ص ٧٤ .

(٦٧) يستشهد سيد قطب بكتاب سير توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، واسماعيل النحراوى .

كما تظهر العداوات من الحاقدين على الاســلام : الصليبيون الجدد الذين عبر اللنبى عما فى صدورهم وهو يدخل بيت المقدس فى الحرب العالمية الاولى قائلا : «الان انتهت الحرب الصليبية » وأقطاب التبشير فى مصر(٦٨) • هؤلاء وهؤلاء هم الذين أقاموا اسرائيل على الدين شوكة فى ظهر الاسلام • وإسرائيل هى الدولة العنصرية التى تقوم على الدين أول ماتنتكر الشيوعية له وفى نفس الوقت وقفت تسلح اسرائيل معلنة مبادئها • ولا فرق فى ذلك بين شرق وغرب • فقد خان الغرب بزعامة بريطانيا وأمريكا والمستعمرون والاستعمار الذى يقوم على تحالف دكتاتورية الحكم ورأس المال أيضا قضية فلسطين فى مجلس الامن وفى حرب فلســطين ، الذين يدعون الى لفظ حكم الشريعة • وتبنى القانون الوضعى من خلال الاستعمار الثقافى(٦٩) • والحقيقة أن الاسلام يحرم على اتباعه الخضوع لحكم الاجنبى واتباع أى تشريع لايتفق مع شريعة الاسلام • والمستغلون الطغــاة يريــدون جعــل الاسلام مجرد طقوس وشعائر « انه لاضير من الاسلام حين يكون تمتمة بالشفاة ، وطقطقة بحبات المسابح أو أدعية وتراتيل أو محملا يطاف به سبعا ويسلم مقــود الجمل الذى يحمله رسميا أو مولدا تطلق فيه الصواريخ أو مشيخة طرق أو نقابة اشراف تخلع فيهما الخلــع وتمنح فيهما الالقاب الى آخر اجهزة التخدير التى يستغلها الطغاة والمستغلون ليلهوا بها الجماهير • فاما حين يصبح حكما جادا ينفذ شرائع الاسلام فى الحكم والمال ويمنح الحقوق الانســانية والاجتماعيــة والقانونية لكل فــرد وكل جماعة ولا يفــرق بين الشعائر التعبدية

---

(٦٨) يذكر منهم جورجى زيدان وسلامه موسى .

(٦٩) يذكر من هؤلاء طه حسين ودعوته الى العلمانية .

والشرائع القانونية فدون هذا ويصبح الاسلام خطرا يتقى ، وكارثة تقع ، ومعركة يخوضها الطغاة والمستغلون بكل مـا يملكون . هـذا الاسلام لايوافق السلطات الاستبدادية فى الحكم ولا يضمن معـه المستبدون فى البقاء ... يسلطون عليه رجال الدين المحترفين ... الاسلام حرب على الاوضاع الظالمة والسلطات الغاشمة »(٧٠) . والمحترفون من رجال الدين يستغلون عقول الجماهير باسم الدراويش ويقومون بوظيفة التخدير والتغرير بالجماهير الكادحة العاملة المستغلة المحرومة،وهى وظيفة الدين فى المجتمعات الاقطاعية والرأسمالية . والمستهترون والمنحلون فى مصر يرون فى الاسلام نظاما للقيم والتزاما بالجدية . وأخيرا الشيوعيون يشوهون صـورة الحكم الاسلامى ويعملون على انقسام العالم الى كتلتين وأن عدم الانضمام الى الشرق يقوى من نفـوذ الغرب . والحقيقة أن الاسلام نظام مستقل بذاته لاينحاز الى كتلة ولا ينضم الى معسكر .

ينبغى أن تتولى الجماهير الكادحة المحرومة المغبونة قضيتهـا بأيديهـا وأن تفكر فى وسائل الخلاص . ويوجه سيد قطب النـداء التالى : « أيتها الجماهير : هذا هو الطريق : هذا هو الطريق : هذا هو الطريق » وهو الذى سيصبح فيما بعد فى « معالم فى الطريق » (٧١).

أما « الاسلام العالى والاسلام » فقد ظهر فى بدايـات الثورة المصرية . فقد كان موضوع السلام والحرب من موضوعات اليسار

---

(٧٠) معركة الاسلام والراسمالية ص ١٠٣ .

(٧١) المصدر السابق ص ١٢٢ .

المصرى . فالحرب اداة الاستعمار ، والاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية . والغرب بنظامه الرأسمالى مجتمع الحرب والعدوان . وربما أنتقل سيد قطب انتقالا طبيعيا من الاسلام كوسيلة للسلام الاجتماعى الى الاسلام كوسيلة السلام العالمى . يعتمد على النقل والعقل ويبدأ ببيان ارتباط العقيدة بالحياة ثم يرتقى من سلام الضمير الى سلام البيت الى سلام المجتمع الى سلام العالم فى النهاية . فلا سلام فى عالم لايتمتع فيه ضمير الفرد بالسلام . وهو موضوع جديد لذلك لم يؤصله فى أعمال السلف وتراثنا القديم .

ويغلب على الكتاب موضوعان : نقد الغرب باعتباره مجتمعا لا يقوم على السلام وضرورة الجهاد لاقرار السلام فى الاسلام ومحو اثار العدوان على حرية الاعتقاد . ويستعمل الواقع الاحصائى لبيان انحلال الغرب والتصوير الواقعى للاثارة الجنسية دون ما حرج(٧٢) . ويبطل خرافة العامل الاقتصادى فى المذهب المادى ، ويشكك فى قيمة الاصلاح الاجتماعى الذى يتم عن طريق تغيير الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية التى تنشأ الاختلال فى جسم المجتمع فى حين ان الاسلام يبدأ التغيير ابتداء من ضمير الفرد . المذهب المادى الطبيعى فى الغرب

---

(٧٢) والببغاوات هنا والشاردون هناك يقولون : ان هذا الضبط لابد يؤد الى « العقد النفسية » ذلك انهم لا يتخيلون صورة للمجتمع الا تلك الصورة القذرة ، صورة الشبان الهائجين محتكين بالفتيات الفائرات ، صورة الافخاذ والنهوض عارية بارزة ، صورة النظرات جاهرة فى العيون والشهوات ناضجة فى الشفاة ، تدفعها كلها وتؤججها مناظر الافلام الداعرة ، وصور الصحف المجرمة ، واصوات المخنثين والمخنثات فى الاذاعة ، والتوجيهات الخبيثة فى كل اجهزة التوجيه والاعلام العامة . ومن وراء ذلك كله الترف والفراغ فى جانب ، والعوز والانحلال فى جانب ، ومن حول ذلك كله تجار الاعراض ومخانيث القوادين « السلام العالمى والاسلام » ص ٧٩ .

والصراع الطبقى كذلك • أما المجتمع الاسلام فانه يبدأ من الجزء ومن الضمير والعقيدة التى تعطى التصور النظرى والبناء الاجتماعى •

الاسلام دين الوحدة ، والسلام فيه ينشأ من طبيعته • ولاول مرة تظهر عند سيد قطب بصورة واضحة بسيطة الالوهيـــة على نحو عملى لتحقيق السلام العالمى وليس كتصور نظرى وبدافع داخلى محض ودون أى أثر خارجى (المودودى) ودون الخضوع لاى مؤثرات نفسية (سيكولوجية المضطهدين) كما سيحدث ذلك كله فيما بعـــد فى المرحلة السياسية فى « معالم فى الطريق » • فكلمة الله تعبر عن ارادته الظاهرة لنا نحن البشر : افراد الله بالالوهية ، والربوبية اعتراف بارادته، والعبادة تسليم بحقه ، والطاعة تنفيذ لاوامـــره ، والدينونة التزام بخلافته فى الدنيا • فالسلام الاسلامى اذن ليس تراجعاً عن الحرب أو نفيا للصراع أو نظرة فردية تبدأ من الفرد الى المجتمع ، ومن الداخل الى الخارج على ماهو معروف فى الاخلاق الدينية الشائعة • لذلك قد تكون الحرب ضرورية لاقرار السلام ، « فهذه هى الحرب التى يقرها الاسلام لتقرير الوهية الله فى الارض ونفى غيرها من الالوهيـــات المدعاة ، ودفع الذين يدعون الالوهية سواء بالقول أو بالفعل ، واثبات سلطان الله فى الارض حتى يكون الدين كله لله وحتى لايتخذ الناس بعضهم بعضا اربابا من دون الله •• فمن وقف فى طريق هذا الخير أن يصل الى الناس كافة وحال بينهم وبينه بالقوة فهو اذن معتد على كلمة الله وازالته عن طريق الدعوة هى اذن تحقيق لكلمة الله لا لفرض الاسلام فرضا على الناس ولكن لمنحهم حريتهم المعروفة وخـيرة

---

(٧٣) المصدر السابق ص ٢٤.

الهداية . فالاسلام لايكره احدا على اعتناقه ولكنه يكره الذين يقفون بالقوة فى طريقة ، ويفتنون الناس عنه أو يمنوعونهم ابتداء من تبين الرشد من الغى عن طريق السيطرة عليهم وحرمانهم حق الاختيار . وهذه الحرب هى التى يقرها الاسلام ، ويحرض عليها تحريضا ، ويدعو رسوله ان يحرض عليهما المؤمنين ، ويحب الذين يحرضونها » . ويقول أيضا « لقد جاء الاسلام لتحقيق العادلة فى الارض قاطبة ،ويقيم القسط بين البشر عامة ، العدالة بكل أنواعها : العدالة الاجتماعية والعدالة القانونية والعدالة الدولية . فمن بغى وظلم وجانب العدل فقد خالف عن كلمة الله وعلى المسلمين أن يقاتلوا لاعلاء كلمة الله وأن يردوا الشاردين عنها اليها حتى ولا امتشقوا الحسام فى وجوه المسلمين الباغين . فالعدل المطلق ورد البغى والعدوان هو كلمة الله التى يجب أن تعلو فى كل حال وفى كل مكان ... فأعداد القوة واجب ، واجب ليكون فى هذه الارض سلطة عليا ترد الشاردين عن الحق اليه وتقف الطغاة عن البغى والعدوان ، وتحفظ على الآمنين امنهم وسلامتهم ، وتعز كلمة الله عن الاستخفاف والهوان وتقر سلطان الله فى الارض وتفرده سبحانه بالسلطان ... فأما حين تتحقق الحرية المنيعة فلا يصد الناس بالقوة عن كلمة الله ولايفتنون عن دينهم الذى ارتضاه لهم لله نظاما شاملا للحياة وحين لاتقوم فى الارض سلطة تعبد الناس فى الارض لارباب من دون الله وحين تتحقق العدالة الخيرة فلا يبغى بعض الناس على بعض ، ولا يستغل بعضهم رقاب بعض ، وحين يتحقق الامن للضعفاء الذين لايملكون عن أنفسهم دفاعا ويكف الباغى عن بغيه ويجنح الى السلم والمهادنة حين يتم هذا فالاسلام المالك للقوة السلم قاعدة والحرب ضرورة ، ضرورة لتقرير سلطان الله فى الارض المستعدة للطوارىء يضع السيف جانبا ويدعو الى السلم فورا ...

ليتحرر الناس من العبودية لغير الله وضرورة لدفع البغى من البغاة وتحقيق كلمة الله وعدل الله ضرورة لتحقيق خير البشرية لا خير أمة ولا خير جنس ولا خير فرد ، ضرورة لتحقيق المثل الانسانية العليا التى جعلها الله غاية للحياة الدنيا ، ضرورة لتأمين الناس من الضغط ، وتأمينهم من الخوف ، وتأمينهم من الظالم ، وتأمينهم من الضر ، ضرورة لتحقيق العدل المطلق فى الارض فتصبح اذن كلمة الله هى العليا(٧٤) • مهمة الاسلام اذن هو التحرر من سلطان الطواغيت ، ومواجهة عقيدة الاسلام احرارا فى الاختيار بغير ضغط من سلطة قاهرة تصدهم عن هدى الله وتقف لهم بالقوة دون الاستجابة للهداة • يقع العدوان من الجاهلين الذين لم يسالموا محمد من قبل فيضطر الاسلام الى رد العدوان • « حروب الاسلام ••• انما كانت اعلاء لكلمة الله فى الارض بجعل السلطة العليا فيها للذين يفردون الله سبحانه بالالوهية وايصال الخير الذى جاء به الاسلام للناس كافة عن طريق الرضا والاقناع وبتحقيق العدالة والامن والسلام فى ظل سلطان الله المتفرد سبحانه بالسلطان وفى ظل هذا السلطان الذى يقرر للناس منهج حياة الناس فيه أحرار ، يختار كل فرد عقيدته بلا ضغط ولا اكراه •• السلام الذى يحقق كلمة الله فى الارض من الحرية والعدل والامن لجميع الناس لامجرد الكف عن الحرب بأى ثمن مهما يقع فى الارض من ظلم ومن فساد ومهما يكن فى الارض من طاغوت واعتداء على سلطان الله والوهية الله(٧٥) • لقد أباح الاسلام للفرد أن يقاتل ويقتل من فى يده طعامه

---

(٧٤) المصدر السابق ص ٢٦ — ٢٩ •

(٧٥) المصدر السابق ص ٣٥ — ٣٦ •

وشرابه اذا منعه عنه وهو فى حاجة ماسة اليه لانه كحق الدفاع عن الحياة • فالحرب لاتتم من أجل صورة بل من أجل مضمون •

ولما كان البشر جميعا عباد الله ؛ وكانت الشريعة قانون الله فكلهم امامها سواء ويكون الحكم للقانون ، وليس للحاكم من سلطان الا فى حدود القانون الالهى الذى يخضع له كما يخضع السلطان سواء والذى لايستمد من هوى الحاكم ولا هوى طبقة ولا أمة ، ولا يسن ليحقق مصلحة لحاكم أو لطبقة أو أمة انما شرعه الله اله الجميع ومالك الجميع لصلحة الجميع • والخضوع له خضوع لله لا لعبد من عباده ، والضمانات فيه للجميع لانه مشرع للجميع •. وتلك ميزة قيام الدولة على شريعة الدين وقانونه • فالحرية الكاملة من كل عبودية أرضية لن تكون من البشر فلن تتحقق الكرامة المطلقة ولن تتحقق المساواة المطلقة ولن تتحقق المصالح المطلقة • ان الحاكمين سيحسون دائما بأنهم أرباب لانهم هم الذين يضعون التشريع وأن القانون سيظل دائما فى مصلحة طبقة دون طبقة ولن يحقق مصالح الجميع • هناك حالة واحدة يخضع فيها الفرد للقانون وهو شاعر بعزته كاملة وحريته كاملة ومصلحته كاملة حالة استمداد التشريع كله من شريعة الله لذى لاحاكم الا هو ولا مسيطر سواه ، ولا مصلحة له فى نصرة طبقة على طبقة ، ولا اخضاع طبقة لطبقة • وعندئذ يطمئن الفرد الى العـدل المطلق ويستريح • وعندئذ فقط يطامن الحاكم من كبريائه التى يستمدها من سلطة التشريع ويحس انه يملك شيئا الا ان ينفذ القانون الالهى الذى فرض عليه وعلى كل فرد سواء • وهذا هو التحرر الكامل الصحيح(٧٦) •••

---

(٧٦) المصدر السابق ص ٦٣ •

المسلمون اذن عليهم تبعة النضال اى الجهاد فى سبيل الله .
المسلمون اذن مكلفون تبعات انسانية تجاه هذه البشرية بحكم وصايتهم هذه عليها ووصاية كتابهم على كتبها . هم مكلفون ان يحققوا فى الارض ذلك السلام فى الضمير والبيت والمجتمع وأسسه ومبادئه من افراد لله سبحانه بالالوهية وبالربوبية وبالحاكمية ، ومن العدل والمساواة والحرية ، ومن ضمانات الحياة القانونية والمعيشية ومن منع البغى وازالة الظلم وتحقيق التوازن الاجتماعى والتكافل والتعاون وازالة أسباب الفرقة والخصام والنزاع بين الافراد وبين الجماعات وسد الذرائع التى تدعو الى قيام الطبقات وتميزها وصراعها (٧٧) .
للحاكمية اذن مضمون اجتماعى من أجل تغيير نظم الظلم والعدوان وتحقيق نظام العدالة والمساواة . لذلك فرض الجهاد فى سبيل الله على المسلمين تحقيقا لاربعة أهداف : الاول حماية المؤمنين حتى لايفتنوا عن دينهم وكف القوة عنهم بالقوة . والثانى كفالة حرية الدعوة وازالة كل قوة طاغية فى الارض تمنع ان تصل دعوة الاسلام الى الناس كافة . والثالث اقرار سلطان الله فى الارض ودفع المعتدين على هذا السلطان ، أولئك الذين يدعون ان لهم حق التشريع للناس من دون الله؛ فهم يدعون بهذا حق الالوهية ويقيمون من أنفسهم أربابا مع الله أو من دون الله . والرابع اقامة العدالة الكبرى فى الارض . وهذا يقتضى مكافحة ربوبية الطواغيت وحاكميتهم ، وأن يكافحوا الظلم والبغى لا لتملك الارض واستذلال الرقاب بل لتحقيق كلمة الله فى

---

(٧٧) المصدر السابق ص ١٦٨ .

الارض وتفرض ربوبية الله وحاكميته وعدله . وهذا هو الجهاد فى سبيل الله لتحقيق ربوبية الله لعباده ولتكون كلمة الله هى العليا .

لقد تضمنت مبادىء الاسلام الاساسية ثورة حقيقية كاملة تعد أكبر ثورة تحررية عرفتها البشرية ، ثورة على ربوبية العباد ، وثورة على الظلم بكل صنوفه أو أنواعه وفى كل ميادينه ومجالاته ، وثورة على النظم والحكومات والاوضاع التى تسند هذا الظلم وتستبقيه لحساب فرد على جماعة فى صورة حاكم أو مستغل أو لحساب طبقة على طبقة فى صورة اقطاعيين ورأسماليين وصعاليك أو لحساب دولة على دولة فى صورة محتلين ومستعمرين . وما واجهته المقاومة كان لابـد من الجهاد ولنصرة الثـورة وتحقيق ربوبية الله وحاكميته فى الارض واستنقاذ البشرية افرادا وجماعات من جـور الارباب الارضية الممثلة فى الاشخاص والحكومات والنظم والاوضاع ، فالحاكمية موجهة اذن ضد نظم اجتماعية معينة هى نظم الجور وليس الى البشر ونظمهم من حيث هم بشر .

ليس هم الاسلام شراء سلام كاذب مع الدول بأن يدع هذه الدولة تقيم لرعاياها اربابا من دون الله يدعون حق الربوبية فيها ، وتحرمهم العدل القضائى والعدل الاجتماعى . فهؤلاء الرعايا الذين تحكمهم تلك الدولة الظالمة أيا كان دينها وأيا كان شكلها هم ناس من البشر . والامة الاسلامية مكلفة أن ترفع عنهم الظلم وتمتعهم بالعدل ومن ثم فينصرف الجهاد الى تحقيق فكرة الثورة العالمية لا الى الحكم والسيطرة والغنم . الاسلام فى جهاد دائم لا ينقطع أبدا لتحقيق كلمة الله فى الارض أى لتحقيق النظام الاصلح الذى يقوم على مبادئه العليا فى عالم الفرد والجماعة البشرية . وهو مكلف الا يهادن قوى الطاغوت على الارض فى صورة فرد أو جماعة أو طبقة أو دولة مستغلة . قوة الاسلام قوة

محررة تنطلق من الارض لتدك قواعد الظلم والاسترقاق والاستغلال دون نظر الى جنس أو لغة أو أرض أو لون، ومنع الظلم عن المسلمين أو الذميين . والاسلام يواجه قوى الطاغوت بثلاث : الاسلام أو الجزية أو القتال . فالاسلام دين الحرية والجزية والكف عن المقاومة ، والقتال الرد على المقاومة . ان الاسلام قوة تحررية تنطلق فى الارض لتقرر ربوبية الله وحده للعباد وتحرر البشر من اغلالهم وتمنحهم الحرية والنور والكرامة دون نظر الى عنصرية او طبقية . فاذا اصطدمت هذه القوة بقوة الشر والطغيان والاستعباد كافحت هذه القوة الشريرة وحدها مبرأة من كل غاية استعمارية أو اقتصادية . حرب الاسلام حرب التحرير البشرية ، الحرب على عبودية البشر لناس من البشر وعلى الطغيان والظلم والشطط وعلى الخرافات والاوهام والاساطير ، حرب التحرير الخالصة من الهوى والدوافع الاقتصادية والعنصرية والطبقية لاتديرها رؤوس الاموال ، ولاتبتلع الحضارات والمدنيات أو تحطم النفوس والاخلاق (٧٨) .

ولكن بدايات القطيعة مع الثورة ظهرت فى « دراسات اسلامية »(٧٩) حيث يظهر محمد بن عبد الله محطما للطواغيت ، فقد تشخص الاسلام فى محمد وظهرت قوته فى تحطيم الطواغيت مما يدل على بدايات فكر المضطهدين ، كما هو الحال عند الشيعة تحت الحكم الاموى القائم على تشخيص الافكار والصراع بين الحق والباطل فتحول الفكر الاسلامى

---

(٧٨) المصدر السابق ص ١٧١ وما بعدها ، ص ١٨٨ ، ص ١٩٦ .

(٧٩) يضم مجموعة مقالات معظمها كتب فى ١٩٥٢ وليس دراسة اكاديمية كما يوحى العنوان بل نضال ومعارك مع بدايات الحكم الجديد .

من معارك الاسلام والرأسمالية الى معارك من أجل تأكيد الاسلام وسط الدعوة الوطنية الثورية الاشتراكية الجديدة والتأكيد على نقد الغرب والشرق واستقلال الامة الاسلامية عن الكتلتين ثم ظهور الحاكمية كاقوى سلاح لتأكيد التراث ضد العواطف الوطنية والغربية الجديدة.

وقد استمرت الدعوة الاجتماعية وان كانت حدتها قد خفت احيانا وتحولت من أسسها الاجتماعية والاقتصادية الخالصة الى أسسها الخلقية . فالتربية الخلقية وسيلة لتحقيق التكافل الاجتماعى ، وهى تربية ابتداء من ضمير الفرد وليست مجرد احضار للمنفعة الى محيط الاسرة ثم الى محيط الجماعة . ومع ذلك ينشر الاخوان البرنامج الاجتماعى مع برامج الاحزاب عشية الثورة المصرية وفيه تطهير شامل كامل للحياة الملكية ومعاونيها والاستقراطية الكاذبة ويعلنون ان الملكية الفردية فى صورتها الراهنة حرام تجعل ثلث الاراضى الصالحة للزراعة فى يد الملك وأسرته . وقد حولت دوائر التفتيش الناس فى مصر الى ارقاء ، ويطالبون بتحديد الملكية الزراعية ، ويحددون علاقة المالك بالمستأجر ويختارون نظام المزارعة فالايجار النقدى أو العينى طالما ظلم المستأجرين ، ويطالبون بتحديد الدخل ، وتقريب الفوارق بين الحد الاعلى والحد الادنى فى الاجور والمرتبات ، وضمان حد أدنى للجميع : مطعم كاف ، وملبس واق ، مسكن مريح ، وعلاج وتعليم بالمجان ، وضمانات اجتماعية ضد المرض والعجز والشيخوخة والبطالة، فان لم تكف الزكاة أخذت الدولة فضول اموال الاغنياء فردتها على الفقراء ، ويطالبون بادخال العمال الزراعيين فى النقابات وتطبيق قوانين العمال عليهم واباحة تكوين اتحادات العمال (٨٠) .

---

(٨٠) دراسات الاسلامية ص ٩٤ — ٩٦ .

وفى الوقت الذى كان الاستقلال الوطنى يتم عن طريق الغـرب والتفاوض معه وكان التغريب منتشرا فى اذهان القادة الوطنيين القدماء أو الجدد فان نقد الفكر الاسلامى للغرب تواصل من أجل تأكيد هوية الامة الاسلامية واستقلالها عن الكتلتين . فالعالم الحر اسم يطلقه الاستعماريون على أنفسهم تأكيدا لعنصريتهم ومنعا للحرية عن غيرهم. يستغلون المؤسسات الدولية والهيئات التعليمية لاغراضهم الخاصة (٨١). لقد طالما حاول الاستعمار ذاته القضاء على الاسلام فى شتى أنحاء العالم الاسلامى . وفى نفس الوقت تدعى الدول الاوربية انها تحترم حرية الاديان . وتدعى فرنسا الحرية بالرغم من حملاتها الصليبية فى الجزائر .« ولقد عجز الدكتور طه حسين هو فى وزارة المعارف — وهـو أصدق اصدقاء فرنسا — ان يفتتح معهد المعرفى الجزائر أو حتى فى طنجة التى تحكم دوليا بسبب تعصب صديقه الكبرى فرنسا » (٨٢) . وفى نفس الوقت يقال : المسلمون متعصبون لانهم يدعون الى تكوين كتلة لانقاذ العالم الاسلامى مما يقع عليهم من أبشع أنواع القهر والاضطهاد الدبنى فى القرن العشرين فى آسيا وأفريقيا وايقاع العالم الاسلامى فى الاحلاف الاستعمارية . ولاضير من استعمال « اسلام امريكانى » يتحدث عن مزايا الشعائر وتسامح الدين والزكاة للفقراء وحوار بين الاسلام والكثلكة من أجل ابراز التعارض بين الاسلام والشيوعية .

---

(٨١) يضرب سيد قطب المثل باليونسكو ، والنقطة الرابعة ، والجمعية المصرية الانجليزية ، وجمعية نادى المعلمين ، وجمعية نادى الجزيرة ، وجمعية الفلاح ، وجماعة اخوان الحرية التى انشأها امين عثمان تاكيدا للصداقة المصرية الانجليزية مما يشير الى نفس الظروف التى خـرج منها الضباط الاحرار الذين راح سيد قطب ضحيتهم . وينبه سيد قطب رجال العهد الجديد عدم الوقوع فى ذلك الفخ . المصدر السابق ص ١٦١ — ١٦٣ .

(٨٢) المصدر السابق ص ١٧٩ .

وتقوم الديموقراطيات الشعبية فى الشرق وهى لاتحمل الا الاسم لانها تقوم على الدكتاتورية والنظم البوليسية والجاسوسية وتمنع حرية الفكر . هذا بالاضافة الى محاولة القضاء على الاسلام والمسلمين فى آسيا فى التركستان والقرم وأوربا الشرقية فيمتزج فى الغرب والشرق معا التعصب الدينى والتعصب العنصرى من أجل تحويل شعوب العالم الى هنود حمر أو عبيد سود . فالبشرية اليوم فى مفترق الطرق ، وستحتاج فيما بعد الى « معالم فى الطريق » .

وتبلغ قيمة هذه الفترة أيضا فى تصور الاسلام على أنه ثورة تحريرية كبرى فى وقت اندلعت فيه الثورة المصرية ومحاولة الفكر الاسلامى تمثلها وتجاوزها . فقد حطم الاسلام الطواغيت كلها . فى الضمير وفى الواقع . كان الاسلام ثورة تحررية كاملة للانسانية شملت كل نواحى الحياة الانسانية . كان ثورة على طاغوت الشرك فى عالم العقيدة ، وثورة على طاغوت التعصب العنصرى ضد الجنس واللون وأعلن وحدة الاصل الانسانى ووحدة الجنس البشرى ، وثورة ضد طاغوت التعصب الدينى معلنا حرية الاعتقاد ، وثورة على طاغوت التفرقة الاجتماعية والنظام الطبقى فى مجتمع كان يفخر بالانساب والاشراف ، وثورة على طاغوت الظلم والبغى والطغيان جردت الحكام والسلاطين من كل امتياز وسلطان لانها ردت الامر كله لله فى التشريع وردت الامر كله الى الامة فى اختيار من يقوم على تنفيذ التشريع . ان انتزاع حق التشريع من البشر ورده الى الله وحده سبحانه لم يبق لواحد من البشر أو لجماعة أو لطبقة أى مجال للتحكم فى الآخرين ولا أى منفذ يعلو به فرد على فرد أو فرد على جماعة أو طبقة على طبقة . ان الحاكمية لله سبحانه وليس لغيره ان يشرع الا استمدادا من

شريعته ، والله رب الجميع . واذن فلن تكون فى تشريعه محاباة لفرد أو جماعة أو طبقة . ولن يحس أحد انه حين ينفذ القانون خاضع لمشيئة احد . انما هو خاضع لله رب الجميع ، ومن ثم تتساوى الرؤوس . وترتفع الهامات جميعا لانها لاتعنو جميعا الا لله وحده » وأما من يقوم على تنفيذ التشريع فانه لايشرع بل ينفذ . وهو يستمد حقه فى القيام على التنفيذ من اختيار الامة له . والطاعة المفروضة له ليست طاعة لشخصه انما هى طاعة لشريعة الله التى يقوم على تنفيذها ولا حق له فى الطاعة حين يتعداها . فان وقع خلاف على أمر من الامور التنفيذية فالحكم فيه هو الشريعة ذاتها » (٨٣) . والاسلام ايضا ثورة على طاغوت الرجل من أجل حقوق المرأة . فالحاكمية لله اذن تعنى ثورة على الطواغيت، وتحرر البشرية . ولا يحكم الله بذاته بل من خلال الشريعة ، والقائم عليها منفذ لها وليس مشرعا والمطيع لها مطيع للشريعة وليس مطيعا للقائم على تنفيذها فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . « اننا ندعو الى نظام الحاكمية فيه لله وحده لا لفرد من البشر ولا لطبقة ولا لجماعة وبذلك تتحقق فيه المساواة الحقيقية ، ولا يكون لحاكم فيه حقوق زائدة على حقوق الفرد العادى من الشعب ولا تكون هناك شخصية أو شخصيات مقدسة فوق مستوى القانون . ولا تكون هناك محاكم خاصة للشعب ومحاكم خاصة للوزراء أو غير الوزراء . انما يقف فيه الحاكم الاعلى مع أى فرد من الشعب أمام القضاء بلا تمييز ولا استعلاء . اننا ندعو الى نظام يجعل لجميع المواطنين حقا عاما فى الثروة العامة لان الملكية فيه اصلها للجماعة مستخلفة فيها عن الله ،

---

(٨٣) دراسات اسلامية ص ١٦ — ١٧ .

والملكية للفردية عارضة وفى حدود الانتفاع . والفضل للجماعة حين تحتاج اى فضل الاموال » (٨٤) .

وتبدو الحاكمية فى مظهرها . السلبى رفض العبودية للبشر . فتظهر على أنها تحرير للروح البشرية من العبودية لغير الله من الارباب المتفرقة من الاوهام والشبهات . « والعبودية لغير الله من الارباب المتفرقة سواء هى العبودية للاوهام والخرافات والاساطير ، والعبودية الشهوات والنزوات الهابطة ، كلها تنفق الطاقة البشرية فى غير مايليق بالانسان ، وكلها تصرفه عن التطلع للبناء والتعمير والانشاء وكلها تصده عن النهوض بتكاليف الحياة الكريمة التى أرادها الله لبنى الانسان ... وليس هنالك اختلاف ظاهرى بين اوضاعنا الحاضرة والاوضاع التى كانت مع عهد الرسول من هذه الوجهة ، وأن خيل الى البعض ان الدعوة الى تحرير البشر من عبودية الارباب المتفرقة لا موضع لها اليوم ولا ضرورة . كلا ! فان عبادة الارباب المتفرقة اليوم لاتنقص من عبادة الارباب المتفرقة فى الجاهلية ، كل ماتغير هو نوع الارباب لاعبادة الارباب . أما عبادة الشهوات ، وعبادة الخرافات فهما على حالهما بغير استثناء » (٨٥) . ان البشر يدفعون ضريبة الذل ان هم عنوا الرؤوس لغير الواحد القهار ، ويتحولون الى عبيد بمحض اختيارهم ولكن العبودية لله هى التى تحرزهم . العبودية لله هى التى تعطى البشر حرية الكلمة والقدرة على الجهر بالحق . انه فى ذلك التصميم الحاسم على تحويل

---

(٨٤) المصدر السابق ص ٨١ — ٨٢ .

(٨٥) المصدر السابق ص ٧٤ — ٧٥ .

الكلمة المكتوبة الى حركة حسية والمعنى المفهوم الى دافع ملموس (٨٦)٠ عبارات وتلك ستستخدم فيما بعد للتعبير عن التصور الاسلامى والتفرقة بين العقائد والفلسفات ٠

لذلك استطاع الاسلام ان يكافح الظلم وأن يقف بجانب المظلومين يصرخ فى وجه الطغاة والمتجبرين ٠ « ان الاسـلام فى صميمة حركة تحريرية تبدأ فى ضمير الفرد وتنتهى فى محيط الجماعة ٠ ومايعمر الاسلام قلبا ثم يدعه مستسلما خاضعا لسلطان على وجه الارض الا سلطان الواحد القهار ٠ ومايعمر الاسلام قلبا ثم يدعه صابرا ساكنا الظلم فى صورة من صورة جميعا سواء وقع هذا الظلم على شخصه أو وقع على الجماعة الانسانية فى أية أرض وفى ظل أى سلطان » (٨٧) ٠ومن هنا اتى التعارض بين الحق والباطل ، بين الاسلام واللاسلام دون أن يظهر بعد مفهوم الجاهلية ٠ « انه اسلام أو لا اسلام ٠٠ اسلام فهو كفاح لايهدأ أو جهاد لاينقطع ، واستشهاد فى سبيل الحق والعدل والمساواة أو لا اسلام ٠ فهو اذن همهمة بالادعيـة وطقطقة بالمسـابح وتمتمة بالتعاويذ ، واتكال على ان تمطر السماء على الارض صلاحا وخيرا وحرية وعـدلا ٠ ومـا كانت السـماء لتمطـر شـيئا من هـذا كلـه ؛ وما كان الله ينصر قوما لا ينصرون أنفسـهم ، ولا يثقون بأهلهم ، ولا ينفذون شريعته فى الجهاد والكفاح »(٨٨) ٠ وهذا هو معنى القتال لتكون كلمة الله هى العليا ٠ « فكلمة الله هنا تعنى كذلك حرية الدعوة وحرية الاعتقاد ٠ وكل قوة مادية تقوم فى وجـه هاتين الحريتين أو

---

(٨٦) المصدر السابق ص ١٣٨ ٠

(٨٧) المصدر السابق ص ٣١ ٠

(٨٨) المصدر السابق ص ٣٢ ٠

احداهما هى قوة معتدية مضادة لكلمة الله الذى كرم الانسان وجعله على نفسه بصيرة ، وجعل عقله هو الحاكم ، وارادته هى مناط التكليف، واعتبر الوقوف بالقوة فى وجه الدعوة او استخدام القوة للاكراه على العقيدة معطلا لكلمة الله • فمن قاتل كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله(٨٩) • يحرم الاسلام الانضمام الى قوى الطواغيت ويحتم دفع الظالم عن البشرية • حرب الاسلام هى حرب التحرير البشرية ، حرب على عبودية البشر للبشر •

وقد تحققت هذه الثورة بالفعل بعد ان توفرت عناصر ثلاث : عدم المساومة على الحق ، وتحويل العقيدة الى حياة وحركة ابتداء من ضمير الفرد ، وتحويل الاسلام كله الى نظام شامل للحياة • فثورة الاسلام تنبع من طبيعته وليس من القائمين على تنفيذه « ولذلك اختفت من الاسلام اسطورة فصل الدين عن الدولة لانه لا دولة بلا دين ، ولا دين بلا شريعة ونظام »(٩٠) • الاسلام عقيدة الضمير ، ينبثق منها سلوك فى المجتمع ويقوم عليها نظام للحياة • نظام كامل يتناول نشاط الفرد فى حياته العائلية وحياته الاجتماعية وحياته الدولية • ويحكم على علاقاته المتنوعة فى تلك الميادين كلها ، ويضع الشرائع التى تنظم هذه العلاقات » • ليس فى الاسلام دعوة ان ما لقيصر لقيصر وما لله لله لان الاسلام يعتبر كل شىء لله ولايعرف قيصر الا منفذ الشريعة الله ، منظما للحياة بقانون الله •

كذلك يرفض الاسلام ادب الانحلال « الدنيا سيجارة وكاس »

---

(٨٩) المصدر السابق ص ٤١ •

(٩٠) المصدر السابق ص ٢٨ ، ص ٧٣ •

لانه ادب يخدر الشعوب ويستذل النفوس البشرية ويقضى منها روح الكفاح • وهو ما فعله الأمويون ليأمنوا أهل الحجاز والتاريخ يعيد نفسه« عندئذ انطلق كتاب وشعراء وفنانون ، يسبحون بحمد الطاغية الصغير، ويسجدون له من دون الله ويخلعون عليه من صفات الله سبحانه ما لا يجرؤ مسلم أو مسيحى على النطق به حياء من الله(٩١) • كما يرفض مواكب الفارغات الحفنة الفارغة من النسوة والمتشدقات الذين يحكون عن المرأة والبرلمان والمرأة والوزارة • والاسلام أعطى المرأة جميع حقوقها فى الدراسة والعمل ، والتجارة والقتال •

وفى نهاية المرحلة الاجتماعية نستخلص النتائج الآتية :

١ — تطور سيد قطب تطورا طبيعيا عن الادب الى الوطنية الى الاشتراكية الى اكتشاف الاسلام كوعاء حاو لكل هذه التيارات • ولو كان استمر تطوره على نحو طبيعى لانتهى الى الاشتراكية العلمية كمرادف للاسلام ، ولاصبح من ركائز اليسار الاسلامى فى مصر ومن دعائمه الاولى فى العالم الاسلامى • ولكن اندلعت الثورة المصرية فى ١٩٥٢ وحققت ماكان ينادى به سيد قطب من عدالة اجتماعية ومقاومة الاستعمار والصهيونية ودعوة الى تكوين كتلة ثالثة بين المعسكرين • ولكن نظرا للتخلف الحضارى وعدم استطاعة الضباط الاحرار جعل مضمونهم الثورى من داخل الاسلام ،وعجز الاخوان عن جعل قالبهم الاسلامى قادرا على احتواء المضمون الثورى ، ونظرا للصراع على السلطة فقد كان كل فريق ضحية التصور الهرمى للعالم ظانا ان السلطة هى اداة التغير الاجتماعى

---

(٩١) المصدر السابق ص ١٤٩ •

حدث الصدام المؤسف بين الثورة والاخوان فى ١٩٥٤ • واستمر هذا الصراع على طول تاريخ الثورة وراح سيد قطب ضحية هذا الصراع فلا هو طور أفكاره الاشتراكية الاولى من خلال الممارسة السياسية الفعلية بعد ان ميعتها الثورة ولا هو استطاع تأصيلها فى الاسلام نظرا لحل جماعة الاخوان المسلمين • اصبح محصورا بين دفتى الرحى مع أنه كان مؤهلا للقيام بالوحدة الوطنية وبانشاء اليسار الاسـلامى الذى كان يمكن أن تلتقى عليه الثورة والاخوان(٩٢) • لم يبق من الاخوان الا التيار المحافظ الذى منه خرجت الجماعات الاسلامية مع أخذ بالثأر لشهدائها من الثورة خاصة وأن سيد قطب كان محط الشكوك من الاخوان وكان منهم من يتهمه بالخروج على أفكار حسن البنا ، وتأثره بالاتجاهات الوطنية الاشتراكية والشيوعية •

٢ ــ لم تظهر الحاكمية لله الا بمعنى الحاكمية للتشريع • فالحاكم للشريعة وليس لله والحاكم يستمد سلطنه من البيعة وليس من الله • وهذه الحاكمية التشريعية ليست ضد نظم البشر كلها فى ذاتها ولكنها ضد نظام بشرى واحد بعينه وهو الذى يقوم على الظلم الاجتماعى والعدوان على حرية الاعتقاد • ولا يوجد اثر أو ذكر أو استشهاد بأبى

---

(٩٢) كان الكثير يراجعوننى حين يروننى اكتب فى « الدعوة » ، مجلة الاخوان المسلمين ، وفى « الاشتراكية » جريدة الاشتراكيين ، وفى « اللواء الجديد » جريدة الوطنيين • وكنت أقول للجميع : اننى أخوض المعركة على صفحات الصحف جميعا تحت راية واحدة ، راية الاسلام ، ان الاسلام يكافح فى ميدان العدالة الاجتماعية الذى يكافح فيه الاشتراكيون ، وفى ميدان العدالة الوطنية والسياسية الذى كافح فيه الوطنيين ، وفى ميدان العدالة الانسانية الذى يكافح فيه الاخوان المسلمون . دراسات اسلامية ص ٩٧ .

الاعلى المودودى كما سيحدث فيما بعد وهو فى غيابات السجن • وبالتالى لم تخرج الجماعات الاسلامية من هذه الفكرة الاولى بل من الحاكمية لله نظرا لتشابهها معه فى الموقف النفسى « نفسية السجين »•

٣ — بالرغم من معركة الاسلام ضد الرأسمالية وظهور الاسلام كدين العدالة الاجتماعية الذى يدافع عن حقوق الفقراء ضد الاغنياء الا أن بقايا التصورات الرأسمالية مازالت باقية عند سيد قطب مثل حق الملكية الفردية وحق الارث تعبيرا عن حب الذات فى حين ان الله هو المالك وحده وأن الانسان مستخلف فيما بين يديه • ومن هذه البقايا تخرج الجماعات الاسلامية المعاصرة دون تطوير للفكر الاجتماعى الاسلامى •

٤ — بالرغم من معاداة سيد قطب للحضارة الغربية المادية وفقده للنظم الرأسمالية والشيوعية على حد سواء وادانته للمذهب المادى ومظاهر الانحلال والجنس فى الغرب الا ان الجماعات الاسلامية المعاصرة قد خفت حدتها فى نقدها للغرب وزادت حدتها فى نقدها للشرق ، فازدادت نسبة تسرب العناصر الرأسمالية فى فكرها ، وابتعدت عن رؤية بعض مظاهر العدالة الاجتماعية فى النظم الاشتراكية حتى رأى الغرب فيها حليفا طبيعيا له ولعدائها المستميت ضد الشيوعية بالرغم من تحذير سيد قطب من « الاسلام الامريكانى » ، وركزت اهتمامها على تحريم الجسد وكأن العالم يسير بالغرائز ، وكأن البشر حيوانات ، مدفوعة بالجنس • وكلما زاد التحريم زاد الاشباع المقلوب •

٥ — ظهر الواقع الاحصائى عند سيد قطب ولجأ الى الانظمة الاجتماعية محللا اياها كعالم اقتصاد واجتماع وسياسة وقانون وتاريخ ، بل أنه نادراً فى « معركة الاسلام والرأسمالية » مايعتمد على النصوص الدينية ولكن الجماعات الاسلامية المعاصرة تراجعت عن هذا المنهج واعتمدت اعتمادا كليا على قال الله وقال الرسول ، وأصبحوا خطباء ووعاظ اكثر منهم علماء ومفكرين . وغاب التحليل الكمى للواقع واقتصروا على ترديد الشعارات العامة بلا مضمون اجتماعى للامة الاسلامية .

٦ — تظهر احيانا عند سيد قطب بدايات الثنائية المتصارعة المتعارضة التى لاواسطة بينها . فالاسلام اما أن يؤخذ كله أو يترك كله خذوا الاسلام جملة أو دعوه »(٩٣) . وقد أصبح هذا الجدل بين الكل أو لا شىء طابعا مميزا لفكر الجماعات الاسلامية وسلوكها وبالتالى غاب الحوار ، وتوارى العقل ، وبرز الهوى والانفعال . غابت فكرة المراحل والاستكمال والتطوير والاحتواء .

٧ — بالرغم من نقد سيد قطب لتحويل الاسلام الى دين شعائرى تمتمة بالشفاة ، وتسبيح بالاصابع ، واطالة اللحى والحرص على السلام كتشريعة ونظام فان الجانب الاجتماعى عند الجماعات الاسلامية قد توارى وبرز الجانب الشعائرى المظهرى ، توارت هذه المرحلة الاجتماعية ولم تحدث اثرا فى الجماعات الاسلامية المعاصرة باستثناء بعض كتابات نظرية تقليدية عن الاقتصاد الاسلامى ، واعادة تحريم

---

(٩٣) المصدر السابق ص ٨٦ — ٩٢ .

فوائد شهادات الاستثمار ضد فتاوى الامام محمد عبده وبعض الفقهاء والمحدثين • لم يحدث تطبيق مباشر للاقتصاد الاسلامى فى حالة مصر أو الحجاز أو باكستان • فما اسهل تقريظ النظريات وما أصعب تحليل الواقع وقياس المسافة الشاسعة بين النظرية والواقع • ومما يساعد على هذا التحول من الجانب الاجتماعى الى الجانب الشعائرى ماتقوم به الدولة من احتكار للقضايا الاجتماعية وتغطيتها بشعارات اسلامية مثل تطبيق الشريعة الاسلامية ، والترويج للاسلام الشعائرى فى اجهزة الاعلام ، اضفاء للشرعية على واقع الظلم الاجتماعى ، والترويج للقيم السلبية من التراث الصوفى مثل الايمان والصبر والمحبة والرضاء والتوكل ومن التراث العقائدى مثل القضاء والقدر ، وتكفير الخصوم السياسيين واتهام دعاة التغيير الاجتماعى والعدالة الاجتماعية بالكفر والالحاد ، والاحتفال بالموالد وانارة المآذن ، وبناء المساجد ، والنداء للصلاة فى أجهزة اعلام ، وبناء مجمع للاديان !

ثالثا : المرحلة الفلسفية : (١٩٥٤ — ١٩٦٢) :

تبدأ المرحلة الفلسفية نفسيا أكثر منها تاريخياً وذلك بعد أن احتكرت الثورة العمل السياسى وقامت بتنفيذ بعض مطالب العدالة الاجتماعية مثل قوانين الاصلاح الزراعى وبعض المطالب السياسية مثل معاداة الاستعمار والرأسمالية والاقطاع • ولكن بعد صراع الثورة مع الاخوان ، بدأت المعركة الاجتماعية فى فكر سيد قطب فى الانحسار وبرزت تعويضا عنها وشيئا فشيئا بعض المسائل النظرية التى بلغت ذروتها فى « خصائص التصور الاسلامى ومقوماته » ، وقد

بدأ هذا الانحسار واضحا فى « المستقبل لهذا الدين » ثم فى «نحو مجتمع اسلامى » حيث يتجاوز الاسلام النظامين الرأسمالى والشيوعى ، ويصبح قادرا على أن يعرض نفسه كنظام مستقل. ثم بدأ العرض النظرى التصورى لهذا النظام أولا فى « هذا الدين » ثم فى « خصائص التصور الاسلامى ومقوماته » الذى طالما وعد به والذى لم يصدر الا الجزء عن المقومات » (٩٤) •

ويغلب على هذه المرحلة أربعة موضوعات رئيسية : نقد الحضارة الغربية ، وأن المستقبل للاسلام ، وخصائص التصور الاسلامى ، واخيرا حاكمية الشريعة •

فالحضارة الغربية ليست نمطا مثاليا لكل حضارة بل هى حضارة خضعت لظروفها الخاصة ولطبيعة معطياتها الدينية خاصة المسيحية وردود الفعل عليها • فكل دين ، وليس فقط الاسلام ، تصور للانسان والحياة والكون ينشأ منه نظام • فبعد ان اكتشفت الحضارة الاوربية بعد دينها عن الحياة ، وفصل ملكوت السموات عن ملكوت الارض ، وما به من عقائد ظنية ، وسلطة كهنوتية قام بعملية رد فعل على ذلك ولجأ الى العالم ، والعالم ، والمدة ، والطبيعة • فنشأت المادية الاوربية

---

(٩٤) لم نستطع للاسف رصد تاريخ الطبعات الاولى لهذه المؤلفات الاربعة . ولكن طبقا لمحمد على قطب ظهر « هذا الدين » « المستقبل لهذا الدين » ، « نحو مجتمع اسلامى » وهو فى فترة اعتقاله الاول ابتداء من ١٩٥٤ أى فى منتصف الخمسينات محمد على قطب « سيد قطب ، الشهيد الاعزل » ص ١٩ — ٢٠ . أما « خصائص التصور الاسلامى ومقوماته » فيبدو انه من اواخر الخمسينات لان « الاسلام ومشكلات الحضارة » الذى صدر ١٩٦٢ يحيل اليه .

المشهورة كتيار أساسى تقوم عليه جميع مذاهبها الاقتصادية والسياسية، والرأسمالية منها والشيوعية •آمنت الحضارة الغربية بالعلم ، هذا الاله الغربى الجديد ، الذى يقوم على تصور خاص للمادة • ثم بدأت البشرية اليوم فقد الثقة فى هذا الاله الجديد بعد ان انفلتت من قيود العقيدة التى هى عبادات جديدة مثل آلهة امريكا الجديدة : الانتاج، المال ، اللذة ، وآلهة الماركسية الجديدة ، المادة ، الاقتصاد ، وماركس • ولم تستطع هذه الالهة الجديدة ملأ الفراغ الروحى واعطاء الثقة بالنفس وراحة الضمير فانتهت الحضارة الغربية الى الخواء التام على الرغم مما يبدو فى الظاهر من زحمة وامتلاء « ان البشرية فى حاجة الينا » (٩٥) •

وقد حدث الفصل النكد فى أوربا بعد ان اكتشفت زيف معطياتها الدينية • فبعد ان وقع الفصال بين المسيحيين واليهود رفض المسيحيون شريعة التوراة كما رفض اليهود من قبل شريعة عيسى التى اتى بها تخفيفا لشريعة موسى • وبعد دخول الامبراطور قسطنطين المسيحية حدث تحول عظيم فيها ، فتحولت من دين الى دنيا وتم اضطهاد الفرق المسيحية المعارضة مثل « المونوفيسية » التى كان عليها أهل مصر الذين استقبلوا العرب القائمين كمخلصين لهم من الاضطهاد الدينى والقهر السياسى • كل ذلك ادى الى وقوع الزيف فى التصور النصرانى بالاضافة الى تسلط الكنيسة على رقاب المؤمنين وتهديدهم بالطرد والحرمان

---

(٩٥) نحو مجتمع اسلامى ص ١١ — ١٣ ، سيد قطب ، امريكا التى رأيت وعد باصداره فى الطبعة الثانية فى العدالة الاجتماعية فى الاسلام ويقتبس منه فقرات بالفعل فى « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٨٢ — ٨٧ عن مشاهداته فى مواضيع الكنيسة والمجتمع والعلاقات بين الجنسين ولكن يبدو أنه لم يصدر ولم نستطع العثور عليه أو الاهتداء اليه .

وانذارهم بالنار هم أخذوا من طيبات الحياة . كانت الرهبانية مضادة للفطرة والطبيعة ، واحتكرت الكنيسة تفسير الكتاب المقدس وتفسير العلم ووقع الصراع بين الاباطرة والبابوات حتى قامت الثورة المعاصرة على الدين منذ الاصلاح الدينى حتى العصر الحاضر ، ضد هذا الفصام النكد بين الدين والحياة ، وبين التصور والنظام . وثار المجددون المتنورون على مآسى رجال الدين ورذائلهم ورفضوا الدين فى رفضهم لرجال الدين وابعدوه عن الحياة فحوت الفصل النكد (٩٦) .وهى كلهاظروف خاصة بنوعية دين بعينه ومساره فى التاريخ وليس كل دين وكل مسار، وهو مالا يعرفه المقلدون المرددون لكل ماينتجه الغرب . وان « جناية الحضارة الراهنة وسبب فسادها الاساسى ، واهدارها للقيم الانسانية والخصائص الانسانية والمقومات الفردية .. يكمن فى رفضها ابتداء ان يكون للدين — بوصفه منهجا للحياة من عند الله — هذه الاختصاصات وهذا السلطان أى رفضها لألوهية الله سبحانه ، هذا الرفض المتمثل فى اتخاذ مناهج للحياة غير منهجه ولو لم تعلن رفضها لالوهية الله جهرا — كالبلاد الشيوعية — فاتخاذ مناهج من صنع البشر هو رفض لالوهية الله قطعا (٩٧) .لقد جعل الله الانسان سيد الآلة والمادة والاقتصاد وليس خاضعا لها . « فالجاهليات القديمة كانت جاهليات جهل وسذاجة وفتوة ، أما الجاهلية الحاضرة فجاهلية علم وعقيدة واستهتار (٩٨) . اكنت الجاهليات الاولى قريبة من البداوة ولكن بها أخلاق البداوة أما جاهلية اليوم فعنيفة مكشوفة حرية مبتذلة خالية من القيم .

---

(٩٦) المستقبل لهذا الدين ، فصل الفصام النكد ص ٢٧ — ٥٤ .

(٩٧) الاسلام ومشكلات الحضارة ص ١١٨ — ١٢٠ .

(٩٨) هذا الدين ص ٩٣ — ٩٥ .

نشأت جميع الاتجاهات الاوربية مناهضة للدين من عقلية مثالية ووضعية حسية وجدلية مادية • فبعد سيادة النص أو الدين ساد العقل وتزايد الشعور بالثقة به والجرأة على الواقع والايمان بالمنافع البشرية • ثم ساد الحس للتخفيف من صورية العقل ونشأت المذاهب الوضعية • وأخيرا سادت المادية الجدلية التى عليها قامت الماركسية • هذه الاتجاهات كلها انحرافات بشرية كرد فعل على تشويه المجامع الكنسية للتصور الدينى • وانتهت الحضارة الاوربية الى نصب الهة آخرين بدل اله الكنيسة ؛ آلهة العقل ، والحس ، والمادة ، وهى كلها انحرافات عن التصور الربانى (٩٩) •

أما على مستوى المذاهب الاقتصادية فقد نشأت الرأسمالية على المذهب المادى وانتهت الى الاحتكار والاستغلال وكان الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية كما يقول لينين ثم جاءت الشيوعية كرد فعل طبيعى عليها منعا للاحتكار والأستغلال وهى بالتالى تمثل تقدما بالنسبة للرأسمالية ولكنها مازالت نظاما يقوم على مذهب مادى نتيجة للفصام النكد ولا يرتكز على عقيدة الايمان بالله بل على أدوات الانتاج التى عندما يسيطر عليها البروليتاريا تقود العالم ومهما حاولت الماركسية تغيير وتطوير نفسها فانها تتحطم ولا يبقى منها الا الدولة والنظام البوليسى(١٠٠)•جاءت الشيوعية تفسر التاريخ تفسيرا ماديا لتعطى مبادىء الثورة الفرنسية نطاقا أوسع من الوجودية والبرجماتية ولكنها ايضا عجزت عن ان تمد الانسانية بعقيدة وأن مدت الغرب بعقيدة تملأ

---

(٩٩) خصائص التصور الاسلامى ومقوماته ص ٦٨ — ٨٤ •

(١٠٠) المستقبل لهذا الدين ص ٥٨ — ٦٤ •

فراغه الروحى والفكرى لدى المثقفين وتسحر طبقة العمال المستغلين « ان الشيوعية هى النهاية الطبيعية لحضارة خالية من الروح خاوية من المثل ، مجردة من الاحلام »(١٠١) • عمرها قصير ولا تجذب الا الشعوب الاوربيـــة •

لقد أعلن كثير من مفكرى الغرب نهاية دور الرجل الابيض وتنبأ رسول بانتشار الشيوعية فى آسيا والعالم العربى باستثناء الهند (١٠٢) وقد يؤكد ذلك تبنى الصين للمذهب الشيوعى والعالم العربى والاسلامى فى الطريق اليها • ولكن سيد قطب يرى ان النبؤة صحيحة فى اولها وليس فى اخرها • فلقد انتهى عصر الرجل الابيض بالفعل • ولــم يعد يصلح لقيادة العـــالم • فلقد أصيب بالعقم بعــد الماجنا كارتــا الانجليزية ومبادىء الثورة الفرنسية ومبادىء الحرية الفردية التى سارت فيما يسمونه بالتجربة الامريكية • ولكن يغيب منهــا كلهــا الاعتقاد بالله نتيجة للفصام النكد • وبالتالى لم تعد صالحة للبقـــاء لانها لاتقوم على الانسان كقيمة بل على المادة أو الانسان الضائع الهائم على وجه كما هو الحال فى الوجودية • وقد شهد شاهد من أهلها ضد الحضارة المادية القائمة لقتلها أهم خصائص الانسان وأطلق فيها صيحة مدوية بالاخطار التى تهدد الجنس البشرى من جراء الاعتداء على القوانين الطبيعية التى لاتدع المعتدين عليها بلا عقوبة وأعلن جهل العلم بحقيقة الانسان بل بأبسط حقائق تكوينه الجسدى (١٠٣)

---

(١٠١) نحو مجتمع اسلامى ص ٢٢ .

(١٠٢) المستقبل لهذا الدين ، فصل انتهى دور الرجل الابيض ص ٥٥ — ٦٩ ، نحو مجتمع اسلامى ص ٢٧ — ٤٥ .

(١٠٣) المصدر السابق ص ٧٢ .

فان الحرية والاخاء والمساواة : كانت غايات محدودة بفترة معينة من الزمن وبآفلق معينة • فكانت تعنى الحرية الشخصية فى كل ميدان ، وكانت المساواة تعنى المساواة فى الحقوق المدنية وليس فى الحقوق الاجتماعية والاقتصادية • وظل مبدأ الاخاء مسألة نظرية صرفة • ولم تعط امريكا شيئا على مستوى المبادىء والمثل •

ويدخل نقد الحضارة الغربية ضمن اطار فلسفة التاريخ فكما ازاح الاسلام فى نشأته الامبراطوريتين القديمتين الفارسية والرومانية وشق طريقه وسطهما ثم احتواهما كذلك يكون مستقبل الاسلام فى مواجهة النظامين العالمين الحاكمين الآن الرأسمالية والشيوعية • سيزحف الاسلام عليهما حاويا اياها ووارثا نظم العالم الجديد • هناك طريق واحد للشعوب الاسلامية الآن يؤدى بها الى العزة القومية والعدالة الاجتماعية والتخلص من عقابيل الاستعمار والطغيان والفساد، وهو طريق الاسلام والتكتل على أساسه • لقد مزق الاستعمار العالم الاسلامى وأكله فرادى وأورث بين شعوبه الاحقاد وربطها بالعملاء شرقا وغربا ، وروح الصليبية واحدة • والتكتل الاسلامى لايعنى التعصب بل ان الاسلام هو الضمانة الوحيدة لوقف حركة التعصب ضد المخالفين له فى العقيدة • وتظهر صورة الطريق بقوة « انه طريق وحيد ، طريق الكرامة ، وطريق المصلحة ، وطريق الدنيا ، وطريق الآخرة • أنه الطريق الى الله فى السماء والى الخير فى الارض ، والى النصر والعزة والاستعلاء أنه هو الطريق » (١٠٤) •

لقد كان يمكن لاوربا ان تستفيد قديما من فكرة الاسلام وأن

---

(١٠٤) فى التاريخ فكرة ومنهاج ، طريق وحيد ص ٦٨ •

تستمع بتجارة لولا أنها وقفت له بالمرصاد أبان المد الاول عندما وصل الاسلام الى حدود البرانس ثم ساقها التعصب الى طرده من الاندلس. ومع ذلك فالبشرية جائرة على الاسلام من جديد بالرغم من دعاة التغريب فى حياة المسلمين » ان الاسلام بالذات كان ثورة تحررية حررت الفكر كما حررت الروح . حررت الفكر من الوهم والخرافة ووجهته الى تنزيه الحياة فى الارض دون تخوف من الطبيعة التى عقدت بينه وبينها اواصر الصداقة والقربى وصورتها له عرضا مساعدا لاعدوا مناوئا . وحررت الروح من الهبوط والتردى وأطلقته يرتاد الآفاق العليا وجذب الحياة كلها اليها . لذلك نمت الحياة فى ظله نموا سريعا » (١٠٥) . وقد فتح الاسلام الامصار باسم هذه الثورة التحررية القائمة على العدل والحرية . وعندما ماينتهى الضراع بين الشيوعية والرأسمالية عندئذ يبدأ الصراع بين الفكرة الانسانية التى يمثلها الاسلام والفكرة المادية التى تمثلها الشيوعية والرأسمالية على الرغم مما يوحى الاستعمار بما بينهما من تعارض .

ان المنهج التجريبى الذى يعتز به الغرب ويفخر به لهو من نتاج الاسلام وأثره من خلال الاندلس عندما ترجم اللاتين علوم المسلمين الطبيعية القائمة على منهج التجريب المستمد ذاته من الاسلام كمنهج تجريبى ، ولقد كان الاسلام هو الذى انشأ — بطبيعة واقعية منهجية — المنهج التجريبى الذى انتقل الى أوربا من جامعات الاندلس والذى أقام عليه روجربيكون وفرنسيس بيكون الذى سموه افتراء — أبا المنهج التجريبى — منهجهما كما قرر ذلك بريفولت ودوهرنج من

(١٠٥) نحو مجتمع اسلامى ص ٣٥ .

الكتاب الغربين أنفسهم (١٠٦) • ولقد استمدت أوربا حياتها وهى جهالتها فى الاسلام ، وأقامت عليه حضارتها ؛ وكان ذلك أثرا مباشرا للحروب الصليبية ولقيام دولة الاندلس فى أسبانيا واستطاع أن يؤثر أكثر مما أثرت فيه المسيحية نظرا لطبيعته الايجابية وطبيعة المسيحية السلبية فقد قدم الاسلام الفكرة كما قدم ترجمتها فى الحياة الاجتماعية، قدم التصور كما قدم النظام (١٠٧) • لقد نشأت مناهج البحث العلمى فى ظل الاسلام فى جامعات الاندلس وقد اعترف روجربيكون باقتباسه المنهج التجريبى من العالم الاسلامى • والقسم الخامس من آخر كتبه الكبرى فى البصريات منقولا عن كتاب المناظر لابن الهيثم بالاضافة الى تأثره بابن حزم •لقد درس العربية والعلوم الاسلامية ونقل روحها الى اوربا المسيحية ثم وقفت الكنيسة امام هذا العلم الجديد فمدت الفصام النكد المشئوم وقد آمن الصليبيون من قبل بالعالم الاسلامى « ورأوا شريعة يتحاكم اليها الناس حاكمهم ومحكومهم وغنيهم وفقيرهم ، مالكهم ومعدمهم ، صاحب الارض والعامل فيها على السواء شريعة ليست هى ارادة السيد صاحب ارلاض ، وليست هى ارادة الامير كذلك ولا السلطان ، انما هى شريعة تجيئهم جميعا من عند الله ، ويتولى الحكم بها قضاة ، طالما وقفوا بها فى وجه الامراء والسلاطين عندما كان أحدهم يهم بظلم الرعية أفرادا أو جماعات • وقد ظهر فى هذه الفترة أئمة أقوياء وقفوا مرات فى وجه سلاطين المماليك وكان لوقفاتهم صداها الذى تتناقله الجماهير فى الوطن الاسلامى وتعرفها جموع

---

(١٠٦) المستقبل لهذا الدين ص ١٠٤ •

(١٠٧) الاسلام ومشكلات الحضارة ص ٣٤ •

الصليبيين الذين احتكوا بهذا المجتمع خلال قرنين من الزمان » (١٠٨) •
بل ان الليبرالية ذاتها التى يعتز بها الغرب أثر من آثار اتصالهم بالعالم الاسلامى • ان حركة الاصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوثر وكالفن فى أوربا ، وحركة الاحياء التى تفتأت منها أوربا حتى تحكيم النظـام الاقطاعى فى أوربا والانطلاق من حكم الاشراف ، وحركة المساواة واعلان حقوق الانسان التى تجلت فى الماجنا كارتا فى انجلترا والثورة الفرنسية فى فرنسا وحركة المذهب التجريبى التى قام عليها مجـد أوربا العلمى ، وانبعثت منها الفتوحات العلمية الهائلة فى العصر الحديث وأمثالها من الحركات الكبرى التى يحسبها الناس أصولا فى التطـور التاريخى كلها قد استحدث من ذلك المد الاسلامى الكبير وتأثرت بـه تأثرا أساسيا عميقا (١٠٩) • ان الحركات التى دعت الى انكار الاعتراف امام القسيس والتى تدعو الى تحطيم الصور والتماثيل الدينيـة والتى ترفض التثليث كل ذلك نشأ فى أوربا تحت أثر الاسلام •

ولكن المهم اعادة كتابة التاريخ الاسلامى دون خلط القدمـاء أو تشويه المحدثين من المستشرقين واتباعهم المؤرخين المسلمين • فالتاريخ ليس هو الحوادث بل تفسير هذه الحوادث • والتفسير لايتم الا من خلال مشاركة المؤرخ الوجدانية للحادثة ، وهى غائبة تماما عن الدراسات التاريخية المعاصرة عند الغربيين • بالاضافة الى ان الباحث الغربى يعتبر أوربا مركز العالم ومحوره وكل ماسواها اطراف معلقة ، وذلك اسقاط من حاضره على ماضيه ، فاوربا لم تكن فى الماضى محور العالم ومركز

---

(١٠٨) المصدر السابق ص ٩٥ •

(١٠٩) هذا الدين ص ٦٧ — ٧٥ يستشهد سيد قطب بمحمد اقبال فى تجديد الفكر الدينى عن الاسلام ومحمد فريد وجدى فى « الاسلام دين علم » •

ثقله . كما غابت النزاهة عن الباحث الاوربى نظرا لموقفه العدائى من الاسلام نظرا لذكريات لـــه فى الاندلس وفى الحـــروب الصليبية وفى الاستعمار الحديث (١١٠) .

يجب اذن اعادة كتابة التاريخ متجاوزين صورته فى المصـــــادر العربية القديمة كحوداث ونكات ووقائع دعايات وخرافات وأساطير وروايات متضاربة وأقوال متعارضة ومتجاوزين صورته فى أعمـــــال المستشرقين التى حاولت نقد المصادر ولكن غابت عن نتائجها النزاهـــة والموضوعية . هذه الدراسات التاريخية الجديدة ، تعتمد على المراجع العربية كمصادر أولى وتفسير مادتها باخضاعها الى منطق الحوداث ذاته . ولايمكن ادراكها الا بالتجارب والتعاطف معها حتى يمكن ادراك روح العقيدة الاسلامية وطبيعة فكرته عن الانسان والكون والحيـــاة « ولابد من ربط هذا كله بطبيعة الفكرة الاسلامية ومافيها من روح انقلابية ثورية » . والتاريخ الاسلامى جزء من التاريخ الانسانى وتجربة شقت طريقها ضمن التجـــارب الانسانية الاخرى فالالمـــام بتاريخ الحضارات القديمة وحال الجزيرة العربية قبل الاسلام وحال المجتمعات المعاصرة ضرورى لفهم التاريخ الاسلامى نشأة وتطورا فى الماضى والحاضر والمستقبل . يتحول التاريخ حينئذ الى « عمليـــة استيعاب وتجارب فى ضمائر الاشياء والاشخاص والازمان والاحداث . ويتصل بناموس الكون ومدارج البشرية ويصبح كائنا حيا ومادة حياة . وبعد هذه المقدمات والافكار الموجهة الاساسية يمكن تقسيم التاريخ الاسلامى الى أربعة مراحل : الاسلام فى عهد الرسول ، المد الاسلامى ، انحسار

---

(١١٠) فى التاريخ فكرة ومنهاج ص ٣٧ — ٦١ .

المد الاسلامى ، العالم الاسلامى اليوم »(١١١) • على هذا النحو يمكن التحرر من الرؤية الغربية لكتابة التاريخ مع اعطاء رؤية أخرى أوسع وأشمل من باحثين أقدر على التجاوب والتعاطف مع مادة التاريخ معطين نموذجا جديدا فى الدراسة ، ويرسم الطريق لاعادة بعث الآمة من اعادة كتابة تاريخها (١١٢) •

ولاقامة المجتمع الاسلامى هناك أولا فرق بين الشريعة الاسلامية والفقه الاسلامى الاولى ثابته لاتتغير لانها المبادىء الاساسية للدين أما الثانى فمتجدد متغير متطور طبقا لتغير وتجديد وتطور الحياة فلا ثبات دون ثبات • الاولى من صنع الله والثانية من صنع البشر • ثانيا ، ان الصورة التاريخية للمجتمع الاسلامى ليست نهائية بل تتجـــدد باستمرار مادامت منبثقة من التصور الاسلامى العام • وقد انبثق من الفقه الاسلامى جانبان : العبادات والمعاملات ، الاولى اكثر استقرار وثباتا والثانية متغيرة متطورة متجددة لارتباطها بالحاجات البشرية وقد وصلت الينا العبادات متضخمة والمعاملات ضامرة لظروف المجتمع الاسلامى القديم • ولا يخرج الامر فى هذه الحالة عن أربعة احتمالات : الاول أن تكون الشريعة قد نصت على حكم معين نصا صريحا وهذا

---

(١١١) هذه المراحل المربعة شبيهة ايضا بمراحل المودودى الاربعــة المودودى « الاسلام اليوم » .

(١١٢) تألفت جماعة مسلمة لاعادة كتابة التاريخ الاسلامى وفق هذا المنهج . وقد قسمت الجماعة حقول البحث الى المراحل التالية : مقدمات التاريخ الاسلامى ، الاسلام على عهد الرسول ، المد الاسلامى ، الانحسار الاسلامى ، العالم الاسلامى اليوم . والجماعة مؤلفة من الاساتذة الشيخ صادق عرجون ، والدكتور / محمد يوسف موسى ، والدكتور / عبد الحميد يونس ، والدكتور / محمد النجار ، وسيد قطب . المصدر السابق ص ٦١ .

واجب التطبيق دون تحوير أو تبديل لانه متعلق بركن أساسى من أركان المجتمع مثل تحريم الربا أو بسمة أساسية من سماته مثل الحدود أو بمبدأ تشريعى لايتغير مثل كتابة الدين المؤجل • والثانى أن تكون الشريعة قد جاءت فيه بنص قابل للتأويل ويكون حينئذ عرضه للاجتهاد والترجيح والتوفيق مع غيره من النصوص • والثالث ان تكون الشريعة قد جاءت بمبدأ عام تدخل المسألة الخاصة فيه ضمنا دون النص عليها صراحة حينئذ يكون الامر موضع اجتهاد فى تطبيق المبدأ العام على الحالات الخاصة • والرابع أن تكون الشريعة قد سكتت عن هذا الامر ويكون حينئذ متروكا للاجتهاد المطلق على الا يصدم الحكم مبدأ اساسيا من مبادىء الاسلام ولا أصلا من أصول التشريع• وعلى هذا الاساس احتفظت الشريعة الاسلامية بالثبات والمرونة •

ونحن الآن امام طريقين : أما أن نتابع خطوات الفقه الاسلامى القديم حيث وقفت ونكملها كى تملأ الفجوة الواسعة بين الماضى والحاضر واما أن نرجع الى مبادىء الشريعة ذاتها فنجد فيها تلبية لحاجات مجتمعاتنا الحالية « وهذا فى نظرى هو الطريق المعقول ان لم يكن الطريق الوحيد » • فلا خلاف بين المبدأ والواقع (١٢٣) •

والمجتمع الاسلامى مخالف المجتمعات التى عرفتها النظم الغربية الخمسة : الشيوعية الاولى ، الرق ، والاقطاع ، والرأسمالية ، والاشتراكية وهى فى طريقها الى الشيوعية • فالمجتمع الاسلامى يقوم على شريعة الهية كاملة منذ نشأتها على عكس النظم الغربية التى نشأت وفقا لظروف تاريخية معينة • لم يصنع المجتمع الاسلامى

---

(١٢٣) نحو مجتمع اسلامى ، كيف نستوحى الاسلام ص ٤٦ — ٦١ .

الشريعة بل أن الشريعة هى التى صنعت المجتمع الاســلامى بعكس التشريعات الارضية التى ولدتها مجتمعاتنا وترتكز الشريعة الاسلامية على أربعة خصائص هى التى جعلتهـا قادرة على أنشــاء المجتمع الاسلامى • الاولى انها بالرغم من أنها من صنع اله يعرف طبيعة خلقه قد جاءت وفقا للمقومات البشرية المشتركة العامة وأصول الفطرة الثابتة الثانية انها جاءت فى صورة مبادىء كلية عامة تقبل التفريع والتطبيق فى الجزئيات المتجددة والاحوال المتغيرة • الثالثة ان هذه المبــادىء العامة شاملة لكل أصول الحياة الانسانية ، الفرد والجماعة والدولـة والعلاقات الدولية وفى الحيــاة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية والرابعة أن المبادىء الاجتماعية التى قامت على أساسها جاءت تقدمية ، فدفعت بالبشرية الى الامام ومازالت قادرة على القيام بهذا الدور لانها باستمرار تسبق الاوضاع الاجتماعية القائمة (١١٤) •

أما النظم الاوربية الخمس فقد قامت على دراسة التاريخ الاوربى وحده لا التاريخ البشرى العلم • فالشيوعية الاولى مجرد افتراض لادليل عليه•أما عهد الرق فهناك بعض الدلائل على وجوده فىالامبراطورية الرومانية عندما انقسم الناس الى طبقتين طبقة الاحــرار وطبقـة العبيد ، وهذه الاخيرة كانت تؤلف ثلاثة أرباع سكان الامبراطورية مما سبب ثورات العبيد • أما نظام الاقطاع الذى انقسم فيه المجتمع الى طبقتين أيضا طبقة الملاك الذين يملكون كل شىء الارض ومن عليها وطبقة المزراعين الذين يتبعون الارض بعملهم وانتاجهم وأشخاصهم فهو النظام الذى جاء الاسلام ليمحوه تدريجيا شيئا فشيئا ابتداء من الضــمير

---

(١٤٤) نحو مجتمع إسلامى طبيعة المجتمع الاسلامى ص ٦٢ — ٩١ •

حتى الواقع نفسه . ثم قامت النظم الرأسمالية ترث الاقطاع بعد أن هيأت الحروب الصليبية الاتصال بالعالم الاسلامى والتعرف على مافيه من وسائل للانتاج واقامة مدن تجارية فى السواحل الجنوبية لاوربا وعلى سواحلها الشمالية . وقد زاد النشاط التجارى وساعد على نشأة طبقة برجوارزية استثمرت اموالها بالربا والاحتكار على عكس مايقره النظام الاسلامى وان كان يقر حق الملكية والاستثمار والارث مع تقييدها بحق الجماعة الثابت . فلما اراد رأس المال مزيدا من الربح وخرج خارج حدوده وأصبح الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية، ولما رأت المجتمعات الاوربية مآسى الرأسمالية اتجهت انجلترا أولا نحو الاشتراكية وروسيا نحو الماركسية كتطور طبيعى للرأسمالية فى حين ان النظام الاسلامى وعدالته الاجتماعية نظاما ثابتا وليس تطورا طبيعيا لنظام سابق . واذا كانت الاشتراكية الاوربية مذهبا اقتصاديا بحتا فالنظام الاسلامى قائم على تصور للحياة ينبثق منه نظام ويتصف بالشمول ويتجاوز حدود القوميات والاجناس والوطنيات المحلية . لذلك فالمجتمع الاسلامى مجتمع عالمى خال من النعرات الجنسية أو العنصرية . صراع القوميات الحاد والحروب قائمة على أساسه .لايعرف المجتمع الاسلامى الحدود الاقليمية أو التعصب الدينى ويقدم الاخوة الدينية القائمة على حرية الاعتقاد والعبادة . والجهاد الاسلامى يهدف الى تأكيد هذه الحرية ودفع الظلم والعدوان على حرية الضمير أو على الطبقات الاجتماعية المظلومة أو على الدول المستعبدة تحت « راية حماية الضعفاء من الظلم ، الظلم كافة قياما بشريعة الله فى العدالة الانسانية بغير ماغاية سوى تحقيق كلمة الله فى سبيل الله ... فهى الحرب لدفع الظلم والطغيان لا للاكراه على العقيدة ولاكراهية للاخرين بسبب العقيدة انما هى الوسيلة العملية لدفع الظلم واقامة

العدل وترتيب الامن وحماية الضعفاء ، وللذميين حق الدفاع عنهم مثلهم مثل المسلمين على سواء » • ان المجتمع الاسلامى مجتمع حر مفتوح تملك جميع العقائد والمذاهب والآراء أن تعيش فى ظله ، وليس الاكراه عنصرا من عناصر تكوينه ولابقائه (١١٥) •

وبلغت قمــة صياغة المنهج الاسلامى فى « خصائص التصــور الاسلامى» ومقوماته الذى خرج منه الجزء الاول فقط عن «خصائص» ولم يعط الامام الشهيد الوقت الذى يخرج الجزء الثانى منـــه عن « المقومات » والذى طالما وعد فى كتبه السابقة بأنه سيخرج كتابا عدد فيه تصور الاسلام للانسان والكون والحياة »(١١٦) • وقد حاول سيد قطب ذلك أولا فى « هذا الدين » ووصفه للاسلام على أنه منهج للبشر فى حدود الطاقة البشرية « وهو منهج ميسر لانه منهج عملى واقعـى متفق مع الفطرة البشرية وهو منهج مؤثر يحدث تحولا فى حيـــاة البشر • يعتمد على رصيد الفطرة وعلى رصيد التجربة • يقوم على خطوط مستقرة منها انه يرى الانسانية واحدة دون تفرقة عنصرية أو قبلية أو جنسية ويراها انسانية كريمة لايستذلها احد • ويرى الامة واحدة لافرق بين مذاهبها وسائر الديانات فى ذمتها » • ولا تظهر الحاكمية كأحد خصائصة الا فى أنه منهج متفرد « والتفرد يعنـــى الحاكمية ، والحاكمية تعنى العبودية ، والعبودية تشريعية أى الالتزام بالاســـلام كمنهج حياة » (١١٧) • ثم يعدد هذه الخصائص بعد ذلك بسبع : الربانية،

---

(١١٥) نحو مجتمع اسلامى ، مجتمع عالمى ٩٢ — ١٣٥ •

(١١٦) نحـــو مجتمع اسلامى ص ٣٢ خصائص التصـــور الاسلامى ومقوماته ص ٥ •

(١١٧) هذا الدين ص ١٥ — ٣٦ •

والثبات ، والشمول ، والتوازن ، والايجابية ، والواقعية ، والتوحيد . وتظهر الحاكمية فى الخاصتين الاولى والسابعة ، والربانية والتوحيد دون أى أثر لابى الاعلى المودودى كرافد خارجى .وقد كان يهدف كله الى بيان حقيقة الالوهية وحقيقة العبودية . فالربانية لاتشير الى الحاكمية بل الى مجرد أن الشريعة من التنزيل فى مقابل النظم الوضعية ، والالوهية مجرد دفاع عن الله كتصور فى مواجهة الغرب ضمنيا . والحقيقة ان كل هذه الخصائص فى معظمها قد تمت صياغتها ضد الحضارة الغربية فالربانية ضد المذاهب الانسانية الفلسفية الغربية ، والثبات ضد نظريات التطور والتوازن ضد تطرف المذاهب الفلسفية وارتكازها على طرف واحد ، والايجابية ضد سلبية الهة الفلاسفة ومثالياتهم والواقعية ضد خيال الفلاسفة والادباء .

ونقد سيد قطب التصورات الاسلامية فى تراثنا القديم فى الكلام والفلسفة والفقه والتفسير . فالسلطة معرفة باردة تابعة لارسطو توفق بينه وبين الاسلام . لغتها سقيمة ولاشأن لها بالمشاكل الواقعية للعالم الاسلامى .أما الكلام فليس أفضل من الفلسفة بل تابع لها وتابع مباحثه اللاهوتية الميتافيزيقية الوافدة من اليونان ومن المسيحية . اما الفقه فان قسمته الى عبادات ومعاملات قسمة متأخرة لاسباب فنية أولا ثم تحولت الى أحد مظاهر التأخر . فالاسلام ليس فيه عبادات منفصلة عن المعاملات . أما التفسير فانه ابتعد عن بساطة القرآن ووضوحه . وبالتالى فانه يمكن العودة الان الى القرآن مباشرة ورؤية واقع المسلمين من خلاله دون ماحاجة الى عشرات المجلدات المتوسطة من علم التفسير (١١٨) .

---

(١١٨) خصائص التصور الاسلامى ص ١٥ — ١٧ ص ١٢٦ — ١١٧ —

وفى هذه المرحلة يظهر المودودى وتظهر الاشارات اليه فى نقد الغرب أولا وفى الحاكمية ثانيا • وقد عرفه سيد قطب كناقد للغرب قبل ان يعرفه كمنظر للحاكمية • كما عرفه عن طريق أبى الحسن الندوى فى كتابه المشهور « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » الذى كان انجيل المصلحين فى الخمسينات قبل ان يعرفه مباشرة فى « المصطلحات الاربعة فى القرآن » أو فى « الحجاب » •

وينقل تحليلاته لاوضاع الرجل بالمرأة فى المجتمع الاسلامى أو فى المجتمع الجاهلى (١١٩) • ويقتبس منه فقرات طويلة للاستشهاد بـه فى علاقة الرجل بالمرأة فى الاسلام ليس فقط من حيث الاتصال الجسدى بل أيضا القرابة الروحية • والمصطلحات الاربعة فى القرآن هى : العبادة ، الاله ، الرب ، الدين • ويشير مرة أخرى فى « خصائص التصور الاسلامى ومقوماته » الى رسالة المودودى « شهادة الحق » دون حاكمية (١٢٠) •

=

ص ٢٣١ كأنما هذا الرجل الفاضل العميق النافذ يصف ماتقوم به صحافة وكتاب وقصة واجهزة توجيهية كثيرة فى بلادنا فى اداب واصرار — الاسلام ومشكلات الحضارة ص ١٧٤ اقرأ هذا ، واقرأ صفحات المرأة فى صحافتنا كلها فأجد كأنما الرجل يصف ماعندنا لا ماهو واقع فى ذلك العالم الراسمالى « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ١٤٧ .

(١١٩) يشير سيد قطب الى المودودى نقلا من كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لابى الحسن الندوى » الاسلام ومشكلات الحضارة ص ٥٦ — ٥٧ ، ص ٦٩ — ٧٤ ، ص ١٤٢ — ١٥٣ .

(١٢٠) خصائص التصور الاسلامى ومقوماته ص ٨٦ .

ويبدو الانتقال من «المجتمع» الى «التصور» فى « المستقبل لهذا الدين » فلا يوجد مجتمع لايقوم على تصور ، ولا يوجد تصور لاينشأ مجتمعا • الاسلام منهج حياة ، عقيدة ينبع منها تصور ، وتصور يخرج منه نظام • وهذا الدين ليس مجرد عقيدة وجدانية منعزلة عن واقع الحياة البشرية فى كل مجالاتها الواقعية وليس مجرد شعائر تعبدية يؤديها المؤمنون بهذا الدين فرادى أو مجتمعين فتكون لهم صفة هذا الدين ، وليس مجرد طريق الى الآخرة لتحقيق الفردوس الاخروى بينما هناك طريق آخر وطرق أخرى لتحقيق الفردوس الارضى غير منهج الدين وتنظيمات الدين (١٢١) •

هـذه الخاصية الاولى للاسلام الشمول والهيمنة التى اقلقت الاستعمار والصهيونية حتى أفلح اتاتورك فى الغاء الخلافة وفصل الدين عن الدولة واعلان تركيا دولة علمانية خالصة ، ومحاولات دول أخرى بعد وقوعها فى قبضة الاستعمار « زحزحة الشريعة الاسلامية من أن تكون المصدر الوحيد للتشريع والاستمداد من التشريع الاوربى وحصر الشريعة فى ذلك الركن الضيق المسدود ، ركن سموه « الاحوال الشخصية » (١٢٢) •

ان مايميز المجتمع الاسلامى هو قيامه على « قاعدة المنهج الربانى ، الصادر عن علم (بدل الجهل) وكمال (بدل النقص) وقدرة (بدل الضعف) وحكمة (بدل الهوى) القائم على أساس اخراج البشر

---

(١٢١) المستقبل لهذا الدين ص ٤ •

(١٢٢) المصدر السابق ص ٦ •

من عبادة العباد الى عبادة الله وحده دون سواه(١٢٣) . فالحاكمية هنا للنظام والتشيعة وليس لله فى ذاته . « ان مفرق الطريق بين منهج هذا الدين وسائر المناهج غيره ان الناس فى نظام الحياة الاسلامى يعبدون الها واحدا ، يفردونه — سبحانه — بالالوهية والربوبية والقوامة — بكل مقومات القوامة فيتلقون منه وحده التصورات والقيم والموازين والانظمة والشرائع والقوانين ، والتوجيهات والاخلاق والاداب بينما هم فى سائر النظم يعبدون الهة وأربابا متفرقة يجعلون لها القوامة عليهم من دون الله حين يتلقون التصورات والقيم والموازين والانظمة والشرائع والقوانين والتوجيهات والاداب والاخلاق من بشر مثلهم فيجعلونهم بهذا الملتقى أربابا ، ويمنحونهم حقوق الالوهية والربوبية والقوامة عليهم ، وهم مثلهم بشر ، عبيد كما أنهم عبيد »(١٢٤) . واتباع التشريع هو معنى عبادة الله وليس مجرد الشعائر والطقوس سوى ذلك من نظم وشرائع لاتنتج عن الالوهية هى النظم الجاهلية . « ونحن نسمى هذه النظام التى يتعبد الناس فيها الناس كما يسميها الله سبحانه وتعالى نظما جاهلية مهما تعددت اشكالها وبيئاتها وازمانها فهى قائمة على ذات الاساس الذى جاء هذا الدين يوم جاء ليحطمه وليحرر البشر منه وليقيم فى الارض الوهية واحدة للناس وليطلقهم من عبادة العباد الى عبادة الله وحده بالمعنى الواسع الشامل لمفهوم العبادة ومفهوم الاله ومفهوم الرب ومفهوم الدين » (١٢٥) . لقد جاء هذا الدين ليلغى عبودية البشر للبشر فى كل صورة من الصور ، وليوحد العبودية لله فى الارض كما

---

(١٢٣) المصدر السابق ص ٨ .

(١٢٤) المصدر السابق ص ٨ — ٩ .

(١٢٥) المصدر السابق ص ٩ .

أنها عبودية واحدة لله فى هذا الكون العريض « والناس إما أن يعيشوا بمنهج الله هذا بكليته فهم مسلمون واما أن يعيشوا بأى منهج آخر من وضع البشر ، فهم فى جاهلية لايعرفها هذا الدين ، ذات الجاهلية التى جاء هذا الدين ليحطمها وليغيرها من الاساس ليخرج الناس من عبادة العباد الى عباد الله » (١٢٦) • ولقد أتى الاسلام ليخرج الناس من الجاهلية الى الربانية وبكل واقعهم على شريعة الله كما بكل شمائلهم على تقوى الله (١٢٧) •

ان كل مجتمع اسلامى يقوم على مبدأ حاكمية الاسلام « وكل فقه تراد تنميته وتطويره فى وضع لايعترف ابتداء بحاكمية الاسلام هو عملية استنبات للبذور فى الهواء » (١٢٨) • فالواقع دون حاكمية لايكفى • « ان أولى بوادر الهزيمة هى اعتبار الواقع ايا كان حجمه هو الاصل الذى على شريعة الله ان تلاحقه بينما الاسلام يعتبر أن منهج الله وشريعته هى الاصل الذى ينبغى أن يفىء الناس اليه وان يتعدل الواقع ليوافقه (١٢٩) • ولقد واجه الاسلام المجتمع الجاهلى العالمى يوم جاء فعدله وفق منهجه الخاص ثم دفع به الى الامام •

لذلك فالاسلام منهج منفرد يقوم على شهادة ان لا اله الا الله « ومعنى الشهادة افراد الله بالالوهية وعدم اشراك أحد من خلقه معه

---

(١٢٦) المصدر السابق ص ١٠ — ١١ •

(١٢٧) المصدر السابق ص ٢١ •

(١٢٨) الاسلام ومشكلات الحضارة ص ١٨٥ •

(١٢٩) المصدر السابق ص ١٩١ •

فى خاصية واحدة من خصائصها ، وأولى خصائص الالوهية : حق الحاكمية المطلقة الذى ينشأ منه حق التشريع للعبـاد وحـق المناهج لحياتهم وحق وضع القيم التى تقوم عليها هذه الحياة »(١٣٠) • فالشهادة لاتقوم ولاتتحقق الا بالاعتراف بأن لله وحده حق وضع المنهج الذى تجرى عليه الحياة البشرية والا بمحاولة تحقيق ذلك المنهج فى حياة البشر دون سواه • وكل من ادعى لنفسه حق وضع منهج لحيـــاة جماعة من الناس فقد ادعى حق الالوهية عليهم دعائه أكبر خصائص الالوهية • وكل من اقره على هذا الادعاء فقد اتخذه الها من دون الله بالاعتراف له بأكبر خصائص الالوهية • « شهادة أن محمدا رسول الله معناها القريب : التصديق بأن هذا المنهج الذى بلغه لنا من الله هو حقا منهج الله للحياة البشرية ، وهو وحده المنهج الذى نحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج لتحقيقه لانفسنا صفة الاسلام التى ندعيها ، وهى لا تتحقق الا بشهادة ان لااله الا الله وأن محمدا رسول الله • وهذه الشهادة لاتقوم الا بافراد الله بالالوهية افراده بحق وضع منهج الحياة • ومحاولة تحقيق ذلك المنهج الذى جاءنا به محمد من عند الله فالاسلام هو المنهج الوحيد الذى يحرر الانسان ويطلقه من العبودية وبتأكيد لانسانيته وعبوديته لله بالتحرر من العبودية للناس بالعبودية لله رب الناس » (١٣١) • وما من منهج آخر فى الارض يحقق هـذه الخاصية الا الاسلام • ذلك انه بربانيته التى تفرد الله بالوهية ومن ثم تفرد بحق الحاكمية التى تشرع للناس منهج حياتهم يجعل للناس الها واحدا وسيدا واحدا ، ويمنع ان يكون بعضهم الها لبعض لهم حق

---

(١٣٠) هذا الدين ص ١٥ •

(١٣١) المصدر السابق ص ١٦ — ١٧ •

الحاكمية بعضهم على بعض ، ولهم حق السيادة بعضهم على بعض فى مقابل العبودية التى يتسم بها من يقرون لهـؤلاء الالهية بخصائص الالوهية وقد كانت هذه الدعوة للرسل جميعا ، افراد الله بالالوهية وانكار كل خاصية من خصائصها على غير الله من عبودية الذين يتألهون فيدعون حق وضع المناهج لحياة عباد الله • ويقرهم على هذا الادعاء من لايؤمنون بوحدانية الله (١٣٢) • لم يعبد أهـل الكتاب الاحبـار والرهبان انما كانوا يقرون لهم فقط بحق تشريع لهم من دون الله وبحق المناهج لحياتهم بالتشريع • وهذا هو معنى عبادتهم • فالالوهية تقتضى العبودية والعبودية تقتضى الالتزام بالتشريع والاســـلام وحده هو الذى يفرد الله بالعبادة حين يفرده بالحاكمية وحق وضــع المنهج لحياة الناس ، ومن ثم فهو وحده الذى يطلق الناس من العبودية لغير الله • وهو المنهج الوحيد المبرأ عن الهوى الانسانى لانه يشرع لجنس أو لشعب أو لطبقة كما هو الحال فى التشريعات التى يشرعها الفرد الحاكم أو الاسرة الحاكمة أو الطبقة الحاكمة أو الامة الحاكمة أو الجنس الحاكم •

وهذه رسالة كل دين منذ نوح حتى محمد مع اختلاف التفصيلات فى كل مرحلة « اخراج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله دون سواه ، وابطال الالوهيات والربوبيات الزائفة ، ورد الالوهية والربوبية الى الله دون سواه » (١٣٣) • وقد أعلن القرآن ذلك فيما يسميه سيدقطب « المفاصلة » اى الفصل بين أهل الدين وأهل الجاهلية « والا يجىء هذا

---

(١٣٢) المصدر السابق ص ١٧ — ١٨ •

(١٣٣) المستقبل لهذا الدين ص ٢٢ •

التفسير الشامل الكامل من عند الله ، والا يقم الحياة كله على هـــذا التفسير الشامل الكامل ، فهى اذن اهواء البشر وهى اذن الجاهليـــة انتى جاء كل دين من عند الله لاخراج الناس منها ورفعهم الى الربانية والا تكون العبودية لله وحده ممثلة فى التلقى عنه فى هذا كــله فهى العبودية للعبيد • وقد جاء دين الله كله لتحرير العباد من عبـــادة العبيد »(١٣٤) • الاسلام منهج «حياة» ولا يسلم المسلم ولا يؤمن المؤمن حتى يجعل منهج الله للحياة منهجه وشريعة الله للحياة شريعته ولايتخذ من عند نفسه لحياته منهجا ولا شريعة والا أدعى لنفسه بهـــذا حق الالوهية فكفر بالوهية الله ورفض افراد الله بالالوهية ، وكفر معه كل من يقره على ادعاء حق الالوهية لنفسه بادعاء حق التشريع من دون الله واتخاذ منهج غير منهج الله للحيا ة(١٣٥) •

وهذا هو معنى التوحيد كأحد خواص التصور الاسلامى « هناك الوهية وعبودية ، الوهية يعتز بها الله وعبودية يشترك فيها كل من عداه وكل ماعـــداه • وكما يتفرد الله بالالوهية كذلك يتفرد تبعـــا لهـــذا بكل خصائص الالوهية • وكما يشترك كل حى وكل شىء بعد ذلك فى العبودية كذلك يتجرد كل حى وكل شىء من خصائص الالوهية »(١٣٦)• وينتج عن ذلك ان يعتقد المسلم ان لا حـــاكم الا الله ، الا مشرع الا الله ، والا منظـــم لحياة البشر وعلاقاتهم ارتباطاتهم بالكـــــون وبالاحياء وبـــين

---

(١٣٤) المصدر السابق ص ٢٥ — ٢٦ •

(١٣٥) الاسلام ومشكلات الحضارة ص ٢٩ •

(١٣٦) خصائص التصور الاسلامى ومقوماته ص ٢١٥ • ..

الانسان من جنسه الا الله فيتلقى من الله وحده التوجيه والتشريع ومنهج الحياة ونظام المعيشة وقاعـدة الارتباطات وميـزان القيم والاعتبارات ويترتب على وحدانية الالوهية والربوبية ووحدانية الفاعلية والسلطان فى هذا الوجود كل مايكلفه المسلم سواء مايكلفه من شعور فى الضمير أو مايكلفه من شعائر فى العبادة أو مايكلفه من التـزام فى الشريعة(١٢٧) . بهذه العبودية يتحرر الانسان لانه يخرج من عبادة العباد الى عبادة الله برد أمر التشريع والحاكمية لله « ان الناس فى جميع الانظمة التى يتولى التشريع والحاكمية فيهـا البشر فى صـورة من الصور يقعون فى عبودية العباد وفى الاسلام وحده يتحررون من هذه العبودية للعباد بعبوديتهم الى عبادة الله وحده .... انها اخراج من شاء الله من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ورد أمرهم الى الله وحـده ..... وافراد الله سبحانه بالالوهيـة وخصائص الالوهية والسلطان والحاكميـة والتشريع هى أولى الخصائص التى لاينازع الله فيها مؤمن ولا يجرؤ على مناعته اياها الا كافر ... » (١٣٨).

والمجتمع الاسلامى مجتمع ربانى ، نظامه ربانى قائم على العقيدة الاسلامية وفى نفس الوقت لايحرم الانتاج بالتجارب البشرية . يقوم على العدل المطلق ، والشورى فيه أساس الحكم ويستفيد من التجارب البشرية الاجراءات التنفيذية لهـذين الهدفين : العدل والشورى . ان عقيدة التوحيد تسيطر وتؤثر على مقومات النظام الاجتماعى والاسلامى

---

(١٣٧) المصدر السابق ص ٢٢٤ .

(١٣٨) المصدر السابق ص ٢٣٥ .

للفرد والجماعة والحاكم والمحكوم . العامل وصاحب العمل ، المنتج والمستهلك ، المعطى والآخذ أى توحيد الاتجاه . ان الحاكمية فى هـذا النظام الربانى لله وحده فالحاكمية فيه لا لامير ولا رعية . فالله وحده هو المشرع ابتداء . وعمل البشر هو تطبيق الشرع الالهى وتنفيذه ،وهم حتى فيما يجمعون عليه مما لم يرد منه نص يظلون مطبقين لمبادىء الاسلام لا مبدعين ولا مضيفين مبدأ جديدا لا أصل له فى الشريعـة أو أن يكون مخالفا لاصل من أصولها . وهم فى الاحكام التطبيقية والتنفيذية محكومون بالمبادى الاسياسية التى جاءت بها الشريعة غير مخيرين فى العدول عنها أى اختيار بعضها دون بعض أو فى تحويلهـا وهذا هو معنى آيات الحاكمية لفقهاء الامـة الاستدلال واستنبـاط الاحكام دون أن يخرج ذلك على حدود المبادىء الاساسية للشريعة وبذلك تظل الحاكمية لله وحده ، ويظل المجتمع الاسلامى محكوما وفق شريعته ، فاذا انحرف عن هذه القاعدة فهو يعد مجتمعا اسلاميا يحمل هذا العنوان الخاص . وهكذا نجد سمة الربانية تتحقق من توحيـد الحاكمية لله . وهذه بدورها راجعة الى عقيدة التوحيد الاسلامية . بهذه الربانية انفرد النظام الاسلامى من بين سائر النظم التى عرفتها البشرية بما فيها النظام الثيوقراطى الذى كان الحاكم يتلقى فيه سلطته اما من رجال الدين وأما من الحق الالهى ، بوصفه ظل الله فى الارض . فمعنى الربانية فى الاسلام متعلق بالنظام ذاته لا بالحاكم وسلطـة الحاكم . فالحاكم فى النظام الاسلامى لايتلقى سلطته من رجال الدين، ولايدعيه بحق الهى له ، أنما يستمد حقه فى تولى الحكم من البيعة الحرة كما يستمد طاعته من تنفيذ شريعة الله دون سواها ... وفرق كبير بين هذه القاعدة وقاعدة النظام الثيوقراطى كما عرفته أوربا . ان الربانية فى النظام الاسلامى ربانية شريعة ونظام لاربانية امراء وحكام . وقـد

شرع الله تعالى للبشر بشرع بعلم كامل ويدين كامل ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير (١٣٩) •

والعبودية لله ورفض العبودية لغير الله هو عنصر الثورة فى الاسلام لقد استطاع الإسلام المحافظة على الوطن الاسلامى بالرغم من كل هذه الحروب المشبوبه عليه • فقد حمى الاسلام الوطن الاسلامى فى الشرق من هجمات التتار • كما حماه فى الغرب من هجمات الصليبين • وحين ضاع الاسلام فى الاندلس قديما وفى فلسطين حديثا ضاعت اللغة والقومية وقد حمى المماليك الاسلام دهم التتار ، ووقفوا ضد بنى جنسهم حماية للعقيدة الاسلامية كما دافع صلاح الدين ، وهو كردى ، عن حصن الاسلام • وبقى الاسلام صامدا فى الجزائر أكثر من مائة وخمسين عاما محافظا على اللغة والقومية العربية بفضل الحركة الاسلامية التى قداها عبد الحميد بن باديس • والاسلام هو الذى دفع المهدى الى الثورة فى السودان دفاعا عن احتلال الانجليز لمصر وكذلك جاهد عثمان دنقه لنشر الاسلام فى افريقيا • والاسلام هو الذى كافح فى برقة وطرابلس الغزو الايطالى كما خرجت المقاومة من أربطة السنوسية وبجهاد عمر المختار • وفى مراكش قام الظهير البربرى بالجهاد ضد الاستعمار الفرنسى الذى اراده استعماله لرد

---

(١٣٩) نحو مجتمع اسلامى فصل « مجتمع ربانى » ص ١٣٦ — ١٥٢ يستهل سيد قطب حديثه عن الحاكمية بقوله « معنى آخر من معانى الربانية يشتمل على النظام الاسلامى يشار اليه هنا اشارة مجملة لانه يتعلق بنظام الحكم فى الاسلام (وسنعرض له قريبا ان شاء الله) » مما يدل على تأخر ظهور فكرة الحاكمية لديه الى المرحلة الرابعة وهى المرحلة السياسية التى تكونت فى السجن الثانى •

البربر الى الوثنية « لقد كافح الاسلام وهو اعزل لان عنصر القوة كامن فى طبيعته ، كان فى بساطته ووضوحه وشـمولـه ، ملائمتـه للفطـرة البشرية ، وتلبيته لحاجاتها الحقيقية كان فى الاستعلاء عن العبودية بالعبودية لله رب العباد ، وفى رفض التلقى الا منه ، ورفض الخضوع الا له من دون العالمين . كان ذلك فى الاستعلاء باهله على الملابسات العارضة كالوقوع تحت سلطان المتسلطين . فهذا السلطان يظل خارج نطاق الضمير مهما اشتدت وطأته . ومن ثم لاتقع الهزيمة الروحيـة طالما عمر الاسلام القلب الضمير ، وان وقعت الهزيمـة الظاهرية فى بعض الاحايين » (١٤٠) . هذه العقيدة هى التى احتفظت للامة الاسلامية بحيوتها الكامنة وجعلتها قادرة على مقاومة الاستعمار وبداية نهضتها من جديد (١٤١) .

وقد تكون الحاكمية لله ولكن من خلال الانسان فالانسان خليفة الله فى الارض « الانسان فى التصور الاسلامى هو سيد هذه الارض وبخلافته فيها عن الله ، وكل مافيها مسخر له بقدرة الله تعالى وقـد أوتى أمكان العلم بشؤونها ، هبة من الله سبحانه والاستمتاع بطيباتها وجمالها نعمة منه خالصة . وليست الارض وحدها وكل مافيها من أحياء وأشياء ولكن كذلك السموات مهيأة لمساعدة الانسان فى خلافته فى الارض ومراعى فى بنائها دور الانسان فى هذه الخلافة » (١٤٢) . الاسلام

---

(١٤٠) المستقبل لهذا الدين (ص ١١٣) .

(١٤١) فى التاريخ ، فكرة ومنهاج ، صحوة ليس بعدها ثبات ص ٧ — ١٠ .

(١٤٢) الاسلام ومشكلات الحضارة ص ٢٤ .

يسلط الانسان على عالم المادة ويسخرها له واعطائه القدرة على معرفة النواميس الكونية اللازمة له فى الخلافة واعفائه من وضع منهج لمعرفة ذاته وعون الله له بوضع هذا المنهج والزامه وباتباعه (١٤٣) ، ان الابداع المادى فى هذه الارض على يد الانسان وظيفة أساسية يظهر فيه امكانياته التى أودعها الله فيه ليحقق غاية وجوده الكبرى الخلافة عن الله فى الارض « انى جاعل فى الارض خليفة » ويحقق بها العبادة عن طريق هذه الخلافة والعمل فيها باسم الله ابتغاء رضوان الله (١٤٤) .

من هذا العرض للمرحلة الفلسفية نلاحظ الآتى :

١ — ان الانتقال من المرحلة الاجتماعية الى المرحلة الفلسفية فى الخمسينيات قد تم بين جدران السجن مما يدل على غياب الممارسة السياسية والتى كانت سببا فى تحويل معركة الاسلام الاقتصادية والاجتماعية الى معركته الحضارية مع الغرب أساسا ولو كان سيد قطب حرا طليقا لغابت هذه المرحلة الفلسفية ودخل الاسلام فى المعارك الفعلية . وقد تراجعت الجماعات الاسلامية المعاصرة خطوة أخرى وتحول الجانب التصورى الى عقائد ، وتحول العقل الى هوى والادراك الى انفعال . وكان سيد قطب قد تراجع هو ذاته عن محمد عبده ورشيد رضا وتلميذه الشيخ المغربى لانهم يقولون بوجوب تأويل النص ليوافق مفهوم العقل وهو مبدأ أخطر (١٤٥) .ويقوى ذلك مايسود مجتمعاتنا من اتجاهات لاعقلانية باطنية .

---

(١٤٣) المصدر السابق ص ٣١ .
(١٤٤) المصدر السابق ص ١٠٦ .
(١٤٥) خصائص التصور الاسلامى ومقوماته ص ٢٢ .

٢ — عدم ظهور حاكمية الله فى صيغتها المحكمة الالهية • فالحاكمية فى هذه المرحلة ليست لله بل للتشريع القانونى والقانون له أسسه الوضعية فى الدفاع عن مصالح الناس ، والحكم تنفيذى وليس تشريعيا والحاكم اتى بالبيعه عن طريق الشورى • فالحاكمية هو أساس بناء المجتمع الاسلامى ، أى أنها مبدأ اجتماعى وليست مبدأ عقائديا كما سيظهر ذلك فيما بعد فى المرحلة السياسية المتأخرة • وتعنى الربانية، وضعية الشريعة • فالجماعات الاسلامية المعاصرة لم تتأثر بسيد قطب الا فى مرحلته الرابعة فى آخر سنتين فى حياته عندما تحولت الحاكمية لله كسلاح سياسى ضد نظام الحكم القائم تعبيرا عن صرخة المظلومين الابرياء بين جدران السجون •

٣ — تظهر الحاكمية فى خصائص التصور الاسلامى مع خصائص خمسة أخرى مثل الثبات ، والشمول ، والتوازن ، والايجابية ، والواقعية • وهى بهذا المصطلح بين مصطلحى الربانية والتوحيد مما يدل عن خروجها من ثنايا العقيدة الاسلامية وليست وافدة عليها • ولم يظهر أثر أبى الاعلى المودودى فى هذه المرحلة فى تصور الحاكمية ولكن فى مساواة المرأة بالرجل فى الاسلام وفى نقد الغرب ، ولكن تضخمت هذه الخاصية عند الجماعات الاسلامية وأصبح لها الاولوية على باقى الخصائص مثل التوازن الذى انتهى اليه التطرف أو الواقعية التى أصبحت تصلبا وتشنجا ، والايجابية التى تحولت الى تعصب وحب للظهور • وأصبحت أقرب الى الشمول والثبات •

٤ — لم تظهر فى مقابل الحاكمية لله أو للشريعة الذاتية أو الانسانية بل أن سيد قطب ينقد محمد اقبال بتأكيده على الذاتية واتهامها بالاشراقيات الصوفية العجمية التى تنتهى الى الفناء، ورفضه تحدى

الموت واستمرار الذاتية بعده للتجربة والنماء ٠ كما يتزم أيضا بالوقوع تحت الاثر الغربى فى دعوته للقوة والحياة والتطور (١٤٦) ٠

وقد استمرت الحركات الاسلامية فى هذا التيار وانكارها الذاتية وايغالها فى التمركز حول الله أو فى صورة الشريعة وتضحيتها بالانسان ذكرا أم أنثى ٠ لقد رفض سيد قطب أن تكن العلوم الانسانية وريثة العلوم الدينية فى حين أن العلوم الدينية هى علوم انسانية مقلوبة لم تتحول بعد الى علوم انسانية طبيعية (١٤٧) ٠

٥ — لم يظهر ارتباط قوى بالترات القديم وتأصيل التصورات الاسلامية ضد القدماء فى العلوم العقلية بل أنه هاجم الفلسفة والكلام والفقه ككل دون تمييز بين التيارات المختلفة فى كل علم واعطاء أولوية على اتجاه دون اتجاه ٠ فابن رشد يخدم قضية سيد قطب أكثر من الفارابى وابن سينا ، والمعتزلة تؤيده أكثر من الاشاعرة ، والمالكية تؤكد واقعيته أكثر من الحقيقة ٠ فاتهام الفلاسفة والمتكلمين بانهم اتباع اليونان تسرع واغفال للعمليات الحضارية التى قاموا بها وتمثل الحضارات القديمة لاستعمالها والرد عليها فى آن واحد ٠ وهو نفس العيب الذى يستشرى فى الحركات الاسلامية المعاصرة التى لاتنتقى من القدماء الا الاتجاهات المحافظة ٠

٦ — يبدو أيضا ان هناك كثيرا من التجنى على الحضارة الغربية

(١٤٦) خصائص التصور الاسلامى ص ٢٣ — ٢٤ ٠

(١٤٧) هذه خلاصة معركته فى « الاسلام ومشكلات الحضارة » فى الرد على كاريل فى « الانسان ذلك المجهول » ٠

بالرغم من اعطاء حريات الاصلاح الدينى والتنوير والعلم حقها ٠ الا أن ادانة ذلك كله على أنه انسانية فى تعارض مع الربانية انكار للجهد البشرى فى اكتشاف زيف التراث الكنسى ووضع تراث انسانى آخر بديلا عنه حتى ولو كان احادى الطرف ٠ لقد أعتمد سيد قطب فى معرفته بالتراث الغربى على مصادر مترجمة ومن نوع خاص تلك التى تهاجم الحضارة الغربية ٠ مثل كتب العلم والايمان التى تمثل التيار الدينى المحافظ فى الغرب أو كتابات المستشرقين المنصفة للتاريخ الاسلامى فى مواجهة الغرب واحيانا على بعض التقارير الصحفية وأدب الرحلات الذى يغلب عليه المزايدة فى الاخلاق والايمان ٠ فاذا ماوضع التراث الغربى داخل اطاره فانه من الصعب نقد الغرب بالقرآن أو بأنه يجهل القرآن أو من وجهة نظر اسلامية أو مواجهته بنصوص القرآن وتقييمه بآيات الله كمسلمات أو كنتائج أو وضع الاخلاق الاسلامية فى مواجهة الانحلال الغربى أو وضع الروحية الاسلامية فى مقابل المادية الاوربية وقد سارت الحركات الاسلامية المعاصرة فى مثل هذا الرفض الاعمى لحضارة الغرب متراجعة عما بدأه الافغانى ومحمد عبده يأخذ الاسباب القوة والعلم والمدنية ٠ ومثل هذا الرفض للغير يشبع الحاجة الى التأكيد على هوية الذات وتحدى المغلوب للغالب خاصة اذا كان هذا الغير عدو الامس ومازال غالبا ، ومازلنا نعيش على انتاجه وابداعه ٠

٧ — بالرغم من ظهور فلسفة فى التاريخ لدى سيد قطب بعث الامة الاسلامية وهى فى مدها الثانى وانهيار الغرب واكتشاف واقــع المسلمين الحالى فان الحركات الاسلامية المعاصرة تبدو وكأنها ككل خارج التاريخ وليس عندها الوعى الحضارى الكافى بمراحل التاريخ وتطوره، وبالتالى تخلفت عن ايجابيات سيد قطب واستمرت فى سلبياته ٠

رابعا : المرحلة السياسية : (١٩٦٣ — ١٩٦٥) .

وهى المرحلة التى بدأت تتكون داخل جدران السجون والتى بلغت ذروتها باخراج « معالم على الطريق » والذى دفع حياته ثمنا له ، وهى المرحلة التى لها أبلغ الاثر على الحركات الاسلامية المعاصرة نظـرا لما تحتويه من « فكر المضطهدين » ونظرا لتشابه الظـروف النفسـية والاجتماعية للمفكر الراحل ولهذه الحركات(١٤٧) . لم يكد يلتئم جرح السجن طوال الخمسينيات حتى انفتح واتسع حتى تقيح فى السجن الثانى فى الستينات.فالثورة المصرية هى المسئولة عن «معالم فى الطريق» لانه لو لم يوجد سيد قطب بين جدران السـجون لتطـورت المرحلة الاجتماعية الى نضال ثورى ولا صبح من كبار المناضلين أمثال جيفارا وماوتسى تـونج وهوشى منه والافغانى وكابونتشى والخومينى . ان الثورة المصرية هى المسئولة عن تحول « معركة الاسلام والرأسمالية » الى معركة الاسلام والجاهلية . لقد راح سيد قطب ضحية الصدام بين الاخوان والثورة فى ١٩٥٤ فلا هو استطاع تطوير « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » أو « معركة الاسلام والرأسمالية » أو « السلام العالمى والاسلام » الى الايديولوجية الاسلامية الثورية التى تحفظ للعـالم اصالته وتحقق ثورته ولا هو استطاع القضاء على الملكية مناهضـة الاستعمار والرأسمالية والصهيونية وتحقيق العدالة الاجتماعية الممثلة فى قوانين الاصلاح الزراعى القانين الاشتراكية وفى تأسيس كتله ثالثة، كتلة عدم الانحياز ، الشعوب الاسيوية والافريقية أو العالم الثالث .

---

(١٤٧) سمينا هذه المرحلة « السياسية » تجاوزا لغياب اسم افضل وتعنى فقد الدلالة والاثر لفكر سيد قطب الاخير .

وكتاب معالم فى الطريق ليس مؤلفا ذا بناء محكم ، فصـــول وأبواب مفصلة بل مجرد تأملات تعبر عن عذاب النفس وعزلتها فى هذا العالم • يمثل تجربة روحية لسجين برىء يريد اعطاء خلاصة تجربته للاجيال القادمة •كل فصل فيها قائم بذاته أشبه بالورد الذى تقرأه الصوفية ولكنها هذه المرة جماعات الشباب المؤمنة(١٤٨) • وتغلب عليه العناوين الادبية مثل « هذا هو الطريق » ، « نقلة بعيدة » أو الأيمانية مثـل « استعلاء الايمان » •

والكتاب مكون من ثلاثة عشر فصلا دون ترقيم منها أربعـة مستقاه من « فى ظلال القرآن » والباقى كتبت على فترات طبقا للتجارب النفسية التى مر بها المؤلف•ويعد بصدور معالم آخرى استمرارا فى التعبير عن هذه التجارب(١٤٩) • والحاكمية هى الفكرة الرئيسية المسيطرة على الكتاب كله • وقد تم التركيز عليها بناء على التجربة النفسية للسجن ثم الرجوع الى الوراء واعادة قراءة كتاباته السابقة وانتقاء نصوص الحاكمية منها مع أنها كانت موجودة متناثرة من قبل داخـل أفكاره الاجتماعية والفلسفية دون ان تكون بؤرة فى تفكيره أو محورا لتأملاته كما حدث بعد ذلك وهو فى سجنه الثانى • لاتمثل هذه المرحلة اذن فكرا

---

(١٤٨) لذلك طبعه طلاب كلية الهندسة بجامعة المنيا فى أوراق متفرقة تم جمعها بعد ذلك فى كتاب واحد . وقد صدر الكتاب حين ظهوره ثم أعيد طبعه فى دمشق وبيروت ثم أخيرا فى القاهرة .

(١٤٩) الفصول الاربعة هى : طبيعة المنهج القرآنى ، التصور الاسلامى والثقافة ، الجهاد فى سبيل الله ، نشأة المجتمع المسـلم وخصائصه . معالم فى الطريق ص ١٢ ، فى ظلال القرآن ص ٧ ، ص ١٠٠٤ — ١٠١٦ ج ٩ ص ١٤٣١ .

واعيا شعوريا بل تمثل موقفا لاشعوريا بنـــاء على الظروف النفسية والاجتماعية التى عاشتها جماعة الاخوان المسلمين والتى عاشـــها الامام الشهيد من خلالهم • فلم تظهر فكرة الحاكمية لله ضد حاكمية البشر أو الاسلام ضد الجاهلية فى المرحلة الادبية التى بدأ فيها وعيه الفنى والادبى والوطنى • ولم تظهر أيضا فى المرحلة الاجتماعية التى تطور فيها وعيه الاول الى وعى اجتماعى الا فى أقل الحدود • وتعنى حاكمية التشريع من أجل اقامة مجتمع اسلامى يقوم على العدالة والحـرية والاستقلال الوطنى • ولم تظهر ثالثا فى المرحلة الفلسفية الا كجـزء من تصور اسلامى عام يقيم مجتمعا على الربانية والتوحيد أى على الشريعة المنزلة وعلى تصور الوحدانية ، وحدانية الضمير فلا نفاق ، ووحدانية المجتمع فلا طبقات ، ووحدانية الامم فلا حروب • لم تظهر الحاكمية لله الا فى المرحلة الرابعة المرحلة السياسية التى كان فيها الامام الشهيد سجينا للثورة المصرية ، تتحكم فى فكره سيكلوجية الســجين ، ونفسية المضطهد ، وواقع البرىء ووضع المظلوم • بدأ هذا الوضــع النفسى الجديد يفرض نفسه على الماضى ويتحكم فى مقاييس انتقاء الافكار والتركيز على ما اتفق معها حتى أصبحت محورا رئيسيا بعد أن لم تكن ذلك • ولو لم يحدث الصدام بين الاخــوان والثورة ابتــداء من ١٩٥٤ واستمر النضال الاجتماعى والسياسى لسيد قطب فســاهم فى البناء الاشتراكى فى أوائــل الستينات لامكن اســقاط الحاضر على الماضى أيضا • وبدل « معالم فى الطريق » لكان لدينا الاسلام طريق الاشتراكية أيضا مجموعة نصوص مستقاة من « فى ظلال القرآن » •

ويدور « معالم فى الطريق » على فكـرة الحاكمية ومايتبعها من الجاهلية والصراع بين الاسلام والجاهلية ، والجهاد ، والصفوة •

وكأن الامام الشهيد قد تحول الى أبى أعلى مودودى آخر • صحيح أنه يشير اليه احيانا فى عجز امريكا عن تحريم الخمر فى « التنقيحات » للمودودى نقلا عن الندوى فى « ماذا خسر العالم بانحطاطات المسلمين؟» أو مباشرة فى الحاكمية عن « مبادىء الاسلام » للمودودى •

والحاكمية فكرة مستنبطة من العقيدة الاسلامية ، عقيدة الالوهية التى تنتج عنها العبودية ، وعن العبودية تنتج الحاكمية • « أن الالوهية تعنى الحاكمية العليا ••• وان توحيد الالوهية وافراد الله سبحانه بها معناه نزع السلطان الذى يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والامراء والحكام ورده كله الى الله ، السلطان على الضمائر ، والسلطان على الشعائر ، والسلطان على واقعيات الحياة ، والسلطان فى المال ، والسلطان فى القضاء ، والسلطان فى الارواح والابدان •• ان « لا اله الا الله » ثورة على السلطان الارضى الذى يغتصب أولى خصائص الالوهية ، وثورة على الاوضاع التى تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب وخروج على السلطات التى تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله »(١٥٠) • فالحاكمية تحرر قبل أن تكون قيدا ، وانطلاق قبل أن تكون ثبتا ، واقدام قبل أن تكون احجاما • أتى الاسلام ولم تكن الغاية اقامة دولة بالرغم من اتساع الصحراء وتشتت القبائل ولكن تحريرا للنفوس عربا وفرسا وروما ، وليس استبدال طاغوت عربى بطاغوت فارسى أو رومى فالناس عبيد لله وحده • لا حاكمية الا الله ، ولا شريعة

---

(١٥٠) معالم فى الطريق ص ٢٦ ، فى ظلال القرآن جـ ٣ ص ٢٨٦ ، ٢٩٥ ، ٣٤١ ، ٣٦١ ، ٣٨٧ •

الا من الله ، ولا سلطان لاحد على أحد لان السلطان كله لله(١٥١) • يبغى الاسلام تحرير الانسان من حيث هو انسان بصرف النظر عن جنسيته وقوميته ولونه عن طريق اقرار عقيدة « لااله الا الله » بمد لولها الحقيقى ، وهو رد الحاكمية لله فى أمرهم كله ، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعــاء هــذا الحق لانفســـهم ، اقرارها فى ضمائرهم ، واقرارها فى أوضاعهم وواقعهم(١٥٢)• والحاكمية مازالت تشريعية أقرب منها الهية فالله يحكم من خلال الشريعة وليس من خلال احكام • ان القلوب يجب ان تخلص أولا لله ، وتعلن عن عبوديتها له وحده بقبول شرعه وحده ، ورفض كل شرع آخر غيره من ناحية المبدأ قبل أن تخاطب تفصيل الشرع يرغبها فيه • ان الرغبـــة يجب أن تنبثق من خــــلال العبودية لله ، والتحرر من سلطان سواه لا من أن النظام المعروض عليها فى ذاته خير مما لديها من الانظمة فى كذا وكذا على وجه التفصيل• ان نظام الله خير فى ذاته لانه من شرع الله ، ولن يكون شرع العبيد يوما كشرع الله • ولكن هذه ليست قاعدة الدعوة • ان قاعدة الدعوة ان قبول شرع الله وحده ايا كان ، ورفض كل شرع غيره أيا كان هو ذاته الاسلام وليس للسلام مدلول سواه (١٥٣) •

وأحيانا تتفصل العقيدة فى عدة مفاهيم مثل الالوهية ، والربوبية ، والقوامة ، والسلطان ، والحاكمية • فالحاكمية تتبع عن الالوهية بعــد

---

(١٥١) المصدر السابق ص ٢٩ ، فى ظلال القرآن ج ٦ ص ٨٨٧ — ٨٩١ •

(١٥٢) معالم فى الطريق ص ٤٠ ، فى ظلال القرآن ص ٧ ، ص ١٥٦ ، ١٠٥٨ ، ١٤٤٤ ج ١٠ ص ١٥٦١ — ١٥٦٣ •

(١٥٣) المصدر السابق ص ٤١ — ٤٢ •

الربوبية والقوامة والسلطان من أجل وصف فاعلية الالوهية وتوجيهها لحياة البشر . « والقاعدة النظرية التى يقوم عليها الاسلام على مدار التاريخ البشرى هى قاعدة شهادة ان لااله الا الله الى افراد الله سبحانة بالوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية ، افراده بها اعتقادا فى الضمير ، وعبادة فى الشعائر وشريعة فى واقع الحياة»(١٥٤).

وعلى نقيض الالوهية يأتى الشرك . والشرك يكون أما فى صورة الاعتقاد والعبادة وأما فى صورة الحاكمية والاتباع . الحاكمية اذن تعبير عن التوحيد العملى ، فالتوحيد فى حياة الانسان على مايقول ابن القيم توحيد نظر وتوحيد عمل ، والثانى شرط الاول ، وهو ماأبرزه أيضا محمد بن عبد الوهاب فى « كتاب التوحيد » .الاسلام هو اسلام العباد لرب العباد واخراجهم من عبادة العباد الى عبادة الله وحده اخراجهم من سلطان العباد فى حاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم الى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده فى كل شأن من شئون الحياة .. جاء (محمد) ليرد الناس الى حاكمية الله كشأن الكون كله الذى يحتوى الناس فيجب أن تكون السلطة التى تنظم حياتهم هى السلطة التى تنظم وجودهم ، فلا يشذوا هم بمنهج وسلطان وتدبير غير المنهج السلطان والتدبير الذى يصرف الكون كله بل الله هو الذى يعرف وجودهم فى حيز الجانب الارادى من حياتهم . فالناس محكومون بقوانين نظرية من صنع الله فى شأنهم ونموهم وصحتهم ومرضهم ، وحياتهم وموقعهم ، وفى حركاتهم الاختيارية ذاتها . وهم لايملكون

---

(١٥٤) المصدر السابق ص ٥٤ — ٥٥ ، فى ظلال القرآن ج ٨ ص ١١٧٩ — ١١٨١ .

تغيير سنة الله وقوانينه الكونية التى تحدث هذا الكون وتصرفه •ومن‌ثم ينبغى أن يثوبوا الى الاسلام فى الجانب الارادى من حياتهم ، فيجعلوا شريعة الله هى الحاكمة وفى كل شأن من شئون هذه الحياة تنسيقا بين الجانب الارادى فى حياتهم والجانب الفطرى وتنسيقا بين وجودهم كله بشطريه هذين وبين الوجود الكونى (١٥٥) • الحاكمية اذن تشـمل الجانبين اللارادى والارادى فى الانسان لذلك تبـدو الحاكمية احيانا وكأنها ليست تشريعية فقط بل كونية أيضا ترجع الى أصل أشمل فى تقريره عن الوجود كله لا عن الوجود الانسانى وحده والى منهـج للوجود كله لا منهج للحياة الانسانية وحدها • لذلك يصبح العمـل شريعة الله واجبا لتحقيق ذلك التناسق وفى مقابل شريعة الله هناك أهواء للبشر « ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن » (المؤمنون : ٧١) • فالحق الذى يقوم عليه الدين هو الحق الذى تقوم عليه السموات والارض فى الدنيا والآخرة(١٥٦) • وهنا تتحول الحاكمية الى نظرة فلسفية وليس فقط الى تشريع عملى ، ترجـع فى أصولها الى التسلطية الاشعرية التى تقضى الانسان والعالم واستقلالهما وتقترب من التصور الشيعى للشريعة الكونية •

ومع ذلك فالغالب على الحاكمية هى أنها أساس يقوم عليه المجتمع الاسلامى كما يدل على ذلك الشق التالى من الشهادتين فى أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله « العبودية لله وحده هى شطر

---

(١٥٥) المصدر السابق ص ٥٢ — ٥٣ ، فى ظلال القرآن ج ٩ ص ١٣٤٨ — ١٣٥٤ •

(١٥٦) المصدر السابق ص ١١١ — ١١٢ •

الركن الاول فى العقيدة الاسلامية المتمثل فى شهادة أن لااله الا الله والتلقى عن رسول الله فى كيفية هذه العبودية هو شطرها الثانى المتمثل فى شهادة ان محمدا رسول الله »(١٥٧) . وما يتلقاه المجتمع عن الرسول هو الشريعة . وبالتالى تتضمن الحاكمية الله ثم الرسول ثم الشريعة وليس كما يقول دعاة النظام الله ثم الرسول ثم أولى الامـر الذين يحكمون بغير ما أنزل الله . «ان هذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعةمن الناس تقر ان عبوديتها الكاملة لله وحده ، وانها لاتدين بالعبودية لغير الله فى الاعتقاد والتصور وفى العبادات والشعائر ولا تدين بالعبودية لغير الله فى النظام والشرائع ثم تأخذ بالفعل فى تنظيم حياتها كلهـا على أساس من هذه العبودية الخالصة »(١٥٨) . فقبل أن يقرر الناس اخلاص عبوديتهم لله فانهم لايكونون مسلمين ، وقبـل ان ينظمـوا حياتهم على هذا الاساس فلا يكون مجتمعهم مسلما .

لذلك بالرغم من سيطرة فكرة الحاكمية المستنبطة من الالوهيـة والعبودية فى المرحلة السياسية الاخيرة الا أن قضايا العدالة الاجتماعية لم تختف بتاتا . فالعدالة الاجتماعية أحد مظاهر الحاكمية . فقـد ظهر الاسلام والمجتمع العربى باسوء مايكون عليه المجتمع من سوء توزيع الثروة والعدالة فقد تملكت الفئة القليلة المال والتجارة ، وتتعامل بالربا اضعافا مضاعفة . والكثرة لاتملك الا الجوع والبؤس وشظف العيش . اصحاب الثروات هم أصحاب الجاه والشرف ، والاغلبيـة البائسة لاشرف ولاقيمة . لم يهدف الاسلام الى تغيير الوضع الاجتماعى

---

(١٥٧) المصدر السابق ص ٩٢ .

(١٥٨) المصدر السابق ص ٩٦ .

بتغليب طبقة على طبقة وقلب الاية منسيادة الاقلية الى سيادة الاغلبية ولكن بتحرير النفوس من خلال « لااله الا الله » .فالعدالة الاجتماعية لابد وأن تنبثق من تصور اعتقادى شامل برد الامر كله لله . كما كان الظلم فاشيا والدعارة منتشرة . ولم يكن الاسلام دعوة اصلاحية أخلاقية اجتماعية فالاخلاق فيه تنبثق من عقيدة « لا اله الا الله » . لم يبدأ الاسلام اذن دعوة قومية أو دعوة اجتماعية أو دعوة اخلاقية بل دعوة «لااله الا الله» فى القلوب والعقول ، قاعدة الالوهية الواحدة لازالة ادران النفوس التى فشلت النظم الارضية فى ازالتها بكل تشريعاتها وقوانينها » (١٥٩) .

وفى مقابل حاكمية الله توجد حاكمية البشر ، وفى مقابل المجتمع الاسلامى يوجد المجتمع الجاهلى . المجتمع الاسلامى هو وحده المجتمع المتحضر والاسلام هو وحده الحضارة فى مقابل المجتمعات الجاهلية المغلقة . المجتمع الاسلامى لايحتاج الى وصفه بأنه متحضر لان الاسلام هو التحضر والمجتمع الاسلامى لايكون الا متحضرا (١٦٠). حين تكون الحاكمية العليا فى مجتمع الله وحده متمثلة فى سيادة الشريعة الالهية تكون هذه هى الصورة الوحيدة التى يتحرر فيها البشر تحررا كاملا وحقيقيا من العبودية للبشر ، وتكون هذه الحضارة

---

(١٥٩) المصدر السابق ص ٢٩ — ٣٢ .

(١٦٠) يذكر سيد قطب بأنه بعد ان اعلن عن كتابه « نحو مجتمع اسلامى متحضر » ثم حذف متحضر نقده كاتب جزائرى يكتب بالفرنسية (اظنه مالك بن بنى) على ان ذلك دفاع نفسية داخلية عن الاسلام تحرم الكاتب من مواجهة المشكلة على حقيقتها ، المصدر السابق ص ١١٧ — ١١٨ فى ظلال القرآن ص ٦٠١ — ٦٠٢ .

الانسانيــة (١٦١) • فالمجتمع الذى يخضــع بعض افــراده للبعض الآخـــر أنمــا هـــو مجتمــع بعضــه أربــــاب وبعضــه عبيد ، ومن ثم فهو متخلف أو بالمصطلح الاســلامى مجتمع جاهلى • فالمجتمع الاسلامى هو المجتمع المتقدم والمجتمع الجاهلى هو المجتمع المتخلف • المجتمع الاسلامى مجتمع مهيمن عليه اله واحد ، والمجتمع الجاهلى تتحكم فيه روابط الجنس واللون والقوم والارض • اذا كان الناس فى الجاهلية يعبد بعضهم بعضا فان المجتمع الاسلامى وحــده هو الذى يتحرر فيه الناس جميعا من عبادة بعضهم ويعبد الجميع الله وحده • هذا هو مفترق الطريق والتصور الذى أعطاه الاسلام للبشرية ورصيد الامة وليس من منتجات الحضارة الغربية ولا العبقرية الاوربية شرقية أم غربية • المجتمع الجاهلى هو المجتمع غير المسلم • هذا يعنى موضوعيا كل مجتمع لايخلص عبوديته لله وحده فى التصور الاعتقادى وفى الشعائر التعبدية وفى الشرائع القانونية وبالتالى يدخل فيــه جميع المجتمعات القائمة اليوم فى الارض فعلا • فالاسلام لايعرف الا نوعين اثنين من المجتمعات : مجتمع اسلامى ومجتمع جاهلى • المجتمع الاسلامى هو المجتمع الذى يطبق فيه الاسلام عقيدة وعبادة وشريعة ونظاما وخلقا وسلوكا والمجتمع الجاهلى هو المجتمع الــذى لايطبق فيه الاسلام ولاتحكمه عقيدته وتصوراته وقيمه وموازينــه ونظامه وشرائعه ، وخلقه وسلوكه (١٦٢) •

---

(١٦١) المصدر السابق ص ١١٩ فى ظلال القرآن جـ ٦ ص ٩٠٥ .

(١٦٢) المصادر السابق ص ١١٦ فى ظلال القرآن جـ ٨ ص ١٢٢٠ — ١٢٢٤ .

لقد واجه الرسول قديما الجاهلية التى تقوم على حاكمية البشر
. والشذوذ بهذا عن الوجود الكونى ، والتصادم بين منهج الجانب
دى فى حياة الانسان والجانب الفطرى • ولكن جاهلية اليـوم
ية أصلية جذرية أساسية لانها تتعلق بمقومات الحياة وأنظمتهـا
خفف منها هذه الخدمات المادية الضخمة وهذا الابداع المـــادى
. « هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان اللـه
رض وعلى أخص خصائص الالوهية وهى الحاكمية • انها تسند
كمية الى البشر فتجعل بعضهـم لبعض أربابا لا فى الصـورة
الساذجة التى عرفتها الجاهلية الاولى ولكن فى صـورة ادعاء
وضع التصورات والقيـم ، والشرائع والقوانين ، والانظمـة
'وضاع بمعزل عن فهم الله للحياة وفيما لم يأذن به الله • فينشأ
هذا الاعتداء على سلطان الله اعتداء على عباده •وما مهانة الانسان
فى الانظمة الجماعية ، وماظلم الافراد والشعوب بسـيطرة رأس
والاستعمار فى النظم الرأسمالية الا أثرا من آثار الاعتـداء على
ان الله ، وانكار الكرامة التى قررها الله للانسان(١٦٣) • حاكمية
اذن اعتداء على الله أى اعتداء على الانسان بفرض نظـام
الهى عليه •

والحاكمية لاتعنى التشريع وحـده بل تعنى أيضا أصول الاعتقاد
الحكم فاصول الاخلاق وأصول السلوك وأصول المعرفة •
تمثل فى الاعتقاد والتصور وفى الاوضـاع السياسـية والاجتماعية

---

(١٦٣) المصدر السابق ص ١٠ فى ظلال القرآن جـ ٧ ص ٩٩٠ جـ ١٢
، ١٨٥٢ ، ١٨٥٣ •

والاقتصادية التى تقوم عليها وفى التشريعات القانونية وقواعد الاخلاق والسلوك بل وفى النشاط الفنى والنشاط الفكرى ، فالحاكمية تصور فى الثقافة تشير الى مصدرها الدينى . أما فى العلوم البحتة فيأخذ المسلم من أى مصدر شاء . وعليه أن يطلع على آثار الجاهلية ليعرف كيف تنحرف وكيف يصحح هذا الانحراف ورد المجتمع الجاهلى الى التصور الاسلامى « إن اتجاهات الفلسفة بجملتها ، واتجاهات تفسير التاريخ الانسانى بجملتها ، واتجاهات علم النفس بجملتها — عدا الملاحظات والمشاهدات دون التفسيرات العامة لها — ومباحث الاخلاق بجملتها — واتجاهات دراسات الاديان المقارنة بجملتها ، واتجاهات التفسيرات والمذاهب الاجتماعية بجملتها فيما عدا المشاهدات والاحصائيات والمعلومات ، ان هذه الاتجاهات كلها فى الفكر الجاهلى أى غير الاسلامى قديما وحديثا متأثرة تأثرا مباشرا بتصورات اعتقادية جاهليــة » (١٦٤) .

أن حكاية ان الثقافة تراث انسانى لا وطن له ولا جنس ولا دين صحيحة فى العلم وليس فى الثقافة . أن لدى المسلم الكفاية من بيان ربه الصادق عن تلك الشئون وفى السموات وفى المستوى الذى تبدو فيه محاولات البشر فى هذه المجالات هزيلة ومضحكة(١٦٥) . بل ان الاتجاه التجريبى ذاته الذى يعتز به الغرب والذى قامت عليه الحضارة

---

(١٦٤) المصدر السابق ص ١٤٠ فى ظلال القرآن ج ١٢ ص ١٩٠٢ — ١٩٠٦ وص ١٩٣٩ — ١٩٤٨ .

(١٦٥) المصدر السابق ص ١٤١ انظر أيضا مقالنا — موقفنا من التراث الغربى ، « قضايا معاصرة » ج ٢ ص ٣ — ٣٣ .

الصناعية الاوربية الحاضرة لم ينشأ ابتداء فى أوربا بل نشأ فى الجامعات الاسلامية فى الاندلس فى المشرق مستمدا اصوله من التصور الاسلامى وتوجيهاته الى الكون وطبيعته الواقعية ثم استقلت النهضة العلمية فى أوربا بهذا المنهج واستمرت تنميه وترقيه بينما ركد وترك نهائيا فى العالم الاسلامى بسبب بعد هذا العالم تدريجيا عن الاسلام بفعل عوامل بعضها كامن فى تركيب المجتمع وبعضها يتمثل فى الهجوم عليه من الصليبية والصهيونية . ثم قطعت أوربا مابين المنهج الذى اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية الاسلامية وشردت به نهائيا بعيدا عن الله فى أثناء شرودها عن الكنيسة التى كانت تستطيل على الناس بغيا وعدوانا باسم الله وبالتالى تغير نتائج الفكر الاوربى . أما الاسلام فانه لايفصل بين العلم وصاحب العلم . فالعلم الذى ينقطع عن العقيدة الايمانية ليس العلم الذى يبغيه القرآن . العلم الاوربى يبعد عن الله . « اتجه المنهج الاوربى الى النهضة العلمية الحديثة مع الاسف بسبب تلك الملابسات النكدة التى قامت فى التاريخ الاوربى خاصة بين الكنيسة الغاشمة ثم ترك آثاره العميقة فى مناهج الفكر الاوربى كلها وفى طبيعة التفكير الاوربى . وترك تلك الرواسب المسماه بالعداء لاصل التصور الدينى جملة — لا لاصل التصور الكنسى وحده ولا الكنيسة وحدها — فى كل ماانتجه الفكر الاوربى » (١٦٦) .

---

(١٦٦) معالم فى الطريق ص ١٤٧ .

يتحدث سيد قطب عن تجربته الشخصية مع الفكر الغربى قائلا انه لتعريف الحضارة لم يكن الكاتب قد تخلص من ضغط الرواسب الثقافية فى تكوينه العلمى والنفسى من المصادر الاجنبية الغربية على الحس الاسلامى. وبالرغم من وضع الاتجاه الاسلامى الا ان هذه الرواسب كانت طمس

=

والمجتمعات الجاهلية أربعة : المجتمعات الشيوعية والمجتمعات الوثنية المجتمعات اليهودية والنصرانية والمجتمعات التى تزعم لنفسها أنها مسلمة . فالمجتمعات الشيوعية فى رأى سيد قطب مجتمعات ملحدة تنكر وجود الله اصلا وترجع الفاعلية الى المادة أو الطبيعة وفى حياة الانسان الى الاقتصاد أو أدوات الانتاج . وتقيم نظاما العبودية فيه للحزب على فرض أنه ممثل للقيادة الجماعية وما يترتب على ذلك من أهدار لكرامة الانسان باعتبار ان المطالب الاساسية لهـا هى مطالب الحيوان : الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس وحرمانه من حاجاته الروحية : العقيدة فى الله ، حرية اختيارها ، حرية التعبير عنها وعن فرديتها التى تتجلى فى الملكية الفردية واختيار نوع العمل والتخصص وفى التعبير الفنى عن الذات . فهو مجتمع ينكر وجود الله ويفسر التاريخ تفسيرا ماديا ويطبق مايسميه الاشتراكية العلمية نظاما . وعندما تكون المادة فى أية صورة هى القيمة العليا سواء فى النظرية كما فى التفسير الماركسى للتاريخ أو فى صورة الانتاج المادى كما فى أمريكا وأوربا فان هذه المجتمعات تكون متخلفة أى بالمصطلح الاسلامى جاهلة . والمجتمع الاسلامى لايحقر المادة الا فى النظرية لانها مكو نمن مكونات الكون ولا فى الانتاج لانه من مقومات الخلافة فى الارض ولكنه لايعتبرها القيمة العليا التى من أجلها تهدر قيمة الانسان . فى المجتمع الجاهلى تتغير القيم وتتبدل ، ولا تستقر على حال ولا ترجع الى أصل كمـا

صورة وتمنعه الرؤية الواضحة .. قضى المؤلف اربعين سنة من عمره عرف الجاهلية على حقيقتها وعلى انحرافها وضآلتها وقزامتهـا وجعجعتهـا وانتعاشها وغرورها وادعائها وعلم علم اليقين انه لايمكن ان يجمع المسلم بين هذين المصدرين فى التلقى ، المصدر السابق ص ١٤٤ — ١٤٨ .

يزعم التفسير المادى للتاريخ والاشتراكية العلمية . وعندما يكون الجنس هو أساس الاسرة يكون ذلك هو التخلف الحضارى فالمرأة ليست زينة أو غواية . لقد اغرت الاخلاق فى المجتمعات الحديثة وشاعت العلاقات الجنسية . وواضح من هذا الوصف للمجتمعات الاوربية الشيوعية منها والرأسمالية القوالب التقليدية مثل الايمان والالحاد ، والتعارض بين المادة والروح . فالمجتمعات الشيوعية ترفض الدين الذى صورته الكنيسة وهو ليس بدين ، والمجتمعات الاوربية تلجأ الى الطبيعة تكتشف بداخلها عن مكوناتها دون كبت يؤدى الى الانهيار أو النفاق . ومازال الدين ينمو نموا رأسماليا فى التصور بالتأكيد على حق الملكية الفردية وحق الارث وكأن « الرد على الدهريين » عند الافغانى مازال سارى المفعول » (١٦٧) .

اما المجتمعات الوثنية فى الهند واليابان والفلبين وافريقيا فيقوم تصورها الاعتقادى على تأليه غير الله كما تقوم الشعائر التعبدية لشتى الآلهة والمعبودات وتقيم الانظمة والشرائع المستمدة من العابدة والكهنة والسدنة والسحرة والشيوع أو هيئات مدنية علمانية تملك سلطة التشريع دون الرجوع الى الله . لها الحاكمية العليا باسم الشعب أو باسم الحزب أو باسم كائن من كان ذلك لان الحاكمية العليا لاتكون الا لله ولاتنزال الا بالطريقة التى بلغها عن رسله .

أما المجتمعات اليهودية والنصرانية فى أرجاء الارض جميعا فانها تقوم على تصور اعتقادى محرف يجعل للالوهية شركاء بالنبوة أو

---

(١٦٧) المصدر السابق ص ٩٨ — ٩٩ ص ١١٦ فى ظلال القرآن جـ ٨ ص ١٧٥٥ — ١٢٥٨ .

بالتثليث ، كما تنبثق شعائرها التعبدية ومراسمها وطقوسها عن هـذه الاعتقادات الضالة ، أما أنظمتها وشرائعها فانها لاتقوم على العبودية لله وحده بالاقرار له وحده بحق الحاكمية العليا التى لاتكون الا لله ، وقد وصفهم الله بالشرك لانهم جعلوا هذا الحق للاحبار الرهبـان يشرعون لهم من عند أنفسهم ويقبلون مايشرعون لهم ، أما المجتمعات التى تزعم لنفسها انها مسلمة فبالرغم من أنها تعتقد بألوهية اللـه وتقدم الشعائر التعبدية له الا أنها لاتدين بالعبودية له فى نظام حياتها، وتعطى اخص خصائص الالوهية لغير الله ، فتدين بحاكمية غير الله ، وتتلقى من هذه الحاكمية نظامها وشرائعها وقيمها وموازينها وعاداتها وتقاليدها وكل مقومات حياتها تقريبا(١٦٨) ، هى المجتمعات التى لا تنكر وجود الله ولكن تجعل له ملكوت السموات وتعزله عن ملكوت الارض فلا تطبق شريعته فى نظام الحياة وتبيح للناس أن يعبدو الله فى البيع والكنائس والمساجد ولكن تحرم عليهم أن يطالبوا بتحكيم شريعة الله فى حياتهم وهى بذلك تنكر أو تعطل الالوهية ، ألوهية الله فى الارض التى نص القرآن عليها « وهو الذى فى السماء اله وفى والارض اله » (الزخرف : ٨٤) ان الحكم الا الله ، امر ألا تعبدوا الا اياه ... ذلك الدين القيم » (يوسف : ٤٠) ، وتعلن هذه المجتمعات أما العلمانية وعدم علاقتها بالدين أصلا وأما احترام الدين ولكن تخرجه من نظامه

---

(١٦٨) يذكر سيد قطب آياب الحاكمية المشهورة « ومن لم يحكم بما انزل اليه فاولئك هم الكافرون » (المائدة : ٤٤) « الم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما انزل اليك وما انزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد امروا أن يكفروا به .. فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شـجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسـهم حرجا مما قضـيت ويسلموا تسليما » — (النساء ٦١ — ٦٥) « وان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول » (النساء : ٩٥) .

الاجتماعى لانها تنكر الغيب وتقيـم نظمها على العلمية التى تناقض الغيب وأما تكون الحاكمية فيها لغير الله يشرع مايشاء ويدعى انهـا من عند الله . والاسلام يرفض الاعتراف باسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها . فالحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده وتلتقى مع سائر المجتمعات فى صفة الجاهلية . وليس لاحد أن يقول بشرع يشرعه هذا شرع الله الا أن تكون الحاكمية العليا لله معلنـة وأن يكون مصدر السلطات هو الله لا الشعب ولا الحزب ولا أى من البشر . ولا يكون هذا لكل من يريد أن يدعى سلطان باسم الله الذى عرفته أوربا ذات يوم باسم الثيوقراطية أو الحكم المقدس . وليس شىء من هذا فى الاسلام . وما يملك أحد أن ينطق باسم الله الا رسوله « ليس المجتمع الاسلامى هو الذى يضم ناسا ممن يسمون أنفسهم مسلمون بينما شريعة الاسلام ليست هى قانون هذا المجتمع وأن صلى وصام وحج البيت الحرام . وليس المجتمع الاسلامى هو الذى يبتدع لنفسه اسلاما من عند نفسه يسميه الاسلام المتطور (١٦٩) .

وعلاقة المجتمع الاسلامى بالمجتمع الجاهلى علاقة انفصال وتضاد وحرب فلا وجود لاحدهما مع وجود الآخر . ولا واسطة بينهما ولا انصاف حلول ولا تعايش سلمى . ليست وظيفة الاسلام اذن ان يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة فى الارض ولا الاوضاع القائمة فى كل مكان . لم تكن هذه وظيفته يوم جاء ولن تكون هذه وظيفته اليوم ولا فى المستقبل . فالجاهلية هى الجاهلية ، هى الانحراف عن العبودية

---

(١٦٩) المصدر السابق ص ١١٦ .

لله وحده وعن المنهج الالهى فى الحياة واستنباط النظم والشرائع والقوانين والعادات والتقاليد والقيم والموازين من مصدر آخر غير المصدر الالهى . الاسلام هو الاسلام ووظيفته هى نقل الناس من الجاهلية الى الاسلام . الجاهلية هى عبودية الناس للناس بتشريع بعض الناس للناس بما لم يأذن به الله كائنة ما كانت الصورة التى يتم بها هذا التشريع . والاسلام هو عبودية الناس لله وحده بتلقيهم منه وحده تصوراتهم وعقائدهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم، والتحرر من عبودية العبيد ... ان الاسلام لايقبل انصاف الحلول مع الجاهلية لامن ناحية التصور ، فاما اسلام أو جاهلية . وليس هناك وضع آخر نصفه اسلام ونصفه جاهلية فيقبله الاسلام ويرضاه. فنظرة الاسلام واضحة فى ان الحق لايتعدد وان ماعدا هذا الحق فهو الضلال ، وهما غير قابلين للتلبس والامتزاج وأنه أما حكم الله وأما حكم الجاهلية . وأما شريعة الله وأما الهوى . فهما أمران لا ثالث لهما ، أما الاستجابة لله والرسول ، وأما اتباع الهوى ، أما حكم الله وأما حكم الجاهلية ، اما الحكم بما أنزل الله واما الفتنة عما أنزل الله . وظيفة الاسلام اذن هى اقصاء الجاهلية من قيادة البشرية وتـولى هذه القيادة على منهجه الخاص . هذه الجاهلية خبثت قديما وخبثت حديثا . لايوجد شىء اسمه ديمقراطية الاسلام أو اشتراكية الاسلام. ان الانتقال من الجاهلية للاسلام نقلة بعيدة لا واسطة ولا ترقيع . والنفس البشرية فيها الاستعداد للانتقال الكامل من حياة الى حياة . ان الاسلام لا يتخذ المبررات له من النظم الجاهلية(١٧٠) .

---

(١٧٠) المصدر السابق ص ١٦٢ — ١٧٢ فى ظلال القرآن ص ١٤٩ جـ ٧ .

ولا يمكن الالتقاء بين المجتمعين لان المسألة فى حقيقتها مسألة كفر وايمان ، مسألة شرك وتوحيد ، مسألة جاهلية واسلام • ان الناس ليسوا مسلمين كما يدعون وهم يحيون حياة الجاهلية • والدعوة اليوم انما تقوم لترد هؤلاء الجاهلين الى الاسلام ولتجعل منهم مسلمين من جديد •• اننا نحن الذين نقدم الاسلام للناس ليس لنا أن نجارى الجاهلية فى شئ من تصوراتها ولا شئ من أوضاعها ولا شئ من تقاليدها التى يشتد ضغطها علينا • ان وظيفتنا الاولى هى احلال التصورات الاسلامية والتقاليد الاسلامية فى مكان الجاهلية ولن يتحقق هذا بمجاراة الجاهلية والسير معها خطوات أول الطريق ••• لن يكون هذا بأن نجارى الجاهلية فى بعض الخطوات ••• اننا نعيش وسط جاهلية واننا أهدى طريقا من هذه الجاهلية وانها هوة فاصلة لايقام فوقها معبر للالتقاء فى منتصف الطريق ولكن ينتقل عليه أهل الجاهلية الى الاسلام سواء كانوا ممن يعيشون فى الوطن الاسلامى ويزعمون انهم مسلمون أو كانوا يعيشون فى غير الوطن الاسلامى ••••• ان المعركة بين المؤمنين وخصومهم هى فى صميمها معركة عقيدة وليست شيئا آخر على الاطلاق ، وان خصومهم لاينقمون منهم الا الايمان ولا يسخطون منهم الا العقيدة • انها ليست معركة سياسية ولا معركة اقتصادية ولا معركة عنصرية بل معركة عقيدة أما كفر وأما ايمان أما جاهلية وأما اسلام • فاذا اضطر المسلم الى التعامل مع الجاهلية دون أن يقاطعها وينزوى وينعزل عنها فانما هى المخالطة مع التميز والاخذ والعطاء مع الترفع والصدع بالحق فى مودة والاستعلاء بالايمان فى تواضع • التعامل بالبدن مع الانفصام بالروح ، المؤمن هو الاعلى سندا ومصدرا وادراكا وتصورا للحقيقة والوجود ، وتصورا للقيم والموازين

وضميرا وشعورا ، وخلقا وسلوكا ، وشريعة ونظاما(١٧١) • ويتكون المجتمع الاسلامى بثلاثة انفار وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر فان هذه العقيدة ذاتها تقول لهم انتم الان مجتمع ، مجتمع اسلامى مستقل ، منفصل عن المجتمع الجاهلى الذى لايدين لهـذه العقيـدة ولاتسود فيه قيمها الاساسية •• والثلاثة يصبحون عشرة ، والعشرة مائة والمائة الفا ، والالف اثنى عشر الفا ، ويبرز ويتقرر المجتمع الاسلامى وفى الطريق تقوم المعركة بين المجتمع الوليد والذى انفصل بعقيدته وتصوره ووجوده عن المجتمع الجاهلى الذى أخذ منه افراده • وهكذا ينشأ المجتمع الاسلامى ويتكون المجتمع المسلم • وينشأ من أنتقال افراد ومجموعات من الناس العبودية لغير الله الى العبودية لله اقامة نظـام حياة هذه الجماعة على العبودية • عندئذ يولد مجتمع جديد من المجتمع الجاهلى القديم • وقد ينضم المجتمع الجاهلى القديم الى المجتمع الاسلامى الجديد وقد لاينضم • وقد يهادن المجتمع المسلم الجديد أو يحاربه وان كانت السنة قد جرت على أن يشن المجتمع الجاهلى حربا لاهوادة فيها سواء على طلائع هذا المجتمع فى مرحلة نشوئه أو على المجتمع نفسه بعد قيامه فعلا • طبيعى الا ينشأ المجتمع المسلم ويتقرر وجوده الا اذا بلغ درجة من القوة يواجه بها المجتمع الجاهلى القديم بقوة الاعتقاد والتصور ، وقوة الخلق والبناء النفسى ، وقوة التنظيم والبناء الجماعى (١٧٢) •

---

(١٧١) المصدر السابق ص ٢٧٣ — ١٧٦ — ٢٠١ •

(١٧٢) المصدر السابق ص ٩٧ — ٩٨ فى ظلال القرآن ص ١٤ ص ٢١٥٦ •

وجنسية المسلم عقيدته • وجاء الاسلام ليرد الانسان الى ربه وليجعل هذه السلطة الوحيدة التى يتلقى منها موازينه وقيمه • هنــاك حزب واحد لايتبدد هــو حزب الله وأحزاب أخــرى كلها للشيطان وللطاغوت • وهناك طريق واحد يصل الى الله ، وليس كل طريق يؤدى اليه • هناك نظام واحد هو النظام الاسلامى وماعداه من النظم فهــو جاهلية « أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقــوم يفقهون » (المائدة : ٥٠) • هناك شريعة واحدة هى شريعة الله ، وماعداها فهو هوى • وهناك حق واحد لايتعدد وماعداه هو الضلال • وهنــاك دار واحدة هى دار السلام وما عداها فهو دار حرب علاقة المسلم بها أما القتال وأما المهادنة على عهد امان • كل أرض تحارب المسلم فى عقيدته . وتصده عن دينه وتعطل عمل شريعة فهى دار حرب ولو كــان فيها أهله وعشيرته ، قومه وماله وتجارته • وكل أرض تقوم فيهــا عقيدته وتعمل فيها شريعة فهى دار السلام • ولو لم يكن له فيها أهل ولا عشيرة ولا قوم ولا تجارة • الوطن دار تحكمها عقيدة ومنهاج حياة وشريعة من الله • لاوجود لشعب مختار انما الشعب المختــار الامة المسلمة • لاإسلام فى أرض لايحكمها الاسلام ، ولا تقوم فيها شريعته ، ولا دار اسلام الا تلك التى يهيمن عليها الاســلام بمنهجه وقانونه • وليس وراء الايمان الا الكفر وليس دون الاسلام الا الجاهلية؛ وليس بعد الحق الا الضلال (١٧٣) •

الاسلام اذن فى حالة جهاد دائم ضد الجاهلية • والجهاد ليس

---

(١٧٣) المصدر السابق ص ١٦١ •

كما يقول المدافعون عنه ضد اتهام المستشرقين له للدفاع فقط وليس الجهوم فيخلطون بين منهج السياسة المادية التى تحول بين الناس وبينه والتى تعبد الناس للناس وتمنعهم من العبودية لله • ان هــذا الدين اعلان عام لتحرير الانسان فى الارض من العبودية للعباد ومن العبودية لهواه ايضا وهى من العبودية للعباد وذلك باعلان الوهيــة الله وحده سبحانه — وربوبيته للعالمين ! ان اعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها الثورة الشاملة على حاكمية البشر فى كل صـــورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها والتحرر الكامل من كل وضع فى أرجــاء الارض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور أو بتعبير آخر مرادف • الالوهية فيه للبشر فى صورة من الصور ذلك أن الحكم الذى مرد الامر فيه الى البشر ومصدر السلطات فيه هم البشر هو تأليه للبشر ، يجعل بعضهم لبعض أربابا من دون الله•أن هذا الاعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب ورده الى الله وطــرد المغتصبين لــه الذين يحكمــون الناس بشرائع من عند أنفسهم فيقومون منهم مقام الارباب ، ويقــوم الناس منهم مكان العبيد • ان معناها تحطيم مملكة البشر لاقامة مملكة الله فى الارض (١٧٤) • فالجهاد اذن من طبيعة الاسلام لتحرير الوجدان البشرى وأعلان حرية العقيدة ضد الغفلة والقهر الذى يسود نظــم البشر • فقد تعهدنا « الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخــذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » (آل عمران : ٦٤) . ومملكة الارض لاتقوم بأن يتولى الحاكمية فى الارض رجال بأعيانهم — وهم رجال الدين — كما كان الامر فى سلطان الكنيسة ، ولا رجال ينطقون باسم

---

(١٧٤) المصدر السابق ص ٦٦ — ٦٧ فى ظــلال القرآن جـ ١٣ ص ٢١١٤ — ٢١٢٢ •

الالهة كما كان الحال فيما يعرف باسم الثيوقراطية أو الحكم الالهى المقدس ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هى الحاكمية ، وأن يكون مرد الامر الى الله وفق ماقرره من شريعة دينية ... وقيام مملكة الارض وازالة مملكة البشر ، وانتزاع السلطان من أيدى مغتصبيه من الجهاد ورده الى الله وحده ، وسيادة الشريعة الالهية وحدها ، والغاء القوانين البشرية . كل ذلك لايتم بمجرد التبليغ والبيان لان المتسلطين على رقاب العباد والمغتصبين لسلطان الله فى الارض لايسلمون فى سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان ... أن هذه الاعلان العام لتحرير الانسان فى الارض من كل سلطان غير سلطان الله باعلان الوهية الله وحده وربوبيته للعالمين لم يكن اعلان نظريا فلسفيا سلبيا أنما كان اعلانا حركيا واقعيا ايجابيا ، اعلانا يراد له التحقيق العملى فى صورة نظام يحكم البشر بشر بشريعة الله وبخروجهم بالفعل من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده بلا شريك (١٧٥) .

ويواجه هذا التحرير بعقبات اعتقادية وتصورية وأخرى مادية واقعية وثالثة سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية . وفى مقدمتها عقبات السلطان السياسى القائم على العوامل الاعتقادية التصورية والعنصرية والطبقية الاجتماعية والاقتصادية وليس المهم البيان بل الحركة . هذا الدين يرد العالمين الى ربهم وينتزعهم من العبودية لغيره . وبالعبودية الكبرى فى نظر الاسلام يقرر أنها لاتكون الا لله وان من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه

---

(١٧٥) المصدر السابق ص ٦٨ .

فى هذا االدين وقد نص الرسول على أن الاتباع فى الشريعة والحكم هو العبادة التى صار بها اليهود والنصارى مشركين مخـالفين لمـــا أمروا به من عبادة الله وحده ... الاسلام اعلان عام لتحرير الانسان من العبودية للعباد . فهو يهدف ابتداء الى ازالة الانظمة والحكومات التى تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الانسان للانسان.. ان النظام الذى يحكم البشر فى الارض يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وحده وذلك بتلقى الشرائع منه وحــده(١٧٦) . الانطلاق الحركى للاسلام فى صورة الجهاد بالسيف الى جانب الجهاد بالبيان ليس حركة دفاعية فقط بل حركة اندفاع وانطلاق لتحرير الانسان فى الارض دفاعا عن الانسان ذاته ورد العدوان البشرى عليه . الجهــاد اذن هــو اعــلان عام لتحرير الانسان من العبودية للعباد ، وتقرير الوهية الله وحده وربوبيته للعالمين وتحطيم مملكة الهوى البشرى فى الارض واقامة مملكة الشرعية الالهية فى عالم الانسان(١٧٧) . لابد من ازالة العقبات بالقوة فالجهاد ضرورة للدعوة كى تكون عبودية الناس كلهم فيها لله .

والناس ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة ، وأهل ذمة ، وأهــل حرب ، القسم الاول مسلم مؤمن به ، والثانى مسالم له آمن والثالث مخالف له محارب دعــاه أهل الصلح والهدنة للاســلام فصـــار الناس قسمين أهل ذمة ومحاربين له . ولما كان أهل الذمة تحت أمن الاسلام أصبح هناك مجتمعان مجتمع الاسلام ومجتمع الحرب،وكلاهما

---

(١٧٦) المصدر السابق ص ٦٩ — ٧١ .

(١٧٧) المصدر السابق ص ٧٢ — ٧٥ .

ضدان لا يجتمعان . « لا يتعايش الحق والباطل فى هذه الارض وأنه متى قام الاسلام باعلانه العام لاقامة ربوبية الله للعاملين ، وتحـرير الانسان من العبودية للعباد رماه المغتصبون لسلطان الله فى الارض ولم يسالموه قط وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس من سلطانهم ويدفع عن الانسان فى الارض ذلك السلطان الغاضب » (١٧٨) .

ان الجهاد فى الاسلام لايحتاج الى مبررات ادبية بل مبرراته فيه ذاته . « تقرير الوهية الله فى الارض ، وتحقيق منهجه فى حياة الناس ومطاردة الشياطين ، وتحطيم سلطان البشر الذى يتعبد الناس، والناس عبيد الله وحده . لايجوز أن يحكمهم أحد من عباده بسلطان من عنـد نفسه وبشريعة من هواه ورأيه ... أنها مبررات التحرير العام للانسان فى الارض .. اخراج الناس من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده بلا شريك » (١٧٩) .وكان جواب المسلمين اذا ماسألهم أحد عن الاسلام : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ... وهذا المبرر الذاتى قائم ابتداء ولو لم يوجـد خطر الاعتداء على الارض الاسلامية وعلى المسلمين فيها . انه مبرر فى طبيعة المنهـج وواقعيته وطبيعـة المعوقات الفعلية فى المجتمعات البشرية لا من مجرد ملابسات دفاعية محدودة ومقوتة . فالاسلام يبدأ بتحرير البشر مما وقع عليهم من اعتداء من سلطان البشر الممثل فى الانظمة السياسية . ان الانطـلاق بالمذهب الالهى تقوم فى وجهـة

---

(١٧٨) المصدر السابق ص ٧٦ .

(١٧٩) المصدر السابق ص ٨٣ — ٨٤ فى ظلال القرآن ج ١١ ص ١٧٣٧ — ١٧٣٨ .

عقبات مادية من سلطة الدولة ونظام المجتمع وأوضاع البيئة ، وهذه كلها هى التى ينطلق الاسلام ليحطمها بالقوة كى يخلو له وجه الافراد من الناس يخاطب ضمائرها وأفكارهم بعد أن يحررها من الاغلال المادية ، ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار(١٨٠) • أن النظم الجاهلية بمعاداتها النظام الاسلامى انما تدافع عن بقائها بالهجوم عليه • حقا أنه لم يكن بد لهذا الدين أن يدافع المهاجمين له • الان مبرر وجوده فى صورة اعلان عام لربوبية الله للعالمين ، وتحرير الانسان من العبودية لغير الله وتمثل هذا الوجود فى مجتمع تنظيمى حركى تحت قيادة جديد غير قيادات الجاهلية وميلاد مجتمع مستقل متميز لايعترف لاحد من البشر بالحاكمية لان الحاكمية فيه لله وحده • أن مجرد وجود هذا الدين فى هذه الصورة لابد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من حوله — القائمة على قاعدة العبودية للعباد — ان تحاول سحقه دفاعا عن وجودها ذاته ، ولابد ان يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه ••• هذه ملابسة لابد منها تولد مع ميلاد الاسلام ذاته • وهذه معركة مفروضة على الاسلام فرضا ولا خيار له فى خوضها • وهذا صراع طبيعى بين وجودين لايمكن التعايش بينهما طويلا ••• لابد للاسلام أن يدافع عن وجوده ولابد أن يخوض معركته دفاعية مفروضة عليه فرضا ••• ان من طبيعة الوجود الاسلامى ذاته ان يتحرك الى الامام ابتداء لانقاذ الانسان فى الارض من العبودية لغير الله ••• هذه طبيعة هذا الدين ، وهذه وظيفته بحكم أنه أعلان عام لربوبية الله للعالمين وتحرير الانسان من كل عبودية لغير الله فى الناس أجمعين •••

---

(١٨٠) المصدر السابق ص ٨٥ •

القضية هي قضية الوهية الله وعبودية العباد(١٨١) .

ان من حق الاسلام أن يبدأ الهجوم على الجاهلية أن لم تبادئه الجاهلية بالهجوم . حتى اذا لم تهاجم الجاهلية الاسلام فان الاسلام لايتركها تزاول عبودية البشر للبشر ، ولا يدعها دون أن يمد اليهـا دعوته الى التحرير العام . لايهادنها الاسلام الا أن تعلن استسلامها لسلطانه فى صورة اداء الجزية ضمانا لفتح ابوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها ... كان الاسلام مضطرا لخوض معركة لا اختيار له فيها بحكم وجـوده الذاتى ووجـود المجتمعات الجاهلية الاخرى التى لابد أن تهاجمه . والاسلام بذاته يتحرك ابتداء فيدخل المعركة.الأسلام منهج الهى جاء ليقرر الوهية الله فى الارض وعبودية البشر جميعا لاله واحد . ويصب هذا التقرير فى قالب واقعى، هو المجتمع الانسانى الذى يتحرر فيـه الناس من العبودية للعبـاد بالعبودية لرب العباد . فلا تحكمهم الا شريعة الله التى يتمثل فيهـا سلطان الله أو بتعبير آخر تتمثل فيها الوهيته . فمن حقه أن يزيل العقبات كلها من طريقه ليخاطب وجدان الافراد وعقولهم دون حواجز أو موانع مصطنعة من نظام الدولة السياسى أو أوضاع الناس الاجتماعية ... ان من حق الاسلام أن يتحرك ابتداء . فالاسلام ليس نحلة قوة ولا نظام وطن ولكنه منهج الله ونظام عالم . ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز عن الانظمة الاوضاع التى تغل عن حرية الانسان فى الاختيار. وحسبه أنه لايهاجم الافراد ليكرههم على اعتناق عقيدته انما يهاجم الانظمة والاوضاع ليحرر الافراد من التأثيرات المفسدة للفطرة لحرية

---

(١٨١) المصدر السابق ص ٨٦ — ٨٧ .

الأختيار • من حق الاسلام أن يخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ليحقق اعلانه العام بربوبية الله للعاملين وتحرير النـــاس أجمعين • وعبادة الله وحده لا تتحقق فى التصور الاسلامى وفى الواقع العملى الا فى ظل النظام الاسلامى فهو وحده النظام الذى يشرع الله فيه للعباد كلهم ••• تشريعا واحدا يخضع له الجميع على السواء • أما فى سائر الانظمة فيعبد الناس العباد لانهم يتلقون التشريع لحياتهم من العباد وهو من خصائص الالوهية اختصاصا وعملا سواء ادعاها قولا أم لم يعلن هذا الادعاء • فأيما بشر آخر اعترف لذلك البشر بذلك الحق فقد اعترف له بحق الالوهية سواء سماها باسمها أم لــم يسمها ••• الاسلام منهج يتمثل فى تجمع تنظيمى حركى يزحف لتحرير كل الناس والتجمعات الاخرى لاتمكنه من تنظيم حياة رعاياها وفــق منهجه هو • ومن ثم يتحتم على الاسلام أن يزيل هذه الانظمة بوصفها معوقات للتحرير العام • وهذا معنى أن يكون الدين كله لله فلا تكون هناك دينونة ولا طاعة لعبد من العباد لذاته كما هو الشأن فى ســائر الانظمة التى تقوم على عبودية العباد للعباد (١٨٢) •

قد يتأجل الجهاد الى حين لمقتضيات المعركة ولكن ذلك لايعنــى أيقافه أو التخلى عنه • الاســلام منهج الله للحياة البشرية • وهـــو منهج يقوم على افراد الله وحده بالالوهية متمثلة فى الحاكمية ، وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية ••• وحيثما وجـد التجمع الاسلامى الذى يتمثل فيه المنهج الاسلامى فان الله يمنحه حــق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام مع ترك مسألة العقيدة

(١٨٢) المصدر السابق ص ٨٨ — ٩٠ فى ظلال القرآن جـ ٢ ص ١٦٧ •

الوجدانية لحرية الوجدان • فاذا كف الله أيدى الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد فهذه مسألة خطة لا مسألة مبدأ ، مسألة مقتضيات حـركة لا مسألة عقيدة (١٨٣) •

ولتحقيق ذلك لابد من قيادة • فالعالم الآن على حافة الهاوية • والمجتمع فى حاجة الى قيادة جديدة • والمعسكران الغربى والشرقى على حافة الافلاس فى عالم القيم بالرغم من الازدهار المادى • وبالرغم من تعاونيهما معا واقتباس كل نظام ماينقصه من النظام الآخر • فقـد استعارت النظم الغربية بعض الانظمة الاقتصادية مثل الاشتراكية كما انتهت النظم الشرقية بعقيدتها الجماعية الى اقتصارها على الدولة لانها نظم تعارض الفطرة البشرية وتقوم على التسلط والدكتاتورية • لقد قام الغرب بنهضته العلمية التى أدت دورها منذ القرن السادس عشر حتى بلغت الذروة فى القرن التاسع عشر ولكنها لم تعد قـادرة على أن تقدم جديدا بل ظهرت مآسى العلم وتطبيقاته فى القرن العشرين • كما أدت الوطنية والقومية أدوراها وأفلست بفعل حربين أوربيتين طاحنتين • كما فشل النظامان الرأسمالى والشيوعى ، الفردى والجماعى ولم يعدا يقدمان للبشرية أى تقدم وازدهار • فقيادة الغرب أوشكت على الزوال والانسانية فى حاجة الى قيادة جديدة (١٨٤) •

والاسلام وحده هو القادر على هذه القيادة الجديدة لما يملكه من قيم ومنهج فهو المنقذ للبشرية من حافة الهاوية • ولما كانت الجاهلية

---

(١٨٣) المصدر السابق ص ٩٠ — ٩١ •

(١٨٤) المصدر السابق ص ٥ — ٧ فى ظلال القرآن ٦ ٢ ص ١٢٩ — ١٣٩ •

سائدة فى الارض ولا خلاص منها الا بالربانية فان مهمة القيـــادة الاســـلامية رد الناس الى الوهيـــة الله وحـــده وربوبيته وقوامتـــه وحاكميته وسلطانه وشريعته ، ونزع المجتمع من قيادته الجاهليـــة الوثنية مثل الكهنة والذمـــة والســـحرة والعرافيـــة أو السياســـية والاجتماعية والاقتصادية(١٨٥) • وفى الاســـلام وحده تتوافر شروط القيادة • فهو أولا لايتنكر للابداع المادى فى الارض لان الانســـان خليفة الله فى الارض • فالخلافة هنا تعنى الابداع المادى والانتـــاج والسيطرة على قوانين الطبيعة • ثانيا : بعث الامة من جديد لان الاسلام لايقوم الا بأمة • فالعقائد المجردة لاتقود البشرية قبل أن تتمثـــل فى مجتمع • الامة ليست قوما أو أرضا بل جماعة بشرية تتحد بتصوراتها للكون وبأنظمتها وقيمها • وقد انقطع وجود هذه الامة منذ توقف الحكم بشريعة الله • وبالتالى لابد وأن تعود هذه الامة وأن يستمر وجودها عن طريق بعثها من جديد • ثالثا ، أن تكون لهـــذه الامة القيادة بعد البعث بالرغـــم من المســـافة الشاســـعة بـــين مرحـــلة البعث ومرحلة القيادة ، وبالرغم من رصيد الغرب الضخم من العلم والثقافة والتى لا يمكن للبشرية التنازل عنها بسهولة • رابعا ، مؤهلات الامة لايمكن أن تكون الابداع المادى فى هذه المرحلة وهو الضرورة الذاتية لوجودها باعتبارها خليفة الله فى الارض أى عبادة الله وتحقيقا لغـــاية الوجود الانسانى • لابد من مؤهل العقيدة والمنهج الذى يسمح بالحفاظ على نتاج الابداع المادى (١٨٦) •

---

(١٨٥) المصدر السابق ص ٥٦ •

(١٨٦) المصدر السابق ص ٨ — ١٠ •

وهذا كله يتطلب قيادة . يتطلب طليعة تعقد العزم وتسير في الطريق ، تمضى فى خصم الجاهلية الضاربة الاطناب فى خضم الارض جميعا • تمضى وهى تزاول نوعا من العزلة من جانب ونوعا من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة (١٨٧) • وتحتاج هذه الطليعة الى « معالم فى الطريق » لتعرف طبيعة دورها ، وحقيقة وظيفتها ، وصنب غايتها ، ونقطة البدء ، وتعرف حقيقة موقفها من الجاهلية ، اين تلتقى مع الناس وأين تفترق ، وتعرف خصائصها وخصائص الجاهليـة من حولها : كيف تخاطب الجاهلية بلغة الاسلام ، وقيم تخاطبها ، ومن أين تلتقى هديها وكيف فالكتاب اذن يصف الخطوات العملية لتحقيق حاكمية الله وتدمير حاكمية البشر • بالرغم من أنه يحتوى على مجرد مبادىء عامة دون اعداد تنظيم انقلاب فعلى • يعطى فقط الروح والفكر ويعبر عن القصد والهدف •

وتتحقق هذه القيـادة عن طريق تربيـة الصفوة وأعدادها • والصفوة ظاهرة تاريخية يمثلها جيل الصحابة ، هذا الجيل القرآنى الفريد • وليس المهم شخص الرسول كمركز للدعوة لاتقـوم بدونه بل تربية جيل قادر على الاستمرار بها • وقد تحقق هذا الجيل فى ثلاث مراحل عن طريق القرآن وتوجيهاته أولا الى التصور فى نفوس الصفوة ثانيا الى تغيير مجرى التاريخ •

أولا : كان النبـع الاول هـو القرآن • والحديث من آثـار ذلك النبع • لم يكن الرصيد حضارة أو ثقافة أو علما أو مؤلفات أو دراسات • كانت هناك حضارة اليونان والرومان التى مازالت أو باتحيث

---

(١٨٧) المصدر السابق ص ١١ — ١٢ •

عليها اليوم وكانت هناك حضارة الفرس والهند والصين وكلها تحيط بالجزيرة العربية كما كانت اليهودية والنصرانية تعيش فى قلبها . ولكن للاسف اختلطت الينابيع فضــاعت الاجيــال وأخذ المسلمون تصوراتهم من فلسفة اليونان والرومان وأساطير الفرس واسرائيليات اليهود ولاهوت النصارى ، واختلط ذلك بالقرآن تنتج علم الكــلام والفقه والاصول وتخرجت اجيال تختلف عن الجيل الاول .

ثانيا : فى منهج التلقى لم يقرأ الجيل الاول القرآن بقصـــد الثقافة والاطلاع أو التذوق والاستمتاع بل لتلقى أوامر الله وللعمل بها فور سماعها كما يتلقى الجندى فى الميدان الامر اليومى . لذلك لم يطلب أحد الاستكثار من الايات بل طلب أقل قدر منها للعمل بها أولا . كان لدى هذا الجيل شعور التلقى للتنفيذ ، وكان هذا الشـــعور العملى هو الذى يفتح لهم فيما بعد آفاق المعرفة والبحث والاطلاع لم يكن المهم نقل التكاليف بـ لكان المهم اختلاط القرآن بذواتهم وتحويله الى منهج لحياتهم والى طاقة وحركة . ليس القرآن كتاب معرفة نظــرية بل منهاج حياة « وقرآن فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » (الاسراء : ١٠٦) . نزل وفقا للحاجات المتجددة والنمــو المطرد فى الافكار والتصورات وفى المجتمع والحياة وفقا للمشكلات العملية فى حياة المسلمين الواقعية . فالآية وصف لواقع ، وتحديد لمسار حركة ، واطلاق للطاقات ورسم لمنهج عمل . منهج القرآن منهج للتنفيذ والعمل . وفى الطريق يلتقى الانســـان بالجمال الفنى فى القـــرآن ، وبالقصص الرائع فى القرآن ، وبمشاهد القيامة ، وبالمنطق الوجــدانى بالتبعية وليس بالاصالة (١٨٨) .

---

(١٨٨) المصدر السابق ص ١٨ — ١٩ .

ثالثا : بداية عهد جديد فى حياة الفرد ، وقلب من الجاهلية الى الاسلام وفصل بينهما • « كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضى المسلم فى جاهليته وحاضره فى اسلامه ، تنشأ عنها عزلة كاملة فى صلاته بالمجتمع الجاهلى من حـوله وروابطـه الاجتماعيـة • فهو قد انفصل نهائيا من بيئته الجاهلية وأتصل نهائيا ببيئته الاسلامية ، حتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطى فى عالم التجارة والتعامل اليومى • فالعزلة الشعورية شىء والتعامل اليومى شىء آخر • وكان هنـاك انخلاع من البيئة الجاهلية ، وعرفها وتصورها ، وعادتها وروابطهـا ، ينشأ عن الانخلاع من عقيدة الشرك الى عقيدة التوحيد ، ومن تصور الجاهلية الى تصور الاسلام عن الحياة والوجود ، وينشأ من الانضمام الى التجمع الاسلامى الجديد بقيادته الجديدة ، ومنهج هذا المجتمع وهذه القيادة كل ولائه وكل طاعته وكل تبعيته » (١٨٩) •

والجاهلية الاولى التى قضى الاسلام عليها عادت من جـديد « نحن اليوم فى جاهلية كالجاهلية التى عاصرها الاسلام أو أظـلم • كل ماحولنا جاهلية • تصورات الناس وعقائدهم : عاداتهم وتقاليدهم ، موارد ثقافتهم ، فنونهم ، وآدابهم ، شرائعهم وقوانينهم ، حتـى الكثير مما نحسبه ثقافة اسلامية ، ومراجع أسلامية ، وفلسفـة اسلامية ، وتفكيرا اسلاميا ، هو كذلك من صنع هذه الجاهلية » (١٩٠) •

وكما قضى الاسلام على الجاهلية الاولى فان المطلب الحالى هو القضاء على هذه الجاهلية الثانية • ثم لابد لنا من التخلص من ضغط

---

(١٨٩) المصدر السابق ص ١٩ — ٢٠ •

(١٩٠) المصدر السابق ص ٢١ •

المجتمع الجاهلى والتصورات الجاهلية والتقاليد الجاهلية والقيادة الجاهلية فى خاصة نفوسنا .. ليست مهمتنا أن نصطلح مع واقع هذا المجتمع الجاهلى ولا أن ندين له بالولاء له . فهو بهذه الصفة ، صفة الجاهلية ، غير قابل لان نصطلح معه . أن مهمتنا أن نغير انفسنا أولا لتغير هذا المجتمع اخيرا . ان مهمتنا الاولى هى تغيير واقع هذا المجتمع . مهمتنا هى تغيير هذا الواقع الجاهلى من أساسه ، هذا الواقع الذى يصطدم أصطداما أساسيا بالمنهج الاسلامى وبالتصور الاسلامى والذى يحرمنا بالقهر والضغط أن نعيش كما يريد لنا المنهج الالهى أن نعيش . أن أولى الخطوات فى طريقنا هى أن نستعلى على هذا المجتمع الجاهلى وقيمه وتصوراتنا قليلا أو كثيرا لنلتقى معه فى منتصف الطريق . كلا أننا واياه على مفترق الطريق . وحين نسايره خطوة واحدة فاننا نفقد المنهج كله ، ونفقد الطريق وسنلقى فى هذا عنتا ومشقة ، وستفرض علينا تضحيات باهظة ، ولكننا لسنا خبرين . اذا نحن شئنا أن نسلك طريق الجيل الاول الذى أقر الله به منهجه الالهى ونصره على منهج الجاهلية (١٩١) .

ومن هذه المرحلة الرابعة والاخيرة فى حياة الامام الشهيد نستخلص النتائج الآتية :

١ — تأثرت الحركات الاسلامية المعاصرة — مع الاسف — بهذه المرحلة الرابعة والاخيرة فى حياة سيد قطب والتى لاتمثل الا جانبا ضئيلا فى فكرة نظرا لانها تعبر عن نفس المواقف النفسية التى مر بها الاثنان من اضطهاد وسجن وتعذيب وبراءة وظلم . توحدت فى هذه المرحلة

---

(١٩١) المصدر السابق ص ٢٢ .

واسقطت من حسابها المراحل الادبية والاجتماعية والفلسفية فأعضاؤها ليسوا ادباء وليسوا ثوارا وليسوا فلاسفة . ليس منهم من يمثل حركة الادباء الشبان كما كان سيد قطب فى بداية حياته مع جيله من الادباء . وليس منهم من نزل فى الشوارع دفاعا عن الجياع والمحرومين والمعدات الخاوية كما كان ينادى الامام الشهيد فى المرحلة الاجتماعية ولبس منهم من طور خصائص التصور الاسلامى أو أكمل مقوماته التى لم تسعفه حياته لاكماله أو حقق مشروعه لنقد الغرب وأعادة كتابة التاريخ الاسلامى .

٢ — ان الحركات الاسلامية المعاصرة بعدما اصابها من اضطهاد وقهر نتيجة اخطاء فى التحليل السياسى نشأ فيها صراع على السلطة مع النظم القائمة . هذه الحركات هى التى أثرت فى الامام الشهيد بعد أن انضم اليها وهو فى خضم المرحلة الاجتماعية وهى التى فرضت علية تجاربها النفسية ، تجارب الاضطهاد والظلم والبراءة ، فخرج فكره الاخير يعبر عن فكر المضطهدين واعاد قراءته فكرة القديم من خلال سيكولوجية الاضطهاد ، فأسقط تجربته الحاضرة تجربة الاضطهاد على ماضية الحافل بالنضال الادبى والاجتماعى والفكرى وأستقطب كل شىء فيه حتى خرج « معالم فى الطريق » ليكشف عن صورة هذه الحركات فى نفسه وان لم يكن هو الذى اخرج هذه الصورة . بهذا المعنى لم يؤثر سيد قطب فى الحركات الاسلامية المعاصرة بل هى التى أثرت فيه . ويدل على ذلك ظهور هذه الفكرة واختفائها « فى ظلال القرآن » الذى يشمل الخمسينات كلها اذ تختفى الفكرة فى الاجزاء الاولى قبل أن يتحول فكره الى فكره المضطهدين ثم تعظم وتظهر الإشارة الى المودودى فى الاجزاء التالية تباعا ويظهر بصورة واضحة

ابتداء من الاجزاء ٨ — ١١ (المجلد الثالث) أثناء الاعتقال الاول كما يقتبس منه فقرات طويلة فى صلب تفسيره (جـ ٨ ، جـ ٩) •

٣ — ظهرت الحاكمية عند سيد قطب كاعلان تحررى للانسان فالحاكمية حركة انطلاق وتحرير وثورة وتغير ، حركة ابداعية شاملة من أجل حرية الاعتقاد وحرية الاختيار ولكن للاسف تحولت الحاكمية فى الحركات الاسلامية المعاصرة الى كبت وقهر وطغيان وتزمت وطاعة عمياء • كما أن التحرر عند سيد قطب يبدأ من الفرد وليس من الدولة فى حين أن الحركات الاسلامية المعاصرة بدأت من الدولة وتركت الافراد فى تخلفهم وتزمتهم وعفائهم •

٤ — لا يفرق هذا التحرير العام بين مسلم وذمى ، بل الحاكمية تحرير للانسان من حيث هو انسان بصرف النظر عن عقيدته وجنسه وقد تراجعت الحركات الاسلامية المعاصرة عن هذا التصور الشامل ووقعت فى الطائفية والحصار العقائدى وكأنها ليست مطالبة باعلان التحرير الشامل • وقد يشارك أهل الذمة فى العالم الاسلامى فى التصور الاسلامى للانسان والحياة والكون نظرا لمعايشتهم حضارة واحدة •

٥ — الجاهلية عند سيد قطب تشير أساسا الى النظم الغربية الاقتصادية الرأسمالية والشيوعية أو السياسية مثل القومية والوطنية أو الاجتماعية مثل العلمانية أو الفلسفية مثل الوضعية والمثالية والتجريدية ولا تشير الى مجتمعاتنا الحالية الا بقدر تبعيتها لهذه النظم الغربية وتقليدها لها — أما الحركات الاسلامية المعاصرة فانها جعلت الجاهلية مجتمعاتنا الاسلامية ونظمنا القائمة وحولت المعركة من الاسلام فى مواجهة الغرب الى الاسلام فى مواجهة المسلمين • وكان

نقد الغرب عند سيد قطب قائما على علم بالثقافة الغربية وانفتاح عليها وتقدير لجهدها ولظروفها فى حين انعزلت الحركات الاسلامية المعاصرة عن ثقافة الغرب وعادتها عن جهل بها وبظروفها • واذا كان سيد قطب قد وصف المجتمعات الشرقية بأنها ملحدة لان تصورها للانسان وللكون وللحياة لاينبثق عن التصور الاسلامى فان الحركات الاسلامية المعاصرة جعلت هذا الوصف سلاحا فتاكا لانظمة الغـير واتهاما يبيح دمـاء أصحابه •

٦ — اذا كان سيد قطب قد وصف علاقة المجتمع الاسـلامى بالمجتمع الجاهلى على أنها علاقة تضاد وتعارض فان المسلمين لاينعزلون عن المجتمعات الجاهلية الا شعوريا ولكنهم يظلون فيها الى أن تحين الفرصة لتغييرها لايسايرونها وفى نفس الوقت لايقاطعونها أو ينزوون وينعزلون عنها بل « المخالطة مع التمييز » والاخذ والعطاء مع الترفع ، والصدع بالحق فى مودة ، والاستعلاء بالايمان فى تواضع • ولـكن الحركات الاسلامية المعاصرة خاصة جماعة التكفير والهجرة حولت هذه العزلة الشعورية الى عزلة جسدية اجتماعية ومنعت كل صور التعامل مع المجتمع الجاهلى أمعانا فى الانفصال • ان العزلة الشعورية التى يصفها سيد قطب شرط الاستعلاء وهى عزلة صحيحة خلاقة تمنع من الذوبان والتسطيح والتوضع ، تحولت الى عزلة مرضية وانعزال عن المجتمع وكراهية وعداء للاخرين • تحول الاستعلاء الى غرور ، والتمايز الى انفصـال •

٧ — ظهرت النزعة العملية واضحة عند سيد قطب فالاسـلام حركة ونشاط ، وجهد ، والمنهج الاسلامى منهج حركى يهدف الى التغيير والتطوير • ولكن الحركات الاسلامية المعاصرة حولت هـذه النزعة العملية الى خروج فعلى على النظم القائمة والى نشـاط دائب وحركة مستمرة تظهر وسط السكون والخراب • فالحركة الاسلامية حياة وتطور ونماء وحركة الجماعة الاسلامية موت وسكون وذبول •

خاتمـــــة :

ويمكن تلخيص النتائج العامة للبحث كالآتى :

١ - كان سيد قطب مرآة لتطور الحياة الادبية والاجتماعيـة والثقافية والسياسية فى مصر . وعندما كانت الحياة فى مصر طبيعية سليمة صحية حدث التطور لدى مفكرينا أيضا على نحو طبيعى سليم صحى . ولكن ما أن بدأت الازمة فى حياتنا ، أزمة حصـار الفكـر والمفكرين ، والقضاء على حرية الفكر ، وتخوين كـل الاتجاهات باستثناء اتجـاه السلطة القائمة واضطهـاد كل المعارضين نشأ فـكر المضطهدين وظهر سلوك الجماعات السرية بين الحين والآخر فى غياب حرية التعبير والنشاط العلنى . وقد وقع ظلم صارخ على نشـاط الحركات الاسلامية المعاصرة فى كل أرجاء العالم الاسلامى وليس فى مصر وحدها ضد جماعة الاخوان المسلمين فى مصـر ، والجمـاعة الاسلامية فى باكستان ... الخ . وطالما لم يرفع هذا الظلم ولم يرد الاعتبار لها سيظل فكر المضطهدين سائدا وسلوكهم مهددا ونشاطهم ساريا . ولما كانت جماعة الاخوان المسلمين هى التنظيم الام للحركات الاسلامية المعاصرة فان ماوقع عليها من اضطهاد منذ ١٩٥٤ ابان الثورة المصرية هو المنبع الرئيسى لهذه الحركات . ولن ينضب هـذا النبع مالم يرفع الحظر عن النشـاط الاسـلامى العلنى للحركـات الاسلامية وتنظيمها الام خاصة وأنهـا تتمتع بشعبية من رصيدهـا النضالى الطويل منذ نشأة الجماعة فى ١٩٢٧ فى الاسماعيلية فى مواجهة جنود الاحتلال حتى ١٩٥٤ أى أكثر من ربع قرن . ثم تحولت منذ ذلك الوقت الى نشاط سرى أو شبه علنى على مدى ربـع قرن آخر . أى أنها اختلطت بتاريخ البلاد لحوالى نصف قرن وأصبحت جـزءا من

تراثها الوطنى . ولا يجدى غض البصر عن نشاط الجماعة أو تــترك الدعوة والتسامح مع اعضائها والسماح بنشاطها فى الجامعات وذلك لان سيف القانون مازال مسلطا عليها يستعمل اذا مازاد النشاط عن حجمه فى نظر الدولة . فهو نشاط تحت سلاح الارهاب وليس نشاطا شرعيا قانونيا . وهو نشاط فى رأى البعض كجزء من صفقة لتحقيق مصـلحة مشتركة بين الحركات الاسلامية والنظام تقوم بتطهير الجامعات من الحركات اليسارية فى مقابل تأييد الدولة لهذه الجامعات على أن يقتصر نشاطها فى الجامعات . فاذا ما زاد النشاط عن الانفـاق وخرج عن الموضوعات الدينية المحددة له الى الموضوعات السياسية هـددت الدولة . وكل طرف متربص بالآخر ، يظن أنه يستعمل الاخر لحسابه الخاص . فالدولة تستعملهم ضد خصومها السياسيين ، وفى نفس الوقت تراقب نشاطهم وتحجمه وتوجهه لتحقيق أغراضها الخاصة والجماعات الاسلامية تظن أنها تستعمل الدولة لحسابها الخاص نظرا لانها تقضى على الحاد وكفر الجماعات اليسارية من الجامعات والتى هى خصـم الطرفين . وفى نفس الوقت تستعد وتكسب أنصارا ، ويظهر نشـاطها وتصبح قوة جذب للشباب أمام ضعف الدولة . وتستعمل الجماعات الاسلامية الدولة مرحليا حتى يقوى نفوذها فتنقض عليها لانها البديل الوحيد فى ظنها ولكنها لاتود الاسراع بذلك كما أسرع التنظيم الام اعنى الاخــوان المسلمون بمحاولة الانقضاض على الثـورة فى ١٩٥٤، واستعجال الحكم الاسلامى . وحتى يضيع جـو الضغينة التاريخى والرغبة فى الاخذ بالثأر مما لحق بالتنظيم الام من ظلم واضطهاد فانه لايكفى فقط السماح بالنشاط الاسلامى العلنى بل يجب رفـع الغبن القانونى عن الجماعة وذلك بالغاء قرار الحل ومصادرة الممتلكات وارجاع المركز العام لها وتعويض أسر الشهداء والمعتقلين والمعذبين ، والاعتراف

بدور الجماعة الوطنى والتربوى على مدى نصف قرن ، والا فسيظل هذا الجو النفسى « معمل تفريخ » لإعضاء جدد أكثر جذرية من الاجيال السابقة .

٢ — أن غياب حرية التعبير لجميع الاتجاهات الفكرية والسياسية المستقلة عن نظام الدولة وعما تسمح به ومالا تسمح به جعل نشاط الحركات الاسلامية أكثر انتشارا لانها أكثر قوة وأصالة وتعبيرا من تراث الامة وأقرب اتصالا بجماهير الشعب ، وأن عدم وجود أى نشاط فكرى أو سياسى هو الذى يسمح بسرعة انتشار الحركات الاسلامية . لذلك فان اعطاء الجميع حق التعبير وحرية الممارسة يجعل الحياة الثقافية والسياسية أكثر غنى وتنوعا ، فلا تبقى الحركات الاسلامية الفارس الوحيد فى الميدان . وأن هذا التعدد فى الاتجاهات سيسمح بالحوار الوطنى بينها جميعا ، وبأعمال العقل ، وبالاختيار عن روية وتدبر ، ويقل الانفعال ، وتخف حدة التشنج . وهو الشرط الاساسى لتحقيق الوحدة الوطنية التى تنصهر فيها الامة من خلال وحدة فكرها أولا وجعل البرهان والدليل هو محك التعامل ومقياس الاختيار .

٣ — أن تدخل الدولة فى الحوار الوطنى بين الاتجاهات المختلفة ونصرة فريق على فريق أو تبنى اتجاه وتخوين كل الاتجاهات الاخرى ومطالبة الجميع بتبرير مااختارته وتبنيه يقضى على حرية الفكر بالقضاء على المساواة بين الاتجاهات فى القوة وجعل البرهان والدليل والحجة وحدها هى وسيلة التعامل وليس الاعتقال والادانة والاتهام . ويكون مقياس نجاح كل اتجاه هو مدى اقناعه الجماهير بشرعيته ومدى انجازاته على مستوى الواقع فى المعارك الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . فلم تتحول الحركات الاسلامية الى معارضة للنظام

الا بعد أن انحسرت عن المعارك الاجتماعية بالاعتقـال واخراجها عن الممارسة الوطنية كما حدث لسيد قطب وهو فى خضم المعركة الاجتماعية فى أوائل الخمسينات واخراجه منها بالاعتقال الاول فى ١٩٥٤ وعلى هذا النحو يضيع فكر المضطهدين ومايتسم به من سرية وباطنية وعزله وعدوانية ويتحول الى فكر شرعى علنى متجه نحو الخارج مفتوحـا على الآخرين معاونا كافة الاتجاهات المعارضة .

٤ — تطوير الفكر الدينى المعاصر الذى بدأ بداية طيبة عنـد الافغانى والكواكبى بمناهضة الاستعمار والاقطاع والتسلط والظلم والطغيان وتحويل الاسلام الى حركـة ثورية للمسلمين تحافظ على أصالتهم ووحدتهم . ولكن للاسف خبا هذا الفكر الى النصف عنـد محمد عبده ثم خبا النصف الى النصف عند رشيد رضا . ثم حـاول أن ينهض من جديد على يد حسن البنا وهو تلميذ رشيد رضـا ثـم سيد قطب لاحقا بالافغانى من جديد.ولما كان من عيوب الفكر الاصلاحى هو شجاعته على الواقع وتقليديته فى الفكر فان تطوير الفكر الاصلاحى النظرى ودفعه خطوات أكثر نحو التنوير الدينى ومايمثله من استقلال للعقل وحرية الارادة ، والاخذ بأسباب القوة والعلم والتقدم ونظـام الشورى يسمح بتطور الفكر الدينى من داخله وتتم حمايته من التعصب والتشنج والتصلب والعدوانية والعزالة . وما أسهل أن يتم ذلك . فمن الملاحـظ مثـلا فى فكـر الامـام الشـهيد أنـه يغـلب عليـه التكـرار ، تكـرار الحـدس الواحـد وترديـد نفس الافكار . كما يلجـأ الى الخطـابة دون أحكـام نظـرى لبنـاء الافكـار وهـو مايحدث أيضا لدى الحركات الاسلامية المعاصرة . كمـا يغلب على الحاكمية التصور الغيبى لها . فالحاكمية والخلافـة والالوهيـة

عقيدة « من خارج النطاق الارضى ومن خارج المحيط البشرى » (١٩٢) •• حقيقة جاءت الى البشرية من مصدر ربانى من وراء الواقع البشرى ومن وراء الوجود المادى مما يوقع فى الثيوقراطية والتسلطية لاغفال مصالح الناس ووضعية الشريعة • وما أسهل العودة الى الواقع كطرف مقابل للالوهية والمنهج الاسلامى ذاته منهج واقعى • وماأسهل أن يكون طريق معرفة الحاكمية ليس فقط هو الرسول بل أيضا العقـل والمصلحة • ومادامت ليس هناك قوانين فى كل شىء فلابد من الاستنباط والاجتهاد وبالتالى لابد من معرفة كيفية عمل العقل البشرى فى الواقع البشرى •

أنه يصعب نقد مصلحة البشر ودوافعهم كمصدر مستقل للتشريع لان مصلحة البشر متضمنة فى شرع الله • ولكن المهم معرفتها بمناهج واقعية واحصائية سماها الاصوليون القدماء تحقيق المناط وتخريج المناط وتنقيح المناط أو السبر والتقسيم ••• الى آخر ماقلوه فى مناهج استنباط العلل عامة والعلة المؤثرة أو المناسبة أو الملائمة خاصة • صحيح ان الله يعلم وأن البشر لاتعلم ولكن العلم الالهى ذاته لايعرف الا من خلال العلم الانسانى • فما التفكير الربانى ان هو الاعرض له من وجهة نظر الانسان ان الحاكمية ذاتها ان هى الا مجرد مبدأ أو صـورة فى حاجة الى مضمون واقعى فى زمان ومكان معينين والمجتمع محـدد فى التاريخ • فالمهم معرفة مدلولها بالنسبة للنظام الاقطاعى والرأسمالى أو التسلط فى واقع المسلمين الحاليين فى مصر والحجـاز أو ايران • لايكفى أن تكون الحاكمية مجرد شعار يكون الجانب السلبى فيه أكثر

---

(١٩٢) المصدر السابق ص ١٢٨ — ١٢٩ ص ١٣٢ •

من الجانب الايجابى أو يكون الرفض فيه أكثر من القبول بل تكون مضمونا وبرنامجا للعمل الوطنى تبدأ بتطوير الواقع وبالتعامل مع ماهو موجود أى أعادة تفسير الالوهية والربانية بالواقعية والايجابيه وكلها من خصائص التصور الاسلامى • فاذا حدث تطوير سيد قطب وروافد الفكر الدينى المعاصر مثل حسن البنا والمودودى من الداخل امكن الاقلال من هذا الجانب الغيبى الالهى الذى يعتمد على الصفوة وتغليب الجانب الواقعى الانسانى الذى يعتمد على الجماهير وقدراتهم • وبالتالى يمكن أيضا معرفة مضمون النظم الجاهلية والفرق بينها وبين النظام الاسلامى وهل هما مجتمعان متعارضان أم هناك درجات بينهما ، ويكون حنيئذ المطلوب هو زيادة النظام الاسلامى والاقلال من النظام الجاهلى فيحدث التقدم فى المجتمعات الاسلامية دون هدمها أولا من أجل أعادة بنائها ثانيا : لايمكن اذن ايقاف نشاط الحركات الاسلامية المعاصرة التى تستعمل للعنف الا بتطوير فكرها من منابعه الاولى •

٦ ـــ اظهار اليسار الاسلامى وتقوية الاسلام الثورى حتى يظهر البديل الاسلامى لتفسير الجماعات الاسلامية وحتى يجد الشباب بلا الحسنيين الاسلام والتقدم ، الايمان والتنمية ، الشعائر والتغير الاجتماعى • العقائد والعدالة الاجتماعية ، الدين والثورة ، ولكن للاسف هذا التيار ، وهو الوحيد القادر على احتواء الجماعات اليسارية والجماعات الدينية ، فى وقت واحد ، هو فى نظر الدولة ماركسيه مقنعة متخفية تحت ستار الدين ، وفى نظر الجماعات الاسلامية ذاتها ماركسية صريحة وفى نظر الجماعات الماركسية مشروع مستحيل أو على أكثر

تقدير نقص فى الشجاعة والممارسة الفعلية هى التى ستحيله الى ماركسية فعليـــة .

٧ــ الحركات الاسلامية المعاصرة هى فى النهاية مسؤوليتنا نحن كباحثين ومثقفين ومواطنين . فهى حتمية ماحدث فى جيلنا من مآسى وأحزان . وقد تكون أيضا مسئولية الدولة أقـــل من مسئووليتنا نحن باتباعها أساليب العنف والقمع ضد حركات هى المسئولة عن نشأتها . والعنف لايولد الا العنف ، دائرة مغلقة لانهائية لايمكن ايقافها وكسرها الا من خلال مسئولية الباحث وقيام دولة تقوم على البحث والعلم . والدولة أكثر قدرة على التحليل والفهم من الجماعات الاســلامية . والاحتواء الطبيعى أكثر قدرة على التعامل مع الخصوم من الاصطدام والمناطحة .

المراجع : مؤلفات سيد قطب (مرتبة ترتيبا زمانيا طبقا للطبعة الاولى)•

١ ـ الشاطىء والمجهول (بلا تاريخ أو ناشر) •

٢ ـ مهمة الشاعر فى الحياة (دار الشروق)

٣ ـ المدينة المسحورة (دار الشروق)

٤ ـ طفل من القرية (لجنة النشر للجامعيين) •

٥ ـ اشـــواك (دار سعد مصر)

٦ ـ التصوير الفنى فى القرآن (دار الشروق)

٧ ـ مشاهد القيامة فى القرآن (دار الشروق)

٨ ـ النقد الادبى ، أصوله ومنهاجه (دار الشروق)

٩ ـ العدالة الاجتماعية فى الاسلام (دار الشروق)

١٠ ـ معركة الاسلام والرأسمالية (دار الشروق)

١١ ـ السلام العالمى والاسلام (دار الشروق)

١٢ ـ فى التاريخ ، فكرة ومنهاج (دار الشروق)

١٣ ـ دراسات الاسلامية (دار الشروق)

١٤ ـ هـذا الدين (دار الشروق)

١٥ ـ المستقبل لهذا الدين (دار الشروق)

١٦ ـ نحو مجتمع اسلامى (دار الشروق)

١٧ ـ خصائص التصور الاسلامى ومقوماته (دار الشروق)

١٨ ـ فى ظلال القرآن (ستة اجزاء) (دار الشروق)

١٩ ـ تفسير آيات الربا (دار الشروق)

٢٠ — تفسير سورى الشورى (دار الشروق)
٢١ — الاسلام ومشكلات الحضارة (دار الشروق)
٢٢ — معالم فى الطريق (دار الشروق)

وللاسف لم نستطع الاطـلاع على المؤلفـات الآتية أما لانهـا نفذت أو لانها غير موجودة داخل مصر أو لانها لم تصدر .

١ — نقد كتاب مستقبل الثقافة فى مصر (نفـد)
٢ — الاطياف الاربعة (بالاشتراك مع اخوته الثلاثة) (نفـد)
٣ — اخراج الروح (نفـد)
٤ — فقـه الدعوة (نفـد)
٥ — كتب وشخصيات (١٩٣) (نفـد)
٦ — معركتنا مع اليهود (١٩٤) (خارج مصر)
٧ — اسلام أو لااسلام (خارج مصر)
٨ — حلم الفجر (ديوان شعر) (لم يصدر)
٩ — لحظات مع الخالدين (لم يصدر)
١٠ — وطن ينهار (لم يصدر)
١١ — امريكا التى رأيت (لم يصدر)

وقد أعلن عن قرب صدورها فى الطبعة الثانية للعدالة الاجتماعية فى الإســلام .

---

(١٩٣) طبع فيما بعـد « كتب وشخصيات » ايضا فى دار الشروق ١٤٠١ هـ — ١٩٨١ وهو يمثل المرحلة الادبية .

(١٩٤) وجدت نسخة فى المغرب مطبوعة فى دار الشروق ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م .

النهضة الاسلامية المعاصرة

(خطة بحث)

أولا : الجذور التاريخية للنهضة الاسلامية •

١ — تمتد النهضة الاسلامية الحديثة تاريخيا الى الاصلاح الدينى فى القرن الماضى بل ويمتد عند البعض الي القرن الثامن الهجرى الى ابن تيمية وتلميذه ابن القيم حتى محمد بن عبد الوهاب فى القرن الحادى عشر • وتصل الى مدرسة الافغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب والكواكبى وعبد القادر الجزائرى وعبد الحميد بنى باديس والبشير الابراهيمى • وقد تحول البعض منها الى حركات اجتماعية وسياسية مثل المهدية والسنوسية ورابطة علماء المسلمين بالجزائر • نجح البعض فى تأسيس دول اسلامية مستقلة منذ محمد بن عبد الوهاب بينما لم يقدر البعض الآخر ذلك بالرغم من أثره البالغ على الحركات الوطنية التى انتسبت اليها مثل المهدية • وانقطع فريق ثالث عن التواصل وظل رائدا فى مرحلة الرواد مثل الكواكبى •

كتبت هذه الخطة عام ١٩٨٠ بناء على د. ابراهيم سعد الدين من منتدى العالم الثالث من اجل اجراء بحث حول الموضوع بالتعاون مع جامعة الدول العربية وفى نفس الوقت الذى كان يعد فيه كتابا حول « الحركة الاسلامية » كجزء من مشروع « المستقبلات العربية البديلة » التابع لجامعة لجامعة الامم المتحدة . وقد عقدت بالفعل ندوة لذلك فى تونس عام ١٩٨٢ • وهذه صياغة ثانية من المسودة الاولى فى خريف ١٩٨٧ بعد أن اخذ احد كبار الصحفيين النسخة الوحيدة المصورة من المشروع •

٢ — ومنذ هزيمة العرب فى يونيو ١٩٦٧ بدأت مظاهر العوده الى الاسلام تأخذ شكلا فعليا فى حياة الناس وممارستهم اليومية • كانت الدعوة قائمة باستمرار على مختلف العصور وفى أعماق الشعور الاسلامى ولكنها لم تظهر الى السطح الا بعد الهزيمة كمؤشر فعلى على صحة هذه الدعوة وعلى توقيتها • وقد ظهر ذلك على جميع المستويات : القيادة السياسية والمؤسسات الدينية ، والثقافية الشعبية• فى صورتين :

(أ) أن البعد عن الله هو السبب الاول فى الهزيمة •

(ب) أن العودة الى الايمان هو الطريق الى النصر •

٣ — وقد استرعت هذه الحركة انتباه المسلمين وغير المسلمين منذ انتصار الثورة الاسلامية فى ايران ١٣٩٩ / ١٩٧٩ ، وتحدث العالم الغربى عن صحوة الاسلام ، يقظة الاسلام ، الاحياء الاسلامى ، الاصولية الاسلامية • وصاحب ذلك فى شتى أرجاء العالم الاسلامى وخاصة فى مصر ظهور الجماعات الاسلامية كظاهرة فى حرم الجامعات • واندلعت الحرب العراقية الايرانية ، وظهرت الاضطرابات فى الحرم المكى •••• الخ كل ذلك ليحول الحركة الاسلامية من مجرد اصلاح دينى الى تغيير شامل فى نظم الحكم وثورة على الاوضاع القائمة •

ثانيا : المظاهر المختلفة للنهضة الاسلامية •

وتبدو النهضة الاسلامية حاليا وعند البعض فى عده مؤشرات مرئية حسية قد تكون كذلك بالفعل وقد لاتكون مثل :

١ — الجماعات الاسلامية ونشاطها فى كل انحاء العالم الاسلامى

وعلى اختلاف مسمياتها ، الجماعة الاســلامية ، الحركة الاسلامية ، النهضة الاسلامية ، الدعوة الاسلامية ، الاصلاح الاسلامى ... الخ • ونظرا لقدرتها على التنظيم وفى مواجهة تنظيمات سياسية بيروقراطية حكومية فانها تبدو نشطة وحاضرة فى الشارع وبين الجماهير وكأنهـا تعمل بين أهليها وفى وطنها •

٢ — الشعائرية مثل الزى وخاصة الحجاب والنقاب ، وفصـل الطلبة عن الطالبات ، وعدم السلام بالايدى بين الرجـال والنسـاء ، .... الخ •

٣ — كثرة بنـاء المسـاجد ، والآذان بمكبرات الصوت ، واقامة الصلوات داخل الكليات ، وتخصيص أماكن للصلاة للطلبة والطالبات ، وايقاف الاعمال الجارية أثناء أداء الفرائض ، وتحول المسـاجد الى دور للمناسبات وعيادات طبية ، ومدارس للتعليم ، وفصول للتقوية •

٤ — نشر كتب التراث ، ورواح الكتب الدينية ، وكثرة المعارض الاسلامية ، ومسابقات حفظ القرآن ، وتبـادل المصاحف كهـدايا ، وتعلق الآيات القرآنية وكتابتها على قطع البلاستيك وتعليقهـا فى العربات •

٥ — انتشار المجلات الدينية ، وتأسيس الجرائد الدينية الملحقة بالجرائد الاسبوعية ، وتخصيص صفحات للفكر الدينى •

٦ — كثرة البرامج الدينية فى أجهزة الاعلام مثل : العلم والايمان، المصحف المفسر ، هذى النور ، والاعلان عن الصلوات أثناء البرامج الترفهية ، والتواشيح الدينية والبداية بالقرآن والختام به •

٧ — المناداة بتطبيق الشريعة الاسلامية ، وتكوين اللجان فى مجلس الشعب لهذا الغرض ، والمعركة حول قانون الاحوال الشخصية ، والصراع بين الدينية والعلمانية ... الخ .

٨ — ظهور الطائفية واشتدادها الى درجة الحرب الاهلية فى لبنان ، والتوتر الطائفى فى صعيد مصر ، وازدواجيه الولاء الدينى والوطنى فى كثير من أنحاء الوطن العربى فى سوريا والعراق والخليج العـربى .

٩ — الفزل بين القومية والاسلام ، ومحاولة أنصار التيار القومى أخذ الاسلام فى الاعتبار كثقافة وحضارة وهوية قومية . فالاسلام عروبى أنزل للعرب وبلغة العرب ولتوحيد العرب .

١٠ — كثرة المؤتمرات والإبحاث حول الهوية والتعريب ، الاصالة والمعاصرة ، والتراث والتجديد حيث يبـرز الدين كعنصر رئيسى فى الاشكال .

١١ — ظهور التزمت الدينى الفكرى فى أعادة تحريم « الفتوحات المكية » لابن عربى واعادة تكفير طه حسين « فى الشعر الجاهلى » ، ومصادرة كل كتاب به فكر دينى مستنير ، وتجريم كل مجلة بها نقـد للاوضاع القائمة .

١٢ — ظهور البنوك الاسلامية والإنفتاح الإقتصادى على الغرب ، وشركات توظيف الاموال ، فالتزمت الفكرى يقابله انفتاح إقتصادى ، وكأن الاول غطاء الثانى وتشريع له .

ثالثا : العوامل التى ساعدت على ظهور النهضة الاسلامية •

وقد ساعدت على تكوين النهضة الاسلامية عدة عوامل أهمها :

١ — فشل الاتجاهات العلمانية فى التحديث مما جعل الجماهير تعود الى ذاتها بعد أن سئمت وضع نفسها كتجارب لمذاهب الآخرين • وأشهرها ثلاثة :

(أ) الليبرالية العلمانية الغربية والتى ارتبطت فى أحـــدى لحظاتها بالحركة الوطنية فقد انتهت الى التغريب والقضاء على الهويه والولاء للآخر •

(ب) الاشتراكية العربية أو القومية العربية والتى ســادت ابان الثورات العربية الاخيرة • وبالرغم من انجازاتها الضخمة من أجــل التحرير الوطنى والاستقلال الاقتصادى الا أنها جاءت كبديل عن الحركة الاسلامية ، وقامت باستبعاد هذا المنافس الشرعى الخطير من الحياة السياسية ، وظلت على الهــامش أو فى الســجون فى مصر وسوريا والعراق •

(جـ) الماركسية فى أفغانستان واليمن الديموقراطية أو فى تحالف مع حزب البعث فى سوريا والعراق وحصارها من جماهير الشعب ومن ثقافته الوطنية •

٢ — التحدى للآخر وهو الغرب ضد محاولاته لتشويه الحضارة الاسلامية بعد أن استعمر العالم الاسلامى ثم انحسر عنه • ويبعث على هذا التحدى صورة الاسلام فى الاستشراق وفى علوم الانتروبولوجيا الثقافية •

٣ — قدرات الشعوب على أخذ مصائرها بأيديها بدليل ثوراتها الاخيرة ونجاحها فى التحرر من الاستعمار ثم اندلاع الثورة الاسلامية الكبرى فى ايران ، ويقظة الجمهوريات الاسلامية فى أواسط آسيا ، وانتشار الحركات والاحزاب الاسلامية النشطة فى ربوع العالم الاسلامى .

٤ — المحافظة التقليدية كنتاج تاريخى مستمر منذ القرن الخامس حتى الآن وعلى مدى الف عام حيث أزدوجت الاشعرية بالتصوف ، ايديولوجية السلطة وايديولوجية الطاعة ، مما يجعل الدين الوعاء الطبيعى للحركات الفكرية والسياسية .

رابعا : **خصوصيات الحركات الاسلامية** .

بالرغم من وجود تيار عام يجمع بين كل حركات النهضة الاسلامية المعاصرة الا أن كل قطر اسلامى له خصوصيته التى تجعله متميزا عن القطر الآخر . ويمكن التميز بين أربعة مناطق رئيسية :

مصر ، والسودان ، والصومال ، وتتميز هذه المنطقة بالآتى :

(أ) تراث لبيرالى طويل واتصال بالغرب على مدى عدة أجيال .

(ب) ظهور حركات اسلامية قوية ونشطة مثل الاخوان المسلمون .

(ج) الناصرية فيها قوية خاصة فى مصر ، حصيلة الثورة الحديثة .

(د) رفض العنف ، والاتجاه نحو التغير السلمى ، وفشل محاولات التغيير بالعنف .

(هـ) نشاط الحركة الشيوعية خاصة فى السودان ، والتحام الشيوعيين بالحركات الوطنية .

(و) انتشار الطرق الصوفية بين عامة الناس كعنصر استقطاب رئيسى .

٢ — الشام (سوريا ، لبنان ، الاردن ، فلسطين) والعراق . تتميز هذه المنطقة الشمالية من شبة الجزيرة العربية بالآتى :

(أ) ظهور القومية العربية كمنافس للاسلام مما يسبب أحيانا لدى السكان ولاء امزدوجا أو محاولة للاختيار أو التوفيق .

(ب) اشتداد العلمانية نظرا لارتباط المنطقة بالغرب الحديث منذ مدة طويلة .

(جـ) وجود كثير من المسيحيين خاصة فى لبنان مما يجعل الولاء للعروبة بديلا مطروحا باستمرار عن الهوية الاسلامية .

(د) خطورة الطائفية خاصة فى لبنان وسوريا والعراق مما يؤدى احيانا الى الحرب الاهلية .

٣ — المغرب العربى (ليبيا ، تونس ، الجزائر ، المغرب ، موريتانيا) ويمتاز بالآتى :

(أ) اتحاد الاسلام بالوطنية كما هو الحال فى تونس والجزائر والمغرب ، وغياب القومية كعنصر متوسط بين الاسلام والوطنية .

(ب) تحول الاسلام الى أسلوب حياة ، ونمط حضارة ، ثقافة وفن ، كما هو واضح فى العمارة العربية والموسيقى الاندلسية .

(جـ) الارتباط بالمشرق عند جماهير الشعب بالرغم من ارتباط بعض المثقفين بالغرب مما يسبب خلفا بين الجماهير والقادة .

(د) ظهور بعض النعرات العرقية بين البربر خاصة فى الجزائر والمغرب .

(هـ) وجود الدولة القوية على مدى التاريخ خاصة فى المغرب .

(و) ارتباط الاسلام بالطبيعة والحياة خاصة فى المغـــرب أكثر من ارتباطه بالحلال والحرام كما هو الحال فى المشرق .

(ز) عشق الثقافة الشرقية واللهجات الشرقية خاصة المصرية ، والتتلمذ على أيـــدى أســـاتذة المشرق . فلا توجد حركـــة مشرقيـــه الا ولها ارتداداتها فى المغرب .

٤ ـ شبه الجزيرة العربية . وتمتاز بالآتى :

(أ) القبلية العشائرية ، وعدم وجود علاقات اجتماعية الا من خلال القبيلة .

(ب) اجتماع الثروة النفطية مع المحافظة الدينية جعل الاسلام يستعمل كأكبر مشرع وحارس للاستيلاء على الثروة .

(جـ) مخاطر الثورة العربية أولا ثم الثورة الاسلامية ثانيا جعل النظم السياسية تمثل أداة قهر دفاعا عن نفسها .

(د) مخاطر الوهابية الجديدة فى الداخل التى تـــرى البـــون الشاسع بين آراء محمد بن عبد الوهاب وما يجرى حاليا فى الحجاز .

(هـ) وجود بعض أنظمة أكثر ليبرالية وانفتاحا على أطراف شبه الجزيرة فى الشمال (الكويت) والشرق (البحرين وعمان) والجنوب (اليمن) مما يجعل الوسط التقليدى محاطا بأطراف أكثـــر التصاقا بالحداثة .

(و) وجود الحرم الشريف فى مكة وموطن ميلاد الرسول وذكريات الصحابة يجعـــل الحجاز قبلـــة للمسلمين جميعا ، ويعطيها نوعـــا من الزعامة الدينية .

(ز) وجودها وسط الصحراء جعلها أقل تعرضا للحداثة وأكثر ارتباطا بالتقليد •

(ح) نظرا للثروة النفطية والحكم القبلى ، تركزت الثروات فى أيدى العائلة الحاكمة والتى يضرب بها المثل فى الغنى والترف والاسراف فى نفس الوقت الذى يموت فيه الالاف من المسلمين جوعا وقحطا فى تشاد وغيرها من المناطق الصحراوية •

هذه الخصوصيات تؤخذ فى الاعتبار عند وصف الحركات الاسلامية المعاصرة كتيار عام حتى يظهر الجدل بين الخاص والعام •

هذا مجرد تخطيط عام فى حاجة الى توثيق ، واطار شامل يحتاج الى ملأ الفراغات بالبحث العلمى الرصين والمسح الاجتماعى الدقيق •

الحركات الدينية المتطرفة

(ورقة موقف)

(١) هل فكر الجماعات الدينية « المتطرفة » هو الفكر الاسلامى الصحيح ؟

يصعب الاجابة على هذا السؤال لسببين : الاول أنــه يصعب التعرف على فكر الجماعات الدينية تعرفا علميا دقيقا نظرا لانهــا مازالت فى أيدى أجهزة الامن ، تعتبرها خطرا على الامن العــام ، فى أحراز القضايا ، وفى ملفات السجون . والقدر الضئيل المعــروف عنه لم يطبع طبعات علمية محققه حتى يمكن التحقق من مصادره ثم يقرأ من كافه المتخصصين للحصول على وجهه نظر متكاملة عنــه ، والانطباعات العامة لدى بعض الباحثين عنه لاتكفى لتكوين رأى علمى دقيق . والثانى أنه لايوجد شيء يسمى الفكر الاسلامى « الصحيح » لان الفكر الاسلامى نتاج التاريخ ، وحصيلة عدد من القوى السياسية والاجتماعية المتصارعة كما هو واضح فى الفرق الاسلامية ، وكلها شرعية ، تنتسب الى الاسلام ، وتعتمد على الكتاب والسنة كمصــدر أساسى لها ، وتعلم قواعد التفسير ، وتخلص النيــة . والنصــوص من الاتساع والتنوع الى حد أنها تسمح بكل هذه الاتجاهات والعقائد والنظريات أو كما يقول الشاعر « وكلهم الى رسول الله منتسب » . وعادة مايكون الفكر « الصحيح » هو فكر السلطة فى مقابل الفــكر

اجابة على اسئلة فى الندوة الرابعة لبحث الحركات الدينية المتطرفة بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية يوم الاربعاء ١٢/٥/١٩٨٢ .

« الضال » وهو فكر المعارضة • أو ينقلب الحال فيكون فكر المعارضة هو الفكر « الصحيح » وفكر السلطة هو الفكر « الضال » وذلك لتقويض السلطة والاحلال محلها فهو اذن سلاح ذو حدين • وغالبا مايصبح الفكر « الضال » بعد أن يصل الى السلطة هو الفكر « الصحيح » ويصبح الفكر « الصحيح » للسلطة بعد أن ينهار النظام هو الفكر الضال • فكلمة الصحيح اذن تقوية للذات واتهام الغير ، دفاع عن النفس ودرأ لاخطار الغير ، ويكون المحك فى النهايه ليس الى « الصحة النظرية » أو « الخطأ النظرى » بل لمن بيده الامر ولمن تكون السلطة ، ولمن يكون الحكم • وتاريخ البلاد الناميه وانقلاباتها المتكررة شاهد على ذلك •

ويؤيد ذلك مايعرف فى العلوم الانسانية باسم « نظرية التفسير» سواء تفسير النصوص أو تفسير الظواهر ، وهى جزء من نظرية الفهم أو المعرفة بوجه عام • فلا يوجد معنى موضوعى للنص مستقل عن القارىء ، أو الفاهم ، يدركه الجميع فى حياد تام وبموضوعية كاملة • فهذا ادعاء وغرور انسانى ، وعود الى اعتبار فهمى الخاص فهو « الموضوعى » وفهم الآخرين هو « الذاتى » وبالتالى يكون فهمى هو « الصحيح » وفهمه هو « الباطل » • فما دام النص مكتوب فى لغة طابعها الاشتباه على فرض صحة النقل والرواية وطالما أن الانسان محدود بظروفه النفسية والاجتماعية والتاريخية فان تأويل النص يكون ضروريا للفهم • والتأويل ذاته انما يعكس ظروف الانسان ووضعه الاجتماعى عن طريق اسقاطها على النص فيظن الانسان أنه فهم النص « الموضوعى » فى حين أنه قرأ نفسه ، وعبر عن احتياجاته وفهم الفهم « الصحيح » وعندما يتطابق الموقفان الحيان ، الموقف الاول للنص معناه وليس النص هو الذى يعطى معناه للانسان • ويحدث

الفهم « الصـحيح » عندما يتطابق الموقفان الحيان ، الموقف الاول الذى خرج منه النص ، والموقف الثانى الذى يوجد فيه الانسان . هذا التطابق بين الماضى والحاضر هو الذى يجعل الفهم ممكنا . وبالتالى فان فهم النص هو مجرد قراءة الحاضر فى الماضى أو التعرف على الماضى فى الحاضر . فالحاضر هو الذى يعطى الماضى معناه . وانما يرجـع الخلاف فى التفسير أساسا الى خلاف فى المواقف الحاضره النفسـية والاجتماعية والسياسية والتاريخية .

ولما كان سلاح العقائد فى المجتمعات التقليدية من أمضى الاسلحة ومن أقوى العوامل فى الحراك الاجتماعى فانه سرعان مايتم استخدامه من كافة القوى الاجتماعية والسياسية . كل منها يسقط أهدائه على النص ويقرأها فيه . فالخلاف فى التفسير هو فى حقيقة الامر صراع بين القوى الاجتماعية والسياسية ولا يوجد واحد منها « صحيح » والباقى « باطل » الا لهذا الذى يحسم الصراع لحسابه ويستولى على السلطة فيعمم تفسيره ، ويفرز اتجاهه ، ويسود المذهب الرسمى للدولة فى مقابل الاتجاهات الاخرى التى تصبح من قوى المعارضة المناهضة للسلطة ويشهد على ذلك التاريخ القديم والحديث للفرق الدينية فقـد سادت « الاشعرية » كمذهب رسمى للدولة « السنية » فى مقابل فرق الخوارج والشيعة أساسا والمعتزلة بدرجة أقل ، بعد أن حسم الصراع بين الدولة الاموية من ناحية والشيعه والخوارج من ناحية أخـرى لصالح الامويين وانتهت المعارضة من الخارج ، ثم حسم الصراع من جديد بين الدولة الاموية وأوائل المعتزلة لصالـح الامويين وانتهت المعارضة من الداخل .

ويتكرر التاريخ بالنسبة للصراع بين الدولة العلمانية القائمة الى

تقوم على الشرعية وبين قوى المعارضة الاسلامية الممثلة فى الاخـوان المسلمين أولا ثم فى الجماعات الاسلامية ثانيا ، حزب التحرير الاسلامى التكفير والهجرة ، جماعة الجهاد .... الخ .

ومن التاريخ القديم يمكن اعطاء الامثلة الآتية :

١ — بعد انتصار الدولة الاموية ابتداء من يزيد واستقرارها بدأت تفرز عقائدها ضد معارضيها من الشيعة والخوارج أولا ثم من المعتزلة ثانيا . تصور علماؤها التوحيد على أنه أساسا الايمان بالله ، قادر قدرة مطلقة ، وأنه يخلق الاشياء من عدم بالقدرة ، وأنه يسيطر على الطبيعة بالارادة ، وأنه موجود فى كل مكان ، يرى ويسمع كل شىء ، لايقف أمامـه قانون ، ولايستطيع أحـد أن يعارضه ، كـل شىء بمشيئته وبأذنه (١) .

وكان الهدف من هذا التصور هو اعادة البناء النفسى لجماعـات المعارضة القائدة لجماهير المسلمين على الخوف من هذه القـدرة المطلقه والارادة النافذة والتى تتوحد السلطة السياسية بها ، وتنفذ الى قلوب الجماهير من خلالها ، فتحثها على الطاعة والتسليم والرضا بالمشيئة والتى يصعب بعدها التمييز بين مشيئة الله ومشيئة السلطان . فى حين أفرزت قوى المعارضة الداخلية من المعتزلة تصورا آخر يقوى فى نفوس المعارضة والاستمرار فى المطالبة بالشرعية فى نظام الدولة ، وهو التصور الذى يجعل من التوحيد الايمان بالله كمبدأ عام شامل ، يتصف بصفات عامة وشاملة مثل « العدل » حتى يمكن به القضاء على

---

(١) هناك لوحة فنية على مدخل مبنى مباحث أمن الدولة بها عين مفتوحة مثل عيون قدماء المصريين ومكتوب عليها من أسفل « عين الله الساهرة » .

تسلط الامويين وتكبرهم واعتلائهم رقاب الناس ، وأمام هذا المبدأ يتساوى الجميع ويعقله كل الناس •

٢ — كما أفرزت الدولة القائمة على اللاشرعية عقيدة القضاء والقدر ، وأن الانسان ليس له الخيرة من أمره ، وأنه كالريشة فى مهب الريح ، وأنه كالجثة الهامدة يقلبه الله كيف يشاء ، وأنه لا يستطيع من أمره شيئا ، لا فى حياته ولا فى مماته • ثم خففت العقيدة بأخرى أكثر ذكاء لاحتواء المعارضة وهى عقيدة « الكسب » الاشعرى التى تعطى للانسان قدرة على الفعل ولكنها مشروطة بتدخل الارادة الالهية حتى يمكن للفعل أن يتم فى لحظة اتيان الفعل • ولكن ليس للانسان قدرة قبل الفعل أو بعد الفعل على أن يتمه بنفسه • ومن ثم فهو غير مسؤول عن شيء ، وما لم تتدخل الارادة الالهية فى فعله ، ويتعلق هو بها كتعلق الراكب بالمركبة فانه لن يقدر على فعل شيء • وفى مواجهة هذه العقيدة أكدت قوى المعارضة الداخلية (المعتزلة) والخارجية (الخوارج) على حرية الانسان ، وقدرته على الفعل قبل الفعل وأثناء الفعل وبعد الفعل ، كما أثبتت مسئوليته عن أفعاله الداخلية منها (مثل الهداية والتوفيق) أو الخارجية أى أفعال الشعور وأفعال الجوارح •

٣ — وأكدت الدولة القائمة دور الوحى والنبوة ، وطعنت فى قدرة الفعل على الاستقلال بالرأى ، وأنه فى حاجة الى وحى عليه من النبى ، فالنقل أساس العقل • ولما كانت سلطة التأويل للنقل ترجع الى الدولة نتج عن ذلك تبعية العقل للنظام القائم وبالتالى تمحى حرية التفكير • فى حين أكدت قوى المعارضة العقيدة المضادة من أن العقل أساس النقل ، وأن العقل قادر على الاستقلال بالرأى ، والتمييز بين الحسن

والقبيح ، وادراك الغـائية فى الكون ، وأن الحسن والقبيح موضوعيان فى الافعال والاشـياء ، وليسا مرتبطان بارادة خارجية ، ارادة الله أو ارادة السلطان ، وبالتالى يمكن دفع الوصايا عن الانسان والدفاع عن استقلال عقله وحرية ارادته •

٤ ــ كما أفرزت الدولة عقيدة أن هذا العالم لا يحكمه قانـون ثابت ، وأن قوانين الطبيعة لا تقوى على شىء أمام ارادة الله المطلقة بدليل المعجزات ، وأن الشمس قد تشرق من المغرب وتغرب من المشرق باذن الله ، وأن الحجر قد لا يسقط ويظل معلقا فى الفضـاء باذن الله ، وأن السهم قد لا يصيب الرمية ويظل معلقا فى الهواء باذن الله • وكما لا يوجد قانون ثابت فى الدنيا كذلك لا يوجد قانون ثابت فى الآخرة • فقـد يعاقب الله المحسن ، ويثيب المذنب ، وقد يدخل المؤمن فى النار ، والكافر فى الجنة • فى حين أكدت قوى المعارضة قوانين الطبيعة الثابتة ، وأنه لا تحدث معجزات الا طبقا لقوانين طبيعية أخرى ثابتة لا نعلمها حتى الآن ، وأن هـذا العالم يسير طبقا لقانون ، وأن العالم الاخـر أيضا يسير طبقا لقانون ، فيثاب المحسن ، ويعاقب المذنب ، ويدخل المؤمن الجنة والكافر النار وأننا نعيش فى عالم يحكمه قانون • وبالتالى يرتبط الحاكم بالمحكوم برباط القانون وليس برباط مشيئة الحـاكم المطلقة ، وحقه المطلق على المحكوم •

٥ ــ ثم نشرت الدولة عقيدة « الارجـاء » على لسان أهل السنة المرجئة وجعلت المسلم بشهادتيه بلسانه حتى ولو أضمر الكفر ، ويرجىء الحكم على أعماله حتى يوم القيامة فالعمل ليس جزءا من الايمان بل خارج عنـه • كل من قال : لا اله الا الله محمد رسول الله ، أصبح جزءا من الامة الاسلامية • وبالتالى يمكن التغاضى عن عمل الحكام

حتى تسقط حجة الشرعية ، وانه لا فرق بين يزيد بن معاوية والحسين بن على ، فالله يتولاهما يوم القيامة • فى حين جعلت المعارضة خاصة الخارجية العمل جزءا لا يتجزأ عن الايمان ، وأن من لا عمل له لا ايمان له • والعمل وحده مقياس الايمان حتى يمكن الحكم على الحكام طبقا لاعمالهم وليس طبقا لاقوالهم •

٦ — وقد أصدرت الدولة حكما شرعيا من فقهاء أهل السنة بطاعة أولى الامر طبقا للآية المشهورة « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » (المائدة ، ٥٩) مادام النظام قد استتب ، وملكت الدولة أسباب القوى والمنعة ، وأصبح أمل المعارضة ضعيفا فى الوصول الى الحكم ، فالاعتراف بالامر الواقع هو الاجدى من التمسك بالشرعية النظرية (مالك بن أنس) • فى حين أصرت المعارضة على الشرعية فى صور مختلفة ضد حجة الامر الواقع ، فاستمر الخوارج فى قتال أئمة الكفر ، وجعل المعتزلة « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » أصلا من أصول الدين حتى تستمر الامة فى مواجهة الحكام ، وفصلوا فى « عزل » الامام قدر تفصيلهم فى « تنصيب » الامام (٢) •

هذه أمثلة من تاريخ الفرق الذى تعلمه الجماعات الاسلامية جيدا مما يجعلها استمرارا للخلاف القديم مع تغيير الظروف السياسية والاجتماعية من حيث الوقائع وان لم تتغير الاساليب • فالدولة القائمة لا شرعية لانها لا تحكم بالكتاب والسنة ولأن النظام الحالى

---

(٢) أنظر مقالنا : « اليمين واليسار فى الفكر الدينى » الطليعة ، اكتوبر ١٩٧٦ • الجزء السابع : اليمين واليسار فى الفكر الدينى •

أتى نتيجة انقلاب عسكرى ورث النظام العلمانى القديم قبل ١٩٥٢ الذى أتى نتيجة للانفصـــال عن الخلافة الاسلامية وتمزيقا لهـــا . وان عقائد الجماعات الاسلامية لتمثل قوى المعارضة فى مواجهة عقائد الدولة التى تمثل النظام المستتب وتفرز المذهب السـائد القديم ، الاشعرية ، بالاعتماد على فقهائها الجدد ، مشايخ الازهر ، ويدل على ذلك الأمثلة الآتية :

١ — تتمسك الجماعات الاسلامية الحالية بفكر فقهاء أهل السلف الذين قاوموا فقهـــاء السلطان مثل ابن حنبل وابن تيمية والذين انتهوا الى السجون ولاقوا شتى أصناف التعذيب . ففقهاء السلف هم الحارسون للشرع ، المدافعون عن مصـــالح الامة ، المتصدون للحكـــام لم يكن نموذجهم من الفلاسفة أو المتكلمين أو فقهاء « الحيض والنفاس » أو الصوفية بل كان علماء الامة على مدى التاريخ من الفقهاء والمصلحين من السلف والخلف منذ أحمد بن حنبل حتى سيد قطب . فقد تمثلوا فكر المعارضة فى مواجهة فكر الدولة .

٢ — قرأت الجماعات الاسلامية نفسها فى التاريخ ، ووجدت فى « مجموعة فتاوى ابن تيمية » خير معبر عن حاضرها . فقـــد كان حكم التتار اسلاميا فى مظهره لا أسلاميا فى جوهره « يحكمون بشريعة ملفقة من الديانات السابقة اليهودية والمســيحية والوثنية ومن الشريعـــة الاسلامية » . وقد أفتى ابن تيمية بكفرهم ووجوب قتالهم . وهـــو نفس الحال اليوم ، وحكام اليوم الذين لا يحكمون بالشريعة وان كانوا يحرصون على مظاهر الاسلام مثل الشهادتان ، والشعائر ، وبنـــاء المساجد ، فتتار الامس مثل مســـلمى اليوم ، وحكام اليوم مثـــل جنكيز خان !

٣ — ظهرت فكرة « الحاكمية » تأكيدا للشرعية فى مواجهة النظم اللاشرعية القائمة كما كان الحال بين الحسين ويزيد ، والخوارج والشيعة فى مواجهة الدولة الاموية • فالحاكمية تمثل سلاح المعارضة العقائدى فى مواجهة النظام القائم ، وتقوضه من أساسه لانه لا يحكم بشرع الله •

٤ — ورفض الموالاة للكفار والمشركين والصليبيين انما جاء نظرا لان النظام القائم قد والاهم على حساب المؤمنين ، فاعترف بالصهيونية ، وحالف الصليبية ، وعادى المسلمين ، وهو محرم بنصوص القرآن والحديث التى تحرم الموالاة مثل : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين » (المائدة ، ٥١) • وابراز التعارض بين المؤمنين والكفار ، بين الاسلام والجاهلية انما جاء نتيجة لتمييع الامور ، والقضاء على الهوية الوطنية •

٥ — ان اعتبار القلة المؤمنة هى القادرة على تغيير النظام انما جاء نتيجة للاوضاع القائمة التى تعتمد على الكم دون الكيف ، ولكنه كم كغثاء النحل ، وقد كان ذلك سبب هزيمة المسلمين بحفنة من اليهود • والقرآن ينص على الكيف فى مواجهة الكم ، فالقلة المؤمنة خير من الكثرة الكافرة •

٦ — واذا كان الامل يعود فى قلوب المسلمين بفضل الجماعة الاسلامية من أجل اعادة الدولة الاسلامية طبقا لحركة التاريخ ، ونبؤات الرسول فانما ذلك كرد فعل على هزائم المسلمين وروح اليأس والاستسلام أمام أعداء الامة •

لا يوجد اذن فكر صحيح ، وفكر خاطيء ، بل يوجد فكر فى ميدان الصراع بين القوى الاجتماعية والسياسية المتعارضة ، ومدى تعبير كل منها عن الشرعية .

٢ — ما معنى ومدى امكانية تطبيق الشريعة الاسلامية ؟

« تطبيق الشريعة الاسلامية » شعار ينادى به فريقان . الأول الدولة القائمة ، والثانى الجماعة الاسلامية المعارضة ، شعار يرفعه الحاكم ، وشعار يرفعه المحكوم . وعند كل فريق لـه معنى معين ، واستخدام خاص ، وهدف يرمى اليه ، كل طبقا لموقفه من الحكـم ، الاول لتدعيم شرعيته والثانى لانتزاع هذه الشرعية وتقويضها . وقد رفع هذا الشعار فى الآونة الاخيرة من جانب النظام على النحو الاتى :

١ — احتياج النظام القائم الى مزيد من الشرعية بعد أن قل رصيدها التاريخى من الشرعية الثوريـة كما كان الحال فى الستينات ، وبعد صراع على السلطة واقصاء أحد أجنحتها الذى كان يمثل هـذه الاستمرارية التاريخية ، وبعد اشتداد المعارضة السياسية أولا والدينية ثانيا ضـد سياسات النظام . ولما كانت الشرعية الرئيسية فى البلاد للدين وللشريعة الاسلامية ، فقد لجأ النظام لهـذه الشرعية الدينية فى وجدان الناس لتدعيم شرعيته السياسية الخاصة ونظامه فى الحكم باعلان التزامه بها .

٢ — المزايدة على المعارضة الدينية الممثلة فى الجماعات الاسلامية ، والاسراع برفع شعارها حتى لا يكون لهـا مبرر لوجودها وحتى لا

تستجيب الجماهير لندائها مادامت الدولة قائمة على تنفيذ هذا المطلب بما لها من قوة وسلطان ومجالس تشريعية ولجان وبنود فى الدستور ، وتصريحات للقادة ، خاصة اذا كان سلوك رئيس الدولة ومظاهره كلها اسلامية (٣) .

٣ — تبرئة الذمة ، ذمة الحكام ، أمام الناس ، بأنهم مخلصون للاسلام ، ويسعون لتطبيق الشريعة حتى يمحى مبرر وجود أية حركة اسلامية تنادى بهذا المطلب ، خاصة وأن الحكام يعلمون مدى التخلف فى الوعى السياسى للناس . فتقتنع بأن الحكام قد أدوا واجبهم وأن الباقى على الله ! وقد تكون تبرئة الذمة أمام الله أيضا ، فقد قام الحكام بمحاولة تطبيق الشريعة ولكن الواقع كان أقوى منهم ، وانما الاعمال بالنيات وكأن الله تخفى عليه مالا ترى الاعين وما تكن الصدور !

٤ — البعد عن الجانب السياسى والاجتماعى فى الشريعة الاسلامية دفاعا لا شعوريا وأحيانا شعوريا عن النظام القائم واللجوء الى قانون الاحوال الشخصية فتصول فيه الدولة وتجول ، وتقيم المعارك ، وتعقد الندوات ، وتستفتى الكبار ، وتدخل فيه الجمعيات النسائية ،

---

(٣) لذلك كان سؤال المحققين باستمرار فى قضية اغتيال الرئيس السابق عن مدى الخلاف بينه وبين الجماعات اذا كان قد كون لجنة فى مجلس الشعب لتقنين الشريعة ، وجعلها المصدر الرئيسى للتشريع فى الدستور ، وجعل الاسلام الدين الرسمى للدولة .. الخ . انظر دراستنا « الاصولية الاسلامية » جذورها التاريخية ، وروافدها الفكرية ، وانفجاراتها السياسية (دراسة فى التحقيقات حول اغتيال الرئيس) الجزء الخامس .

وتكثر حوله الافلام ، مادام الامر لا يتعدى نطاق الزواج والطلاق ، وتعدد الزوجات ، والحضانة ، وملكية الشقة ، ومقدار المهر والصداق •

أما النظام الاسلامى السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، نظريته فى الملكية ، وفى الاجور وفى الزراعة وفى الصناعة ، نظريته فى الشورى والبيعة ، نظريته فى وجوب خلع الحكام والخروج عليهم ، نظريته فى استقلال القضاء وعدم جواز عزل القاضى ، نظريته فى الحسبة والرقابة على الاسواق ، نظريته فى بيت المال والخراج ، نظريته فى تحرير أراضى المسلمين وجهاد الكفار والمعتدين • كل ذلك غير مقصود بتطبيق الشريعة الاسلامية !

٥ — انتفاء الحدود والدعوة الى تطبيقها ، وكأن الشريعة الاسلامية لا تحتوى الا على العقوبات والردع والاقتصاص ، والقتل ، والرجم ، والجلد ، والتعذيب ! وكأن القصد هو ارهاب الناس وتخويفهم من الشريعة الاسلامية وليس تطبيقها ! أما اعطاء حقوق الناس قبل مطالبتهم بواجباتهم ، وايجاد عمل للعاطل وقوت للفقير قبل قطع يد السارق ومنع الاثارات الجنسية فى الصحف وأجهزة الاعلام وتوفير سبل استقرار الحياة الزوجية قبل رجم الزانى فكل ذلك غير وارد وكأن الغاية من تطبيق الشريعة هو عقاب الناس والقصاص منهم ! أما قطع يد الحاكم اذا سرق ، ورجم الشريف اذا زنا فذلك أيضا غير وارد لان تطبيق الحدود موجه ضد الاغلبية أولا دون الاقلية ، وأن تحريم شرب الخمر على المصريين المسلمين وليس على الاجانب السياح بما فيهم العرب المسلمون تنشيطا للسياحة ! وان قتل المرتد اذا أعلن كفره

وامتنع عن الصلاة وأداء الشعائر مثل ما تفعل المعارضة السياسية الملحدة !

٦ — الغاية اذن من رفع هذا الشعار « تطبيق الشريعة الاسلامية » هو الحد من التغير الاجتماعى ، وايقاف عملية التطور الطبيعى للمجتمعات ، والدفاع عن النظام القائم وارهاب الناس ، والمزايدة على الجماعات الاسلامية ، والتغطية على المشاكل الاجتماعية والسياسية الجوهرية والتستر عليها ، والابتعاد عنها لانها حكر على السلطة تقرر فيها ما تشاء أو لانها سياسة صرفة ولا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة أو لانها من عند الله الحاكم فيها بما يشاء ! يستخدم هذا الشعار فى معرض « النفاق » الدينى مما يسبب غضب الجماعات الاسلامية وثورتها على من يتمسح بالدين لضرب الدين •

ولما كانت المجتمعات الاسلامية كلها حكاما ومحكومين تمر بمرحلة من التخلف ، نظرا لطبيعة المرحلة التى تمر بها بعد ألف عام من سيادة الاشعرية المزدوجة بالتصوف منذ هجوم الغزالى على العلوم العقلية والدعوة للتصوف كطريق للخلاص حتى الدولة العثمانية وقبيل الاصلاح الدينى الاخير ، فان « تطبيق الشريعة الاسلامية » يعنى عند الجماعات الاسلامية المعارضة نفس المعنى الذى يعنيه عند الحكام بهدف سياسى آخر وهو تقويض النظام لما كانت الدولة تحكم بالقانون الوضعى وليس بالشريعة الاسلامية بالرغم مما تضعه الدولة فى دساتيرها وقوانينها ومؤسساتها من مظاهر للنفاق الدينى • ونظرا لنقص فى وعيها السياسى والاجتماعى فان تطبيق الشريعة الاسلامية ظن أيضا مجرد تعبير عن الحاكمية استنباطا من مبدأ عام دون أن

يقدم برنامجا اجتماعيا سياسيا محددا لمعرفة مدى اتفاقه واختلافه مع برامج الاتجاهات والقوى والاحزاب الاخرى • مما يدل على أن هذا الشعار مازال موجها أساسا ضد النظام القائم كمعول لتقويض كيان الدولة • أى أن جانبه الهدمى أكبر بكثير من جانبه البنائى • وأن الرفض والمعارضة فيه أقوى من الوضع والاثبات •

ومع ذلك فان تطبيق « الشريعة الاسلامية » الذى لا ترفضه الجماعات الاسلامية لانه يحقق شعارها بوعى سياسى حاضر ودون رغبة فى تقويض نظام الدولة القائم أو الثأر منها والذى لا ترفضه الدولة القائمة لانه لا ينافسها فى السلطة ، ولا يبغى القضاء عليها بل يساعدها على تكوين مشروع قومى لها يحمى الشباب ، ويجدد طاقاته ، ويكون عونا لها لا خارجا عليها ، هذا التطبيق يجمع بين مبادىء الاسلام ومتطلبات الثورة ، ويصيغ الاسلام من خلال روح العصر ومطالب الجماعة ومصلحة الأمة • ويعنى الآتى :

١ — تأسيس مجتمع يقوم على الحرية والديمقراطية تنفيذا لقول الله « لا اكره فى الدين » وتأكيدا على مبادىء الاسلام فى « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » ، ووظيفة « الحسبة » وهو ما يعنى بلغة العصر ضرورة المعارضة السياسية ، وحرية الصحافة ، وضرورة الرقابة على مؤسسات الدولة ، وانتخاب مجالس نيابية ، والتزام الحاكم بارادة الامة ومصلحة الشعب • فأى قهر للحريات وأى منع للرأى ، وأى تكفير لاجتهاد يخرج عن الحكم الاسلامى •

٢ — تحقيق نظام اجتماعى يقوم على أكبر قدر ممكن من العدالة والمساواة • فمشكلة المسلمين الثانية ، بعد مشكلة القهر والتسلط

والطغيان ، هى مشكلة الفقر والجوع والحرمان وسوء التغذية حتى يضرب بمجتمعاتهم المثل فى الفقر والغنى فى آن واحد ، فقر الاغلبية وهلاكها من الجوع والقحط وغناء الاقلية وبطانتهم وتكديسهم الاموال فى البنــوك الاجنبية . فالمال مال الله على ما هــو معروف فى نظرية « الاستخلاف » أودعه كوديعة بين أيدى الانسان ، له حق التصرف ، والاستثمار ، والانتفاع ولكن ليس له حق الاستغلال أو الاحتكار أو الاكتناز . وما تعم به البلوى ، ويمس صــالح المسلمين يكون مشاعا بين الناس ، ويوجه لصــالح الامة مثل الماء والكلأ أى الزراعة والنار أى الصناعة . أما التجارة فكما يقول ابن خلدون لا تزيد انتاجا ، ومن يعيش عليها يكون طفيليا على المجتمع . لا يسمح الاســلام بنظام اجتماعى يقوم على التفاوت بين الطبقات ، فالمجتمع الواحد الذى فيه انسان واحد جائع تبرأ ذمّة الله منه .

٣ ــ توجيه الامة كلها الى الوقوف فى مواجهة أعدائها ، الاستعمار والصهيونية . فقد أخذ الاستعمار أشكالا متعددة منذ الحروب الصليبية حتى أشكال الاحلاف العسكرية والتسهيلات والمعونات الحــالية . والصهيونية مازالت تحتل أراضى المسلمين بالتعاون مع الاستعمار . وبالتالى تكون المواجهة بين الحق والباطل ، بين العــدل والظلم بين الايمان والكفر ، بين الاسلام والجاهلية . ويتحول هــذا التقابل فى الوعى الاســلامى المعاصر الى وجهته الصحيحة ضد الاعداء فى الخارج بدل أن يتوجه نحــو قسمة المجتمع فى الداخل الى قسمين وشق الجبهة الوطنية ، وأحداث الفتن ، وضياع الشوكة .

٤ ــ تجنيد الجماهير لتحقيق هذا المشروع بدل التسيب والتميع

السعى وراء الدنيا وحظوظها أو الهجرة وترك البلاد ، وبالتالى يكون للجهـاد معنى ، ويتحقق كفريضة كما تنادى به الجماعة الاسلامية ، وتجند طاقات الشباب ، ويتدرب على القتال للذود عن البيضة ، وحماية الديار ، وتقوية الثغور ، وحراسة الحدود ، وتشييد الحصون ، وتكوين الكتائب وارسال السرايا ، والنداء للجهاد ، وطلب الشهادة •

٥ ـ توحيد الامة بعد أن تقطعت أوصالها ، وتمزقت اربا حتى يسهل ابتلاعها من أعدائها « أن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكـم فاعبدون » (الانبياء ، ٩٢) • وبالتالى تتحقق الوحـدة بين مشروع الامة القومى فى قيام الوحدة بين شعوب المنطقة وبين مطلب الجماعة فى توحيد الامة الاسـلامية ، ويتوحد مطلب الواقع ومطلب المبدأ ، فلا خلاف بين القومية والاسلام ، فالوحدة القومية أحد مراحل الوحدة الاسلامية الشاملة •

٦ ـ الدفاع عن استقلال الامة وحيادها وعدم انحيازها شرقا أو غربا ، فالشرق والغرب كلاهما يريد نهب ثروات المسلمين واحتـلال أراضيهم ، والقضاء على هويتهم ، ومحو تاريخهم • وبالتالى يتحقق مطلب الدولة فى عدم الانحياز ويتحقق مطلب الجماعة الاسـلامية فى مواجهة الامة لاعدائها « لا شرقية ولا غربية » وقد كانت الحركـة الاسلامية أول من اكتشف فكرة الاسيوية الافريقية وعدم الانحياز(٤) •

وعلى هذا النحو يصبح شعار « تطبيق الشريعة الاسلامية » ممكن

---

(٤) مالك بن نبى : فكرة الاسيوية الافريقية •

التطبيق لا خلاف عليه بين الدولة أو أى نظام قائم وبين الجماعة الاسلامية الحالية أو أية دعوة اسلامية فى المستقبل (٥) •

٣ — ماهى العوامل التى أدت الى ظهور الجماعات الدينية «المتطرفة»؟

ان الحكم « بالتطرف » على الجماعات الاسلامية هو حكم مسبق أو حكم قيمة يحتوى على الرغبة فى ادانة المعارضة لصالح النظام السياسى القائم • فالتطرف هنا يعنى الخروج على النظام لما كان طاعة النظام هو مقياس السلوك الاجتماعى الرشيد ! وأحيانا يكون التطرف رد فعل على تطرف آخر ، فالتطرف فى الجهاد رد فعل على التمايع والمصالحة والتسليم بأهداف الاعداء ، والتطرف لصالح الفقراء رد فعل على نهب الاغنياء ، واستعمال العنف رد فعل على عنف مضاد تقوم به الدولة بأجهزتها القمعية أو بسيطرتها على وسائل الاعلام فتمنع الحوار ، وتقهر الرأى المعارض فلا يجد وسيلة أخرى للتعبير عن نفسه الا تغيير الوضع بالقوة •

ومع ذلك يمكن رصد بعض العوامل التى أدت الى ظهور الجماعات الاسلامية على النحو التالى : —

١ — ان المطلع على تاريخ الاسلام ويكون فى نفس الوقت غيورا عليه شابا طاهرا بفكرها وممارستها الحالية ، لم تغره مطامع الدنيا ، ولم تفسده أوضاع المجتمع ليحزن أشد الحزن ، ويشعر بالمرارة والاسى

---

(٥) وقد حاولنا تحقيق هذا المشروع فى « اليسار الاسلامى » انظر العدد الاول ، ١٩٨١ •

اذا ما قارن الماضى بالحاضر ، ماضى الاســلام التليد ، وحضارته الزاهرة ، ومجده وآثاره وفتوحاته وانتصاراته ، اذا ما قارن ذلك كله بأوضاع المسلمين اليوم ، بهزائمهم وتخلفهم ، بضياع دولتهم وشوكتهم ، بنظمهم التسلطية القائمة على القهر والطغيان ، وبأوضاعهم الاجتماعية المزرية ، وبتقدم غيرهم من الشعوب التى كانت تعلم من المسلمين بالامس فأصبحت سادة لهم اليوم يتعلم المسلمون منهم ، وينسون دينهم • هذه القراءة المتطهرة للتاريخ هى التى دفعت أعضاء الجماعة الاسلامية الى الانضمام الى أية دعــوة تهدف الى العودة الى عزة الاسلام ، ونصرة المسلمين ، وتتجاوز أحداث العصر ، وتنهى عصر الانهيار والانحطاط ، وتعيد الى الاســلام مكانته ودولته ، تحقيقا لنبوءة الرسول انه لايصلح آخــر هذه الامة الا مــا صلح به أولها • وكلما ازدادت الازمات ، وتوالت الهزائم زاد الارتباط بالاسلام كمنقذ وحيد للمسلمين والشــاهد فى التاريخ والآثار • فلو اتبع الخلف آثار السلف لنهض من جديد ، وقام من كبوته • هذا الاحســاس بدورة التاريخ هو الاساس الوجدانى الذى تقوم عليه الصحوة الاســلامية فى قلوب الناس والتى منها تتبلور الجماعات الاسلامية وتأخذ أشكالها الحالية التى تفرضها الظروف الوقتية فى الماضى القريب •

٢ — ولقد قام الاصلاح الدينى من نفس الدافع ولنفس الهدف • وبدأ بداية طيبة منذ الافغانى الذى حدد مشروع نهضة المسلمين وشروط قيــام دولتهم بمواجهة الاستعمار فى الخارج والتسلط فى الداخل ، والدعوة الى وحدة الامة ، وجاهد لتحقيق ذلــك المشروع ، وقامت حركات وطنية فى كل أرجاء العالم الاسلامى ، وأسس فى مصر الحزب الوطنى ، وقامت الثورة العرابية على مبادئه ، ودبت الحياة فى الامة

الاسلامية من حديد . ولكن الاصلاح الدينى هبط الى النصف عند محمد عبده بايثاره الوطنية الضيقة على الجامعة الاسلامية الشاملة ، وبتفضيله مناهج التربية والتعليم الطويلة المدى على مناهج الانقلابات السياسية وتغيير السلطة القصيرة المدى ، وبتراجعه عن الثورة العرابية وتعاونه مع أعدائها فى الداخل وفى الخارج بعد أن انضم اليها وشارك فيها ، وتفرقته بين الدين والسياسة فى قوله المشهور « لعن الله ساس ويسوس » ! ثم هبط الى النصف مرة أخرى على يد رشيد رضا ، ووضع واقع المسلمين كله فى القرآن فى تفسير المنار بدلا من أن يضع واقع القرآن فى واقع المسلمين فتتفجر الثورة ، وتحول الاصلاح على يديه الى سلفية وقل ارتباطها بحياة الناس اليومية . وعاد الاصلاح من جديد يأخذ(٦) دورة جديدة على يد حسن البنا تلميذ رشيد رضا فى دار العلوم من أجل اعادة اصدار المنار ولكن الصحوة الاصلاحية الجديدة ظهرت فى حركة « الاخوان المسلمين » عقائد واضحة بسيطة ، واسلام كلى شامل ، وتنظيم جماهيرى فعال ، وتدريب واعداد لجند الاسلام . واستطاعت الحركة الجديدة أن تفرض نفسها على الساحة الوطنية المصرية فى الاربعينات وفى أوائل الخمسينات ، وكانت احدى روافد الضباط الاحرار ، وقبل الثورة فى ١٩٥٢ كانت قاب قوسين أو أدنى من النصر لولا جماهيرية الوفد وشعبيته الكاسحة فى انتخابات ١٩٥١ . فالجماعات الاسلامية ، وليد الاخوان المسلمين ، استمرار لهذه الصحوة الاسلامية ولكن من خلال الصيغ والاشكال التى فرضتها الظروف .

---

(٦) حسن البنا : مذكرات الدعوة والداعية ص ٢٥٤ — ٢٥٥ الشهاب ، القاهرة .

٣ ــ ولكن بعــد اضطهاد الاخــوان ابــان الثــورة المصرية (١٩٥٢ ــ ١٩٧١) وحدوث أبشع صدام بين أنجح تنظيم سياسى حــديث عقــد آمــــال الامــة عليــه وأنجــح تنظيــم عســكرى تحققت الثـــورة عليـــه فى مــارس ١٩٥٤ ظهـــر الاســــلام والثورة نقيضين ، وتحول الاسلام الى داخل السجون ، يلاقى أعضاؤه أبشــع أنواع التعذيب البدنى والمعنوى ، فنشأ ثأر مبدئى بين الاسلام والثورة ، وظهر الاســلام معاديا للثورة ، والثورة معادية للاســلام بصرف النظر عن أدبيات الدعاية حول الاشتراكية فى الاســلام التى كثرت فى الستينات ، وتحول داعية الاسلام الاول ، وأكبر مفكر شهده العالم الاسلامى منذ أبى الاعلى المودودى ، وهو الامام الشهيد سيد قطب ، تحول من « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » ومن « معركة الاسلام والرأسمالية » ومن « السلام العالمى والاسلام » حيث كــان قد بدأ فى صياغة الاسلام الثورى أو الثورة الاسلامية كملتقى لكافــة الاتجاهات الوطنية ، وكبوتقة للحركة الوطنيــة المصرية فى أواخــر الاربعينات ، تحول ذلك كله الى « معالم فى الطريق » ، وقسمة العالم الى أبيض وأسود ، والناس الى مؤمنين وكافرين ، والمجتمع الى اسلام وجاهلية ، تعبيرا عن « سيكولوجية الاضطهاد » وانه لا ســبيل الى اللقاء أو التعاون أو التوسط بين الطرفين ، وانه لا بقاء لاحدهما الا بفناء الآخر ، وأن الحاكمية لله وليست للبشر ، وأن لا اله الا الله تحرير لوجدان البشر من رق الطاغوت ، وأن المنوط بتحقيق هــــذا المثل هم القلة المؤمنة ، الجيل القرآنى الجديد ، الصفوة المختارة(١٧).

---

(٧) أنظر بحثنا : أثر الامام الشهيد سيد قطب على الحركات الاسلامية المعاصرة فى هذا الجزء .

وفى داخل السجون وعلى البرشى تكونت الجماعــات الاسلامية من نقاش حول مصير الاخوان وأسباب محنتهم واضطهادهم ، واستحالة التعاون مع الدولة الكافرة أو نظم الحكم التى لا تقبــل تطبيق شرع الله . فلولا اضطهاد الاخوان ، ولولا توقف نشاطها لما خرجت الجماعات الاسلامية شاردة على الحركة الاسلامية وتعبر عن ظروف اضطهادها .

٤ ـــ ولما احتاجت الدولة الى الشرعية ، واحتاج النظام الجديد فى مايو ١٩٧١ الى نوع من التأييد الشعبى خاصــة وأنــه لــم يكن له رصيد تاريخى كما كان للنظام فى الستينات ، اعتمــدت على أعــداء النظام السابق أى الاخوان المسلمين وشكلهم الجديد الذى تكون داخل جدران السجون أى الجماعات الاسلامية . وكلما كشف النظام الجديد عن مرحلة من مراحل الردة عن النظام السابق ازداد اعتماده على ضحاياه تدعيما لاركانه ضــد معارضيه من الطلاب آخر أجيال الناصرية فى الجامعة . وحدث نوع من اتفاق المصــالح بين الدولة والجماعات ، الدولة تستخدم الجماعات لتصفية الجامعة من التكتلات والتنظيمات والاندية الناصرية والتقدمية بوجه عام أى ضــد خصومها السياسيين ، والجماعات تستعمل الدولة وسلطانها تأكيدا لسلطتها ، وتقوية لنظامها ، ونشر لدعوتها ، وتأسيسها لجماعتها ، فنشأت الجماعات بتدعيم من الدولة وعلى مرأى ومسمع منها .

٥ ـ استعمال الدولة للمحافظة الدينية خاصة بعد حــرب اكتوبر ١٩٧٣ كدليل على النصر وأحد أسبابه لما كان البعد عن الدين أحــد أسباب هزيمة يونيو ١٩٦٧ . وظهرت الحمية الدينية فى أجهزة الاعلام . وكثرت الشعائر والمظاهر ، واقامة الشعائر ، وزيادة البرامج الدينية ،

وصفحات الفكر الدينى ، وصاغت الدولة أيديولوجية لها تعتمد فى أساسها على الايمان ، وأطلقت شعار « العلم والايمان » ، وركزت على قيم الاصالة والصلابة ، ودعت الى احترام التقاليد ، وسنت قانون العيب •

٦ — ولكن منذ معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية فى مارس ١٩٧٨ انتهى عصر الوفاق بين الدولة والجماعات الدينية وبدأ الخلاف • فقد أراد كل فريق أن يقوم بدوره الخاص ، وتحقيق أهدافه الخاصة ، استمرار الدولة استعمالها لتأييد سياساتها ضد خصومها السياسيين واستمرار الجماعات فى الحصول على تأيد الدولة • فقد أدت المعاهدة واستمرار الجماعات فى الحصول على تأييد الدولة • فقد أدت المعاهدة والقوى الوطنية فى مصر على رفضها سواء الليبرليون (الوفد) أو الناصريون أو الماركسيون أو الحركات الاسلامية • وكان هناك حد للتعاون بين الدولة والجماعات لا يصل الى حد التعاون على التسليم بالصهيونية والوقوع فى براثن الاستعمار وتحت مناطق النفوذ ، وفى سياسة الاحلاف • واتفقت جميع قوى المعارضة على برنامج عملى واحد وهو رفض المعاهدة المصرية الاسرائيلية وما يتبعها من اجراءات التطبيع ، ورفض التحالف مع الاستعمار ، ورفض سياسة الانفتاح ونتائجها على الاقتصاد الوطنى ومستوى الحياة الاجتماعية للاغلبية ، ورفض جميع الاجراءات الاستثنائية المكبلة للحريات وجميع مظاهر الفساد والانحلال فى الدولة ورفض عزلة مصر عن محيطها العربى والاسلامى • نشطت الجماعات الاسلامية كأحد فصائل المعارضة • ولما كانت أكثرها تنظيما واقتناعا وقدرة على الفعل فقد حدث على يدها انفجار ٦ أكتوبر ١٩٨١ •

٧ — نهاية الايديولوجيات العلمانية للتحديث مثل الليبرالية

(قبل ١٩٥٢) والاشتراكية العربية (بعد ١٩٥٢) والماركسية وفشلها فى احداث تغييرات جذرية فى تاريخ البلاد ونهضة شاملة تحمى الامة . فقد تعاونت الليبرالية مع الغرب وأصبحت موالية له . ومن خلالها نشأ الاقطاع وازدهرت الرأسمالية ، وتدخل القصر والاستعمار فى الحياة النيابية . كما انتهت الاشتراكية العربية الى مزيد من احتلال الاراضى ، وتكوين طبقة جديدة ، وتعذيب فى السجون ، واضطهاد للحركة الاسلامية ، وقضاء على الحريات ، وسيادة الانحلال والفساد . أما الماركسية فانها مجتثة الجذور من تاريخ الامة ، تدين بالولاء للغير، ولا تجد لها رصيدا فى قلوب الناس . لم يبق اذن الا الجناح الآخر ، الحركة الاسلامية لما لها من رصيد تاريخى ، وتعاطف شعبى ، وامكانيات تربوية وأخلاقية ، وقدرة على التنظيم والمقاومة ، وأهداف عليا . وبالتالى ظهرت الجماعات الاسلامية كبديل محتمل لنظام الحكم السابق ، والاكثر احتمالا من الليبرالية والقومية والماركسية . وبدأ الناس يتساءلون لقد جربنا كل شىء فلماذا لا نجرب الاسلام هذه المرة ، وهو ما نعرفه أكثر من غيره(٨) ؟

٨ — كان لانتصار الثورة الاسلامية فى ايران أثر غير مباشر على ثقة الحركات الاسلامية بقدرتها على الفعل . فقد حيت الجماعة الاسلامية الثورة الاسلامية فى ايران ونشرت صور الخمينى على غلاف مجلاتها ، وتظاهرت ضد قدوم الشاه الى مصر ، وحيت نضال المجاهدين فى افغانستان . وبالرغم من ضيق أفق الجماعات واعتبار أن

---

(٨) انظر بحثنا : نشأة الاتجاهات المحافظة فى وطننا العربى الراهن قضايا عربية ، يناير ١٩٨٠ ، الجزء الخامس .

الخلاف العقائدى بين الشيعة والسنة مانعا من التحالف الثورى ، الا أن نمط الثورة الاسلامية فى ايران التعاون بين الجيش والشعب كان أحد نماذج الثورة الاسلامية المقبلة فى مصر(٩) .

٤ — ما هو العمل والحل ؟

ليست الجماعات الاسلامية مرضا خبيثا يجب اجتثاثه أو داء عضالا يجب القضاء عليه أو ظاهرة مرضية تجب معالجتها أو تنظيما اجراميا لابد من تقديمه للمحاكمة وانهائه داخل السجون والمعتقلات . فلو كانت هذه هى النظرة لاستمرت الجماعات ولقويت ، ولازدادت شوكتها والتاريخ القريب شاهد على ذلك منذ واقعة الاستيلاء على الفنية العسكرية على يد حزب التحرير الاسلامى فى ١٩٧٤ الى مقتل الشيخ الذهبى على يد جماعة التكفير والهجرة فى يوليو ١٩٧٧ حتى اغتيال الرئيس السابق على يد جماعة الجهاد فى أكتوبر ١٩٨١ . وفى كل مرة يزداد عدد المتهمين ، ويتسع انتشار الجماعات . وليس الهدف هو القضاء عليها ، ومنعها من الانتشار وانتشال أعضائها من الضلال وارجاعهم الى حظيرة المسلمين وذلك بارشاد رجال الدين الذين يقومون بواجبهم وبحل مشاكل الشباب وزيادة عدد الاندية الرياضية ! فالجماعات الاسلامية ظاهرة صحية فى مضمونها وان كان الشكل هو الذى فرضته الظروف ، ظروف الحركة الاسلامية خاصة ابان الثورة المصرية . وان الحل الوحيد ، فيما يبدو ، هو اعادة النظر فى العوامل

---

(٩) هذا واضح من أقوال عبود الزمر فى قضية اغتيال السادات الجزء السادس : الاصولية الاسلامية .

التى ساعدت على نشأتها ثم تحويل هــذه العوامل نحو اشكال أكثر صحية وأكثر شرعية من الاشكال التى ظهرت فيها الجماعات حتى الآن ٠

ويمكن تحديد ذلك على النحو الآتى :

١ ــ ضرورة عودة الاخوان المسلمين كبرى الحركات الاســلامية المعاصرة ، والوريث الشرعى لحركة الاصــلاح الدينى والباعث على نهضتها من جديد والتى أحيت فى قلوب المسلمين أمل الدولة الاسلامية وعزة الاسلام ، ونصرة المسلمين ٠ جهادهم التربوى من أجل اعداد الشباب معروف ومشهود ، وجهادهم فى فلسطين أثار اعجاب الجيش النظامى ، وحربهم الانجليز فى قناة السويس فى ١٩٥١ بالتعاون مــع الضباط الاحرار كان فخرا للحركة الوطنية المصرية ٠ وتوطيد أواصر الصداقة والتعاون بين أرجاء العالم الاسلامى كان بداية الحركات الحالية للوحدة العربية وللجامعة الاسلامية(١٠) ٠

وقد كان الاخوان قاب قوسين أو أدنى من النصر قبيل الثورة المصرية وبعدها لولا حدوث الشقاق بين أعضاء مجلس قيادة الثورة ، ووقوع الصراع على السلطة بين الثورة والخوان ، وحدوث أكبر مأساة فى تاريخ مصر الحديث التى شقت الامة الى قسمين ، وقسمت وجدانها شقين ، الاسلام والثورة ، الدين والوطنية ، حاكمية الله وحاكمية البشر ٠ فلايمكن فى مصر أو فى أى بلد اسلامى أن يغيب تنظيم اسلامى شرعى قادر

---

(١٠) أنظر مقالينا ماذا خسرت مصر بالقضاء على الاخوان ؟ وماذا كسبت مصر من جماعة الاخوان . الجمهورية ١٩٧٦/٣/٢٠ ، ١٩٧٦/٥/١٠ الجزء السابع : اليمين واليسار فى الفكر الدينى .

على التعبير عن الاسلام باعتباره تاريخ الامــة وروحها ، والمعبر عن مطالبها ، ووعاء وحدتها الوطنية ، وبوتقة اتجاهاتهــا السياسية . فالجماعات الاسلامية هى الجماعات الشاردة نظرا لغياب التنظيم الام القادر على احتواء أبنائه . ويمكن للجماعة الاسلامية أن تكون جناحا جذريا داخل التنظيم الام كما يمكن لجماعات الهداية والرشاد ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجمعية الشرعية ، وأنصار الســنة المحمدية ، والازهر وغيره أن تكون جناحا لينا طيعا فى مقــابل جنــاح الشباب الذى تمثله الجماعات الاســلامية . ولكن يظل تنظيم الاخوان المسلمين هو التنظيم الام القادر على احتواء أجنحته ، والقادر على أن يعقد حوارا داخليا بين فرق المســلمين من منطلق واحد وهو الاسلام ونحــو هدف واحد وهو اقامة الدولة الاســلامية . ولكن قبل ذلك لابد من حدوث مصالحة رسمية وعلنية بين الثورة والاخوان ، بين الدولة والحركة الاسلامية ، وأن يتم اعتذار رسمى من الدولة عما حدث لكبرى الحركات الاسلامية من اضطهاد وتعذيب دون ذنب اقترفه الابرياء . وأن تلغى قرار الحل الصادر فى ١٩٥٤ ، وأن يعاد اليهم المركز العام الذى اشتراه الاخوان بأموالهم وبحلى نسائهم والذى انقلب من مركز للهداية والدعوة الاســلامية ، وقلب نابض للعالم الاسلامى الى قسم الدرب الاحمر يسجن فيه المتسولون والمجرمون والقوادون ! وعلى هذا النحو يمكن أن تمحى الغصة من الحلق والاسى من القلب والحزن من النفس ، والثأر القديم بين الاخوان والثورة . ويبدأ كل منها صفحة جديدة من أجل مصر وصالح الامة ونصرة الاسلام وعزة المسلمين .

٢ — ضرورة عقد حوار مفتوح بين كافة الاتجاهات الوطنية ، والاحزاب السياسية ، والقوى الاجتماعية حول القضــايا المصيرية

فى البلاد وعلى رأسها كيفية مواجهة الاستعمار والصهيونية فى الخارج والقضاء على التسلط والفقر فى الداخل ، وأن تكون هذه المحاور الاربعة هى قلب الحياة الوطنية وليس اتحاد الكرة أو أخبار الدوري أو المسلسلات التلفزيونية أو اعلانات البضائع المستوردة • وعلى هذا النحو تواجه الدعوة الاسلامية التحديات الحقيقية ، وتشحذ ذهنها فى صياغة برامج اجتماعية وسياسية تستطيع أن تتمايز بها عن باقى الاتجاهات السياسية فى البلاد ، ولربما يظهر على يديها أن الاسلام هو النظرية الاكثر اتساعا والاقدر على اكمال البرامج الوطنية الاخرى، وعلى أن يكون بوتقة الوحدة الوطنية كما حدث فى الثورة الاسلامية فى ايران • فطالما عقد هذا الحوار الوطنى على الأعنا، وفى سرائر الناس وضمائرهم فلن تتحول الطاقات الى الداخل فى تنظيمات سرية ومنشورات مناهضة للحكم • وطالما عبر الناس عن آرائهم بصورة صحيحة ، وظهر الخلاف فى الرأى علنا ، وعلى الملأ ، وأمام أعين الجميع ، فلن يحتاج أحد الى أن يدير ظهره للنظام وأن يعمل بطريقته الخاصة ضد النظام ، وأن يجد خير معبر عنه هذه المرة ليس الفكر بل المدفع والقنبلة • وفى هذه الحالة ، لن يرى الآخرين مخالفين له فى الرأى يحاورهم وهم أحياء ويحزن على فراقهم وهم أموات بل أعداء ينهى حياتهم ، ويفرح لمماتهم • فالعنف أو التطرف انما هو نتيجة طبيعية لغياب الحرية والديمقراطية ، وانعدام الحوار العلنى المفتوح بين كافة القوى السياسية ، وتحويل للطاقات المختزنة للشباب ولقواهم النظرية والعلمية من العلن الى السر ، ومن الخارج الى الداخل ، ومن

مواجهة النظـام الى طعنه فى الظهر . فالفكر ليس جريمة ، والرأى ليس جناية ؛ والاســلام أكثر الاتجاهات شرعية فى البلاد ، وأكثرها عمقا وأبعدها تاريخا ، وأوسعها انتشارا ، وأقواها ضمانا ، وأحرصها على هوية الناس . لكل اتجــاه لسان حاله ، جريدته اليومية ومجلته الاسبوعية أو الشهرية ؛ وكتابه السنوى ، ونشراته ومؤلفاته بل ومطابعه ومعاهده وتنظيماته ، وكل ذلك ترعاه الدولة وتؤيده ، وما الدولة الا كيان صـــورى وفكرة مجردة لا وجود لهـــا الا من خلال الجسم الحى للمواطنين ، دمائهم وعظامهم ولحمهم وحياتهم . فان عادت الدولة قواها ولتجاهاتها فانها تقضى على حياتها بيدها وتنتحر دون أن تدرى . أن حرية الفكر هى شرط التقدم ، وقد يكون خطؤنا الحديث اننا بدأنا بالضباط الاحرار وليس بالمفكرين الاحرار وبالتالى نكون قد وضعنا العربة أمام الحصان(١١) .

٣ — وضع نهاية لكافة مظاهر النفاق الدينى فى أجهزة الاعــلام ومؤسسات الدولة واعطاء المؤسسات الدينية استقلالها عن السلطة . والصيــام الذى يكلف الدولة مئـات الملايين من الجنيهـات بالعمـــلة

---

(١١) انظر مقالنا الضباط الاحرار أم المفكرون الاحرار ؟ قضايا عربية، سبتمبر ١٩٧٩ وأيضا ، الجزء الثانى : الدين والتحرر الثقافى . ولذلك وضع سبتيوزا عنوانا فرعيا لرسالته فى اللاهوت والسياسة « فى أن حرية الفكر ليست خطرا على التقوى ولا على سلامة الدولة بل ان القضاء على حرية الفكر فيه خطر على التقوى ويهدد سلامة الدولة » . انظر ترجمتنا وتقديمنا للرسالة ، الطبعة الثانية ، الانجلو المصرية ١٩٧٨ .

الصعبة لتوفير المواد الغذائية واستيراد كماليات رمضان ، والشهادتان اللتان لا تتعديان تمتمة الشفاة ، وتحويل الدور الارضى من عمارات من عشرات الطوابق لاعفائها من العوائد ، وبناء المساجد من الفنانين والفنانات ورجال الاعمال ووجهـاء الدولة ، والتكسب من الكتب الدينية والبرامج الاذاعية والاحاديث التلفزيونية والاثراء من قراءة القرآن والمناصب الدينية ، وطبعات القرآن وتغليفه بالقطيفة الحمراء ثم لا تفتح أو تقرأ بل نتبادلها كالهدايا أمام عدسات التصوير تعبيرا عن الايمان ، وجعل الشريعة المصدر الرئيسى للتشريع فى نطاق الحدود والاحوال الشخصية ، وممارسـة الانفتاح الاقتصادى وكبت الحريات والتسليم بالصهيونية والتحالف مع الاستعمار ، وتكوين لجان لتقنين الشريعـة من المهربين وتجار الحشيش والمقاولين والسماسرة والمضاربين ، وتكوين هيكل عظمى يسمى جامعة الشعب العربية والاسـلامية لسـد فراغ الجامعة العربية ، واصدار « العروة الوثقى » كلسـان حال للنظـام السياسى ، وتأييد مجاهدى أفغانستان لا حبا فى الاسلام ولكن عداء للاتحاد السوفيتى وتعاونا مع الاستعمار الذى أصبح بين يوم وليلة مؤيدا للمسلمين وكأن شعب فلسطين ليس مسلما ، ومعاداة الثورة الاسلامية فى ايـران باسم المحبة وكراهية للدم ، واستعمال فقهـاء السلطان وفقهاء الحيض والنفاس لتحليل ما يريد الحاكم وتحريم ما لا يريده ، فلا يجوز الصلح أو المفاوضة أو الاعتراف باسرائيل باسـم الاسلام بعد هزيمة ١٩٦٧ تأييدا للخط السياسى آنذاك ، ويجوز الصلح والاعتراف والتفاوض مع اسرائيل بدليل صلح الحديبية تأييدا للخط السياسى بعدها بعشرة أعوام ، والفتوتان من نفس المكان ومن نفس

الرجال وبالاعتماد على نفس النصـوص ! فلماذا لايثور الشباب المسلم اذن ضـد مظاهر النفاق الدينى ويحرمـون الصـلاة فى مسـاجد الاوقاف ويشقون عصا الطاعة على رجال الدين ، ويصلون فى مساجدهم الاهلية ويثقون بانهم الشرفاء (١٢) ؟

٤ — دخول البلاد فى مشروع قومى واحد حتى يمكن تجنيد كل القوى الوطنية حوله ، ويجند الشباب المسلم الطاهر فيـه تعبيرا عن معارك الاسـلام ونداء للجهاد وطلبا للشهادة . لم تظهر الجماعات الاسـلامية فى الستينات عندما كانت البلاد مجندة فى مشروع قومى واحد ، بناء الاشتراكية فى الداخل ومواجهة الصهيونية والاستعمار فى الخارج ، ووجد الشباب كله البديل الوطنى الذى لم يوجد فى السبعينات فظهرت الجماعة الاسلامية كبديل واحد وجذبت الشباب نحوها بعيداً عن الانفتاح والاستهلاك والعمالة والتسليم والاستسلام . فالجهاد فريضة لا شك فيها ، واقامة الدولة الاسلامية مطلب اسلامى يقينى والشباب مازال طاهرا يود الولاء لقضية عامة . وبالتالى تكون مسئولية الدولة فى غياب مشروع قومى واحد يمكن اطلاق طاقات الشباب فيه ، وتحويل المشروع الاسلامى الى مشروع مرحلى ، وتحويل المشروع القومى الى أحد جوانب المشروع الاسلامى . وعلى هذا النحو يمكن اعادة الجماعات الاسلامية الى الوطنية كدعامة لها ، وتيار اصيل فيها ، كما يمكن للحياة الوطنية أن تجد جذورها فى التراث الاسلامى ، ولا

---

(١٢) أنظر مقالنا : الوثنية الجديدة . الجمهورية ١٩٧٦/٧/١٦ ، الجزء السابع ، اليمين واليسار فى الفكر الدينى .

غرابة فى أن يكون ذلك هو تراث الحزب الوطنى القديم ، وأن يكون الافغانى رائد الحركة الاسلامية الحديثة هو رافع شعار « مصر للمصريين » .

---

(١٣) انظر بحثنا : مخاطر السلام ، قضايا عربية ، الجزء الثالث ، الدين والنضال الوطنى .

فهرس الموضوعات

الحركات الدينية المعاصرة

رقم الايداع بدار الكتب

٧٦٤٢ / ٨٨

٩٧٧ — ١٣٣ — ١٠٦ — ×

دار النشر للطباعة

الدين والثورة
في مصر
١٩٥٢ - ١٩٨١

١- الدين والثقافة الوطنية

٢- الدين والتحرر الثقافي

٣- الدين والنضال الوطني

٤- الدين والتنمية القومية

٥- الحركات الدينية المعاصرة

٦- الأصولية الإسلامية

٧- اليمين واليسار في الفكر الديني

٨- اليسار الإسلامي والوحدة الوطنية

مكتبة مدبولي
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة ت : ٧٥٦٤٢١

طبع الغلاف بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢